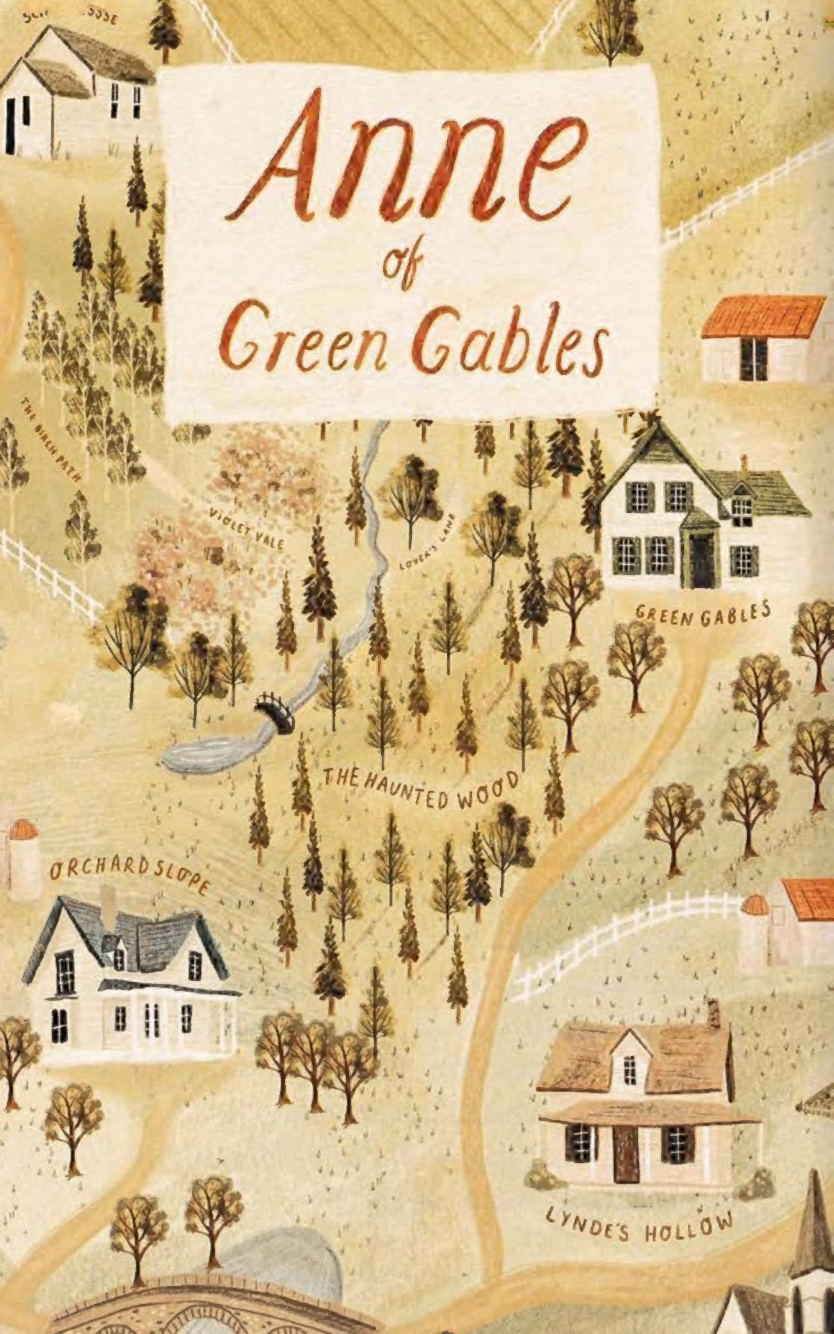

لوسي مود مونتغمري
وادي قوس المطر
آنْ 7
مكتبة
ترجمة
هزار رعد
مراجعة وتدقيق
سارة شيبان





Anne
of
Green Gables
THE BIRCH PATH
VIOLET VALE
LOVER'S LANE
GREEN GABLES
THE HAUNTED WOOD
ORCHARD SLOPE
LYNDE'S HOLLOW

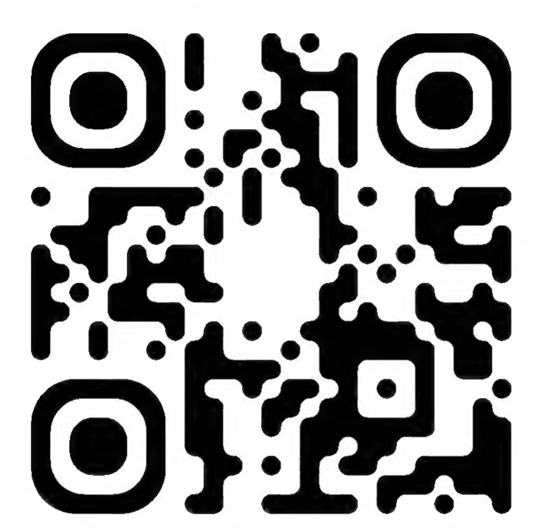
وادي قوس المطر

الجزء السابع

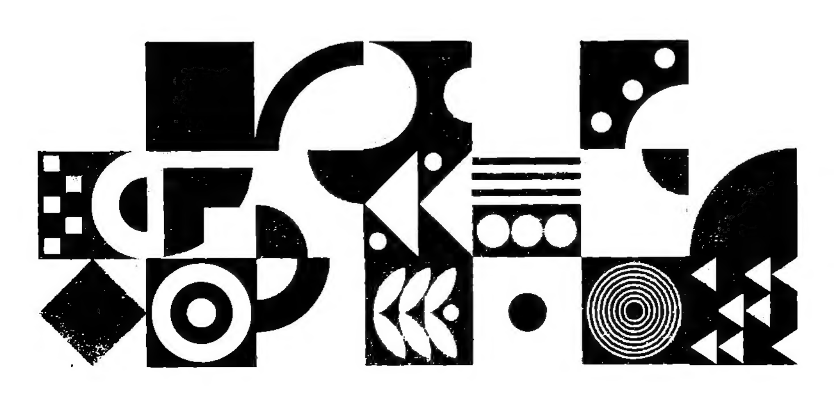


الجزء السابع من حكاية آن ..

انقر هنا .. اتبع الرابط!



telegram @soramnqraa



لوسي مود مونتغمري

وادي قوس المطر

الجزء السابع

ترجمة: ضحى السمان

مراجعة وتدقيق: سارة شيبان





رواية

وادي قوس المطر

لوسي مود مونتغمري

ترجمة: هزار رعد

التدقيق اللغوي: سارة شيبان

novel

rinbow valley

Lucy Maud Montgomery

Translated by: Zhazar raed

Proofreading by: Sarah Sheban

التوزيع في الخليج العربي لدى
Little Puffin

Business Center, Sharjah, Publishing City Free Zone, Sharjah, United Arab Emirates

Littlepuffinpublishing@gmail.com

منشورات فلامنكو للترجمة والتوزيع و Little Puffin

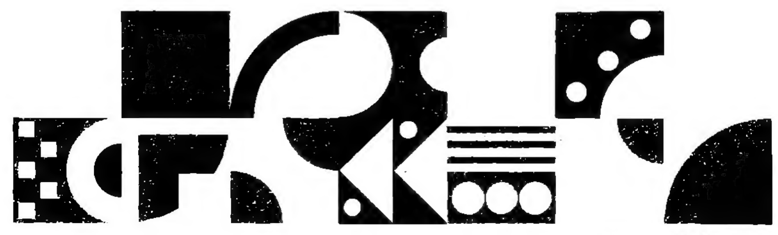
البريد الألكتروني: info@flamingopupl.com





الطبعة الأولى 2023

الرمم الدولي ردمك (ISBN)
978-9922-9289-8-2



تصميم الغلاف: ماهر عدنان
الاخراج الفني: اية نبيل

Lucy Maud Montgomery

RINBOW VALLEY

Part Seventh

Translated by:
Zhazar Raed





1
العودة إلى الدّيار



كان مساءً ربيعيًّا من أيام شهر أيّار عكس فيه ميناء "فوروينذز" غيوم سماء المغيب الذهبية بين شواطئه الأسيلة القاتمة. كان البحر يئنّ مرتاعًا عند حافة الرّمال، واجمًا رغم الربيع، غير أنّ هبوب ريحٍ مرحةٍ مراوغة هدّأ من روع درب الميناء الأحمر، حيث ارتسمت قامة الآنسة كورنيليا الموقّرة الهادئة وهي في طريق عودتها إلى قرية "جلين سانت ماري".

كانت الآنسة كورنيليا زوجة "مارشال إيليوت" شرعيًّا، ولقد كانت هذه هي الحال منذ ثلاثة عشر عامًا ولكن على الرّغم من ذلك، كان أغلب الناس ينادونها بالآنسة كورنيليا عوضًا عن السيّدة إيليوت، إذ كان اللّقب القديم عزيزًا على أصدقائها القدامى جميعهم باستثناء "سوزان بيكر"، تلك العجوز الكئيبة والخادمة المخلصة لأسرة بلايث في "إنجلسايد"، التي كانت قد انكفّت بازدراءٍ عن مناداتها بهذا اللّقب، كانت تنتهز أيّ فرصةٍ لمناداتها بـ"سيّدة مارشال إيليوت" وكانت تقولها بكل ما تملك من تشديدٍ مرهق كاد يكون مهلكًا وكأنّ مرادها أن تقول: "أردت أن تكوني سيّدة وسيّدةً ستكونين."

كانت الآنسة كورنيليا متوجّهةً إلى "إنجلسايد" لرؤية الطّبيب بلايث وزوجته اللذين عادا إلى الدّيار من أوروبا. كانا قد غادرا في شباط لمدّة ثلاثة أشهرٍ لحضور مؤتمرٍ طبّيٍّ ذائع الصّيت في لندن. وحدثت بعض الأمور في قرية جلين إبّان غيابهما، أمورٌ كانت الآنسة كورنيليا تتوق لسرد تفاصيلها للزوجين العزيزين. أوّلها إقبال أسرةٍ جديدةٍ إلى الدّير. وأيّها أسرة! كانت الآنسة كورنيليا قد مرّت بهم عديدًا من المرّات بينما كانت تتنزّه.

وبينما هي قادمة، لمحتها "سوزان بيكر" و"آنّ شيرلي" من الأيّام الخوالي حين كانتا جالستين على الشّرفة الكبيرة في إنجلسايد تستمتعان بحلاوة شدو عصافير أبي الحنّاء النّاعسة عند الغسق، وتراقص أزهار النّرجس البرّية عند جدار الطّوب الأحمر القديم في الحديقة.

كانت آن جالسة على الدرج شابكةً يديها فوق ركبتيها. كانت تتمتع بأقصى فتوّة يمكن لأمّ أنجبت العديد من الأطفال التّمتّع بها، وكانت عيناها الخضراوان الرّماديتان اللّتان كانتا تحدّقان بدرب الميناء مفعمتين بالأمل والنّور الذي لا ينطفئ. وخلفها، كانت "ريلا بلايث" ملتفّةً على نفسها في الأرجوحة الشّبكيّة. فتاةٌ ربيلةٌ وبدينة في السّادسة من عمرها وأصغر أطفال "إنجلسايد". كان لها شعرٌ أحمر مجعّدٌ وعينان عسليّتان باتتا في تلك الآونة متناهيتين في الصّغر، عقب الطّريقة المتغضّنة الطّريفة التي كانت ريلا دائمًا ما تنام بها.

أمّا شيرلي، أو كما كان يُعرف في الأسرة بـ "الفتى الأسمر الصغير"، فقد كان نائمًا في أحضان سوزان. كان بنيّ الشعر والعينين، أسمرَ البشرة، ذا خدّين ورديّين للغاية، وبالطبع كان له في قلب سوزان مكانةٌ خاصّة. كانت آن قد عانت من السقم لفترة طويلة بعد ولادته، لذا اهتمّت سوزان بالرّضيع وخصّته بالكثير من الحنان العاطفيّ الذي لم تمنحه لأيّ من الأطفال الآخرين رغم معزّتهم عندها. لم يعترف

الطّبيب بلايث بذلك ولكن لولا سوزان لما كان الطّفل حيًّا يُرزق اليوم.

"لقد وهبته الحياة بقدر ما فعلت يا عزيزتي زوجة الطّبيب، إنّه طفلي تمامًا كما هو طفلك" هذا ما اعتادت سوزان على قوله. وبالفعل، لطالما كانت سوزان ملاذ شيرلي الآمن، وكان دائمًا ما يلجأ إليها لتطبع قبلاتها على جراحه ولتهزهزه إلى أن يغلبه النعاس، ولحمايته من الضرب المؤنّب الذي دائمًا ما كان شيرلي يستحقّه. وكانت سوزان قد قامت بضرب جميع أطفال أسرة بلايث الآخرين حيث اعتقدت أنّ ذلك ما يتطلّبه تقويم سلوكهم، ولكنّها لم تسمح لنفسها أو لوالدة شيرلي بضربه قطّ. وكم أثارت تلك المرّة، التي قام فيها الطّبيب بلايث بضربه الإمتعاض في نفس سوزان.

وقالت بكلّ نقم: "قد يؤذي ذاك الرجل ملاكًا يا زوجة الطّبيب العزيزة، قد يفعل ذلك." وأقلعت عن صنع الفطائر له لأسابيع.

كانت قد اصطحبت شيرلي إلى منزل أخيها طوال فترة غياب والديه، في حين ذهب جميع الأطفال الآخرون إلى "أفونلي" فتهنّأت بوجوده لها وحدها فقط لمدّة ثلاثة أشهر، بيد أنّ سوزان كانت منبسطة الأسارير لعودتها إلى "إنجلسايد" مع جميع محبوبيها حولها مجدّدًا. لقد كانت "إنجلسايد" عالمها وكانت هي ملكته الأعظم. حتّى أنّ آن كانت قلّما تشكّك في خياراتها، الأمر الذي كان يقزّز السيدة "ريتشل ليند" من "المرتفعات الخضراء" التي كانت تخبر آن متى ما وفدت إلى "فوروينذز" أنّها تسمح لـ سوزان بالتصرّف بكثيرٍ من القيادة وأنّها ستعضّ أصابعها ندامةً على ذلك يومًا ما.

قالت سوزان: "ها هي "كورنيليا براينت" قادمة عند طريق الميناء يا عزيزتي زوجة الطّبيب، لا بدّ أنها في طريقها وفي جعبتها ما يعادل ثلاث أعوامٍ من الثّرثرة لنا."

فأجابت آنّ: "آمل ذلك. أنا متعطشة لنميمة جلين سانت ماري يا

سوزان. آمل أن تتمكن الآنسة كورنيليا إخباري بجميع ما جرى في أثناء غيابنا، جميع الأحداث عمّن أبصر النّور أو من تزوّج أو من ثمل، من فارق الحياة أو من رحل ومن قدم أو تقارع أو خسر بقرةً أو وجد معشوقًا. إنه لفرحٌ عظيم تواجدنا في الدّيار مجدّدًا برفقة جميع أصدقائنا الأعزّاء في قرية جلين وأنا أودّ معرفة جميع أنبائهم. أتساءل لم، أذكر أنّني حين مررت بـ "آبي ويستمينستر" تساءلت عن أيّ من عاشقَيها المميّزين سوف تتزوّج في نهاية المطاف. أتعلمين يا سوزان؟ يراودني شكٌّ رهيب في أنني أحبّ النميمة."

قالت سوزان معترفة: "بالطّبع يا عزيزتي زوجة الطّبيب، فكلّ امرأةٍ تحبّ سماع الأخبار وأنا أيضًا مهتمة بقضيّة "ميليسنت درو". لم يكن لي عشيقٌ قطّ فما بالك باثنين؟ وأنا لا أمانع ذلك الآن إذ لا ضير في كون المرأة عانسًا حين تعتاد ذلك. دائمًا ما يبدو شعر "ميليسنت" وكأنها سرّحته باستخدام مكنسة ولكن يبدو أن الرّجال لا يكترثون لذلك."

"إنهم لا يرون سوى وجهها اللّطيف السّاخر والأخّاذ يا سوزان."

"لربّما تكون هذه هي الحال يا عزيزتي زوجة الطّبيب. يقول الكتاب المقدّس أنّ الإحسان مخادعٌ وأن الجمال يذهب سدى، ولكنّني ما كنت لأمانع اكتشاف ذلك بنفسي لو كان الأمر بتلك البساطة. لا أشكّ في أنّنا سنكون جميعنا ساحرين حين نصبح ملائكة، ولكن ما الجدوى من ذلك حينها؟ بالحديث عن النّميمة، سمعت أن السيّدة "هاريسون ميلر" من الميناء قد حاولت شنق نفسها الأسبوع الفائت."

"آه سوزان!"

"هدّئي من روعك يا عزيزتي زوجة الطّبيب، فهي لم تفلح. لكنّني لا ألومها على المحاولة، لأنّ زوجها رجلٌ مريعٌ. ولكنّها ساذجةٌ جدًّا لتفكيرها بشنق نفسها وسنح الفرصة أمامه للزّواج من امرأةٍ أخرى. لو

كنت مكانها يا عزيزتي زوجة الطّبيب، لذهبت للعمل لعلّ القلق يتملّكه فيحاول شنق نفسه عوضًا عني."

أجابت آنّ دون تردّد: "ما خطب هاريسون ميلر على أيّة حال؟ دائمًا ما يدفع الآخرين إلى أقصى حدودهم."

"حسنًا، البعض يسمّيه دينًا والبعض الآخر يسمّيه لعنًا. اعذريني يا عزيزتي زوجة الطّبيب، على التلّفظ بهكذا كلمة. يبدو أنّ الناس لا يستطيعون أن يعرفوا أيّهما أصحّ في حالة "هاريسون". ففي بعض الأيام يتذمّر للجميع ظنًّا منه بأنّ مصيره العقاب المؤبّد. وفي أيامٍ أخرى، يقول أنّه لا يبالي ويروح يثمل. أرى أنّ عقل هذا الرّجل ليس سليمًا لأنّ الجميع في عائلة ميلر كذلك. لقد فقد جدّه صوابه وظنّ أنه محاطٌ بعناكب سوداء ضخمة تمشي عليه وتطوف في الهواء من حوله. آمل أنني لن أفقد صوابي أبدًا يا عزيزتي زوجة الطّبيب، ولا أخال أنّ ذلك سيحدث أبدًا لأنّ ذلك ليس من عادة آل "بيكر" ولكن إن صدر مرسوم مفاده جنوني، آمل ألّا يكون عبارة عن عناكب سوداء كبيرة إذ أنني أبغض الحيوانات. أمّا بالنسبة للسيدة "ميلر"، فأنا لا أدري ما إذا كانت تستحق الشفقة أو لا. فالبعض يقول إنها تزوجت من "هاريسون" فقط لتغيظ "ريتشارد تايلر" وأنا أرى ذلك سببًا غريبًا للإقدام على الزواج، ولكن لا بدّ أنّ شخصًا مثلي ليس مخوّلاً للحكم في الأمور الزّوجيّة يا زوجة الطّبيب العزيزة. وها هي "كورنيليا براينت" عند البوابة لذا سأضع هذا الطفل الأسمر الهنيء على سريره وآتي بأدوات الحياكة."

***

2
محض نميمة



حين انتهت أولى التحيات، حماسيّة من جانب آن، كريمة من جانب سوزان ووديّةً من جانب كورنيليا، قالت تلك الأخيرة متسائلة: "أين باقي الأطفال؟"

فأجابت آنّ: "شيرلي في سريره أما جيم ووالتر والتوأمان فهم في وادي قوس المطر العزيز عليهم. لقد عادوا للمنزل هذا المساء كما تعلمين، ولكنهم بالكاد تمكنوا من الانتظار حتى انتهاء العشاء قبل أن يسارعوا إلى الوادي. فهو المكان الأقرب إلى قلوبهم حتى أنّ بستان القيقب لا يضاهيه حبًّا في نفوسهم."

قالت سوزان مغمومة: "أخشى أنهم يحبون ذاك المكان أكثر ممّا ينبغي. أذكر أنّ جيم الصّغير قد قال ذات مرّة أنه يفضّل أن يذهب بعد موته إلى وادي قوس المطر بدلًا من الجنّة وذلك ليس تفكيرًا ملائمًا."

قالت الآنسة كورنيليا: "لا شكّ في أنهم حظوا بوقتٍ ممتع في أفونليا."

"أحسنتِ قولًا. فماريلا تفرط في تدليلهم، ولا سيّما جيم فهو كالملاك في نظرها."

قالـت الآنسـة كورنيليـا: "لا بـدّ أن الآنسـة "كوثبرت" قـد تقدمت في السّن."

وراحت تخرج عدّة حياكتها لتحيك خاصتها مع سوزان إذ كانت تؤمن بأنّ المرأة التي تعمل لها أفضلية على تلك التي لا تفعل.

قالت آنّ متنهّدة: "ماريلا في الخامسة والثمانين من عمرها، وقد اشتعل رأسها شيبًا ولعلّ أغرب ما في الأمر هو أنّ بصرها أفضل ممّا كان عليه حين كانت في الستين."

"على أيّ حال، تسعدني عودتك بحقٍّ يا عزيزتي فلقد شعرت بوحدة موحشة. ولكن صدقيني حين أخبرك أننا لم نملّ في قرية جلين على الإطلاق. لا أظن أنني حظيت بربيعٍ محمّسٍ كهذا من قبل، رغم جميع مسائل الكنيسة، اعتمدنا كاهنًا في نهاية المطاف يا عزيزتي آنّ."

وأضافت سوزان: "إنه القسّ "جون نوكس ميريديث" يا زوجة الطّبيب العزيزة." عازمةً على ألّا تكون الآنسة كورنيليا هي من تسرد جميع الأنباء.

سألت آنّ: "هل هو لطيف؟"

وهنا تنهدت كورنيليا وتأفّفت سوزان.

فأجابت الأولى: "أجل إنّه لطيف بما يكفي، وليس هذا وحسب بل هو غاية في اللّطف والثّقافة والرّوحانية، ولكنه لا يتمتّع بحسّ المنطق يا عزيزتي آن."

"وكيف حصل أن استدعيتموه إذًا؟"

قالت الآنسة كورنيليا متابعةً الحياكة: "حسنًا، لا شكّ في أنّه أفضل واعظٍ في تاريخ كنيسة "جلين سانت ماري" وأعتقد أنّ سبب عدم تلقّيه استدعاء من البلدة هو كونه شخصًا غافلًا شارد الذهن. صدّقيني، لقد كان خطاب محاكمته مبهرًا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وقد انبهر به الجميع ناهيك عن مظهره."

تدخلت سوزان، ظنًّا منها بأنه حان الوقت لتثبت وجودها ثانيةً، فقالت: "إنه بالفعل وسيم للغاية يا عزيزتي زوجة الطّبيب، وفي نهاية المطاف تعجبني رؤية رجلٍ مشرق الجبين في المنبر."

أضافت الآنسة كورنيليا: "لقد كنا متلهّفين لاعتماد كاهن، وكان السيد ميريديث أول من وافقنا عليه بالإجماع، إذ واجه جميع الآخرون اعتراضاتٍ من قبل البعض. كما دارت بعض الأحاديث بشأن استدعاء السيد "فولسوم،" وبيد أيضًا أنّ الناس لم يكترثوا لمظهره إذ كان يبدو شديد الكآبة والأناقة."

قالت سوزان: "كان أشبه بقطٍّ أسود ضخم يا عزيزتي زوجة الطّبيب، وما كنت لأطيق لقاء هكذا رجل في منبر الكنيسة كلّ يوم أحد."

تابعت السيدة كورنيليا قائلة: "وبعد ذلك، أقبل السيد "رودجرز" وكان كالصّنم لا ضير منه ولا نفع، ولو أنه ألقى بمواعظه كما فعل كلٌّ من "بول" و"بيتر" ما كان ذلك لينفعه البتّة إذ أن خروف "كالب رامساي" قد شرد ذاك اليوم وانتهى به المطاف داخل الكنيسة وراح يطلق مأمأةً عاليةً بمجرّد أن أعلن السيد "رودجرز" عن نصّ خطابه، فانفجر الجميع ضحكًا، واندثرت كل فرصه بعد ذلك. ظنّ البعض أنه لا بدّ لنا من استدعاء السيد "ستيوارت" لأنه كان مثقّفًا لدرجةٍ تخوّله قراءة كتاب العهد الجديد بخمس لغات مختلفة."

تدخلت سوزان مجدّدًا قائلة: "لا أعتقد أنّ ذلك أنقص من تأكدّه من ذهابه إلى الجنّة شيئًا مقارنةً بباقي الرجال."

قالت الآنسة كورنيليا متجاهلةً سوزان: "لم ينل ما قدّمه إعجاب معظمنا، فقد كان كثير التمتمة في حديثه. والسيد "آرنيت" لم يتمكن من إلقاء الموعظة على الإطلاق كما أنّه اختار أسوأ نص ترشيحي في الكتاب المقدّس "اللعنة عليك يا ميروز"."

قالت سوزان: "أخذ يلطم الكتاب المقدّس متى ما نفدت أفكاره،

وراح يصرخ متذمّرًا "اللعنة عليك يا ميروز". مسكينٌ أيًّا كان ذاك المدعوّ "ميروز" لا بدّ من أنه تلقّى وافرًا من اللّعن في ذلك اليوم يا زوجة الطّبيب العزيزة."

صرّحت الآنسة كورنيليا قائلة: "ينبغي على الكاهن المرشّح أن يتوخى أقصى حذره في اختيار نصه. أظن أن السيد "بيرسون"، كان ليتلقى استدعاءً لو أنه اختار نصًا آخر. ولكن أمره انتهى بمجرّد أن أعلن أن نصه هو "حين أرنو نحو الهضاب"، فارتسمت ابتسامةٌ ماكرةٌ على وجوه جميع الحضور، لأنّهم كانوا على دراية بأن فتاتي الهضاب من "رأس الميناء" كانتا تنويان إيقاع أيّ كاهن يأتي إلى قرية جلين بحبّهما على مدى السّنوات الخمس عشرة المنصرمة. أمّا عن السيد "نيومان" فقد كانت أسرته كثيرة الأفراد."

قالت سوزان: "بات مرةً لدى زوج أختي جيمس كلو، فسألته: "كم طفلًا لديك؟" فأجاب: "تسع صبية وأختٌ لكلٍّ منهم" فقلت: "ثمانية عشر! يا للهول، يا لها من أسرة!" فهزق هزقًا طويلًا. ولكنّني أجهل لم يا زوجة الطّبيب العزيزة فأنا متأكدة من أن ثمانية عشر طفلًا لكثيرٌ بالنّسبة لأيّ دير."

ردّت الآنسة كورنيليا محاولةً التمسّك بالصّبر: "له عشرة أطفالٍ وحسب يا سوزان، ولن يكون تواجد عشرة أطفالٍ طيّبين أسوأ بالنّسبة للدّير ورعايا الكنيسة من الأطفال الأربعة الموجودين هناك الآن. ولكنني ما كنت لأقول إنهم بذلك السوء يا عزيزتي آن فهم يروقون لي، في الواقع هم يروقون للجميع ومن المستحيل على المرء ألّا يحبهم. لو أنّهم يملكون فقط من يهتمّ بهم، ويقوّم سلوكهم وتصرّفاتهم ويعلّمهم اللّباقة والأدب والأخلاق لأصبحوا أطفالًا طيّبين. فعلى سبيل المثال، يقول معلّمهم في المدرسة أنهم مثالٌ يُحتذى به ولكنّهم ببساطة يثورون عند عودتهم إلى المنزل."

سألت آن: "وماذا عن السيدة ميريديث؟"

"لا وجود للسيدة ميريديث وهذه هي المشكلة فالسيد ميريديث رجلٌ أرمل، تُوفّيت زوجته منذ أربع سنوات. لا أظنّ أنّنا كنّا سنقوم باستدعائه لو كنّا على علمٍ بذلك إذ أنّ الرجل الأرمل أسوأ بالنّسبة لرعايا الكنيسة حتّى من الرجل العازب. حسبنا جميعًا أن الوالدة موجودة أيضًا، غير أنه لدى وصولهم لم يكن هناك أحد باستثناء الخالة مارثا العجوز، كما يدعونها. أعتقد أنّها أحد أقارب والدة السيّد ميريديث، وقد قرّر إيواءها لإنقاذها من الفقر المدقع الذي كانت تعيشه. إنها في الخامسة والسبعين من عمرها وهي نصف عمياء كما أنها صمّاء وغريبة الأطوار للغاية."

"وطباخةٌ فاشلةٌ أيضًا يا عزيزتي زوجة الطّبيب."

قالت الآنسة كورنيليا محاولةً تقبّل الأمر: "إنها أسوأ مدبّرة منزلٍ في الوجود بالنسبة للدير، والسيد ميريديث يأبى إحضار أيّ خادمة أخرى ظنًّا منه بأن ذلك قد يجرح مشاعر الخالة مارثا. صدقيني يا عزيزتي آن حين أقول أنّ ذلك المنزل في حالٍ يُرثى لها. فالغبار يغطّي الأثاث برمّته ودائمًا ما يكون كلّ شيء هناك منقلبًا رأسًا على عقب. أكاد لا أصدق أنّنا أعدنا دهنه وترتيبه قبل مجيئهم."

سألت آن وقد بدأت تمنح حب الأمومة للأطفال في قلبها: "أقلتِ أنّهم أربعة أطفال؟"

"أجل. وتأتي أعمارهم تدريجيًّا واحدًا تلو الآخر. "جيرالد" أكبرهم وهو في الثانية عشر من عمره وينادونه جيري، إنه فتًى فطن. فيث في الحادية عشر من العمر وهي فتاةٌ متشبهةٌ بالصّبية ولكن لا بدّ لي من القول إنها جميلةُ المظهر."

أفصحت سوزان قائلة: "إنها تبدو كالملاك ولكنّها في الحقيقة رمزٌ للرّعب والمعاقرة والشّيطنة يا سيّدتي الطّبيبة العزيزة. لقد بتُّ في الدّير

ليلة واحدة الأسبوع الفائت وكانت زوجة "جيمس ميليسون" هناك أيضًا، وكانت قد أحضرت لهم دزّينةً من البيض ودلوًا صغيرًا من الحليب، دلو صغير جدًّا من الحليب يا زوجة الطّبيب العزيزة. فأخذتهما فيث واتّجهت بهما نحو القبو، وإذ بها تتعثّر عند أسفل السلّم وتقع أرضًا ملقيةً بالبيض والحليب على نفسها. بإمكانك تخيّل المنظر يا زوجة الطّبيب العزيزة ولكنّ تلك الطّفلة عادت تضحك قائلة: "لا أدري ما إن كنت أنا أو فطيرة كاسترد" أمّا عن السيّدة "جيمس ميليسون" فقد اشتاطت غضبًا وقالت أنّها لن تأتي بأيّ شيء آخر إلى الدّير إن كان مصيره أن يفسد ويتدمّر بتلك الطريقة."

قالت الآنسة كورنيليا: لم تتأذّ "ماريا ميليسون" قطّ وهي تأخذ الأشياء إلى الدّير. قامت فيث بأخذهما بدافع الفضول ولكن دائمًا ما تقع تلك الطّفلة المسكينة بالمصائب ذلك أنّها متهوّرةٌ وهوجاء للغاية."

قالت آن بكلّ تأكيد: "مثلي تمامًا. لا بدّ من أنني سأحب فيث تلك."

قالت سوزان معترفة: "إنها تتمتع بكثير من الشجاعة والإقدام وذلك يروق لي يا عزيزتي زوجة الطّبيب."

أقرّت الآنسة كورنيليا: "هناك ما يجذب بشأنها، دائمًا ما تجدينها تضحك، وذلك يجعلك ترغبين في الضّحك أيضًا. ليس باستطاعتها تمالك نفسها ولا حتّى في الكنيسة. أمّا أونا فعمرها عشر سنوات وهي طفلةٌ لطيفة، ليست بالجميلة، ولكنّها لطيفة. و"توماس كارليل" في التّاسعة من عمره وينادونه كارل وهو مهووس بجمع الحشرات والضّفادع وجلبها إلى المنزل."

قالت سوزان: "أظنّ أنه هو السّبب وراء الجرذ الميت الذي وجدناه على الكرسي في الرّدهة مساء اليوم الذي زارتهم فيه السيّدة "جرانت" ولا عجب في ذلك فصالات الاستقبال في الدّير ليست بالمكان المناسب للجرذان الهالكة. ولربما يكون القطّ هو من تركه هناك، فقد

بلغ حدّه آمن الشّبع وأصبح بدينًا. أرى أنّه ينبغي لقطّ الدير أن يبدو لبقًا، ولو كانت الحقيقة منافيةً لذلك يا زوجة الطّبيب العزيزة. ولكنّني لم أرَ حيوانًا بهذا المنظر من قبل كما أنه يمشي على الحافّة العليا للدّير كل مساءٍ عند المغيب تقريبًا ويلوّح بذيله وذلك ليس مؤاتيًا."

قالت الآنسة كورنيليا متنهّدة: "ولعلّ أسوأ ما في الأمر أنهم لا يرتدون ملابس أنيقة البتّة. كما أنهم يذهبون إلى المدرسة حافي الأقدام منذ أن بدأ الثّلج بالتّساقط. وذلك يا عزيزتي آن لا يليق بأطفال الدّير كما تعلمين، ولا سيّما حين نرى أن الابنة الصّغيرة للكاهن الميثوديّ دائمًا ما ترتدي أحذيةً ذات أزرارٍ أنيقة. وأتمنّى لو أنّهم يقلعون عن اللّعب في مقبرة الميثوديّين."

قالت آن: "إنه لأمرٌ مغرٍ ولا سيّما حين تكون المقبرة بجانب الدّير، لطالما حسبت المقابر مكانًا ممتعًا للّعب."

قالت سوزان عازمةً على حماية آن من أقوالها: "كلا لم تظنّي ذلك بتاتًا يا زوجة الطّبيب العزيزة، فأنت تتمتّعين بكثيرٍ من اللّباقة والذّوق وحسّ المنطق."

فسألت آن: "ولم قاموا ببناء ذاك الدير بجانب المقبرة في المقام الأول؟ إنّ حديقة أولئك الأطفال صغيرةٌ جدًّا ولا مكان آخر لهم للّعب فيه."

قالت الآنسة كورنيليا معترفة: "كان ذلك خطأ، ولكن لم يكن أمامهم خيار آخرٌ، كما أنّه لم يفكر أطفالٌ آخرون باللّهو هناك من قبل، وأرى أنّه لا ينبغي للسيّد ميريديث السّماح بذلك. لكنّه دائمًا ما ينغمس في القراءة حين يكون في المنزل أو يسرح في مكتبه طيلة اليوم. صحيحٌ أنه لم يفوّت الحضور إلى الكنيسة كلّ يوم أحد حتّى الآن، ولكنّه نسي بشأن اجتماع الصلاة فاضطرّ أحد الشّيوخ للذّهاب إلى الدّير وتذكيره. كما نسي بشأن زفاف "فاني كوبر" لذا اتّصلوا به فسارع للقدوم على

الفور بخفّي المنزل. وما كان المرء ليمانع لو لم يضحك الميثوديّون بسبب ذلك. ولكن لحسن الحظّ ليس في وسعهم انتقاد خطاباته فهو يستيقظ حين يكون على المنبر، صدّقيني. في حين أن الكاهن الميثودي عاجزٌ تمامًا عن أن يلقي المواعظ، هذا ما يُذاع عنه. فأنا لم أسمعه بنفسي أبدًا، الحمد للّه."

هدأت مشاعر الاحتقار التي كانت الآنسة كورنيليا تكنّها للرّجال بعض الشيء منذ زواجها، غير أنّ بغضها للميثوديّين ما زال في أوجّه.

علت ابتسامة ماكرةٌ ثغر سوزان التي قالت: "يُقال إن الميثوديين والمشيخيّين يفكرّون في الاتّحاد يا سيّدة مارشال إيليوت."

ردّت الآنسة كورنيليا بحدّة قائلة: "إذن آمل ألّا أكون على قيد الحياة عند حصول ذلك، فأنا لا أرغب في التّعامل مع الميثوديين، وعلى السيد ميريديث أن يعي أنّه من الأفضل له مجافاتهم أيضًا، صدّقيني. فلقد حضر عشاء حفل ذكرى زواج "جايكوب درو" وانتهى به الأمر في مصيبةٍ عظيمة."

"ما الذي جرى؟"

"طلبت منه السيدة "درو" تقطيع الإوزّة المشويّة إذ أنّ "جايكوب درو" لا يستطيع فعل ذلك. فتولّى السيّد ميريديث الأمر، وإذ به يطيح بالإوزّة عن الطّبق لينتهي الأمر بها في أحضان السيّدة "ريس" التي كانت جالسةً بجواره، فقال بكلّ برودة: "هلّا أعدت تلك الإوزّة إليّ من فضلك؟" فأعادتها بوداعة موسى، ولكن لا بدّ من أنها كانت مغتاظةً إذ كانت تلبس فستانها الحريريّ الجديد. ولعلّ أسوأ ما في الأمر أنها ميثوديّة."

تدخلت سوزان قائلة: "أظنّ أن ذلك أفضل من كونها مشيخيّة فلو كانت كذلك لغادرت الكنيسة على الأرجح، ولا يمكننا تحمّل خسارة أعضائنا. كما أن السيّدة "ريس" غير محبوبة في كنيستها نفسها لأنها

متكبرة وتبالغ في تقدير نفسها، لذا لا بدّ للميثوديّين أن يسرّوا كون السيد ميريديث قد أفسد فستانها."

قالت الآنسة كورنيليا بصرامة: "ما أعنيه هو أنّه قام بإحراج نفسه، وبالنّسبة لي فأنا لا تعجبني رؤية كاهني يبدو سخيفًا في نظر الميثوديّين، أراهن أن ذلك ما كان ليحصل لو كانت له زوجة."

ردّت سوزان بعناد: "لا أرى كيف لكلّ زوجات العالم أن يمنعن السيّدة "درو" من شواء ذكر الإوزّ قاسي اللحم خاصّتها لمأدبة الزفاف."

قالت الآنسة " كورنيليا": يُقال أنّها كانت فكرة زوجها. يا له من مخلوقٍ مغرورٍ وخبيثٍ ومستبد."

أومأت سوزان برأسها قائلة: "كما يُقال أنّه وزوجته لا يطيق أحدهما الآخر، الأمر الذي لا يبدو لي مناسبًا للمتزوّجين ولكنّني بالطّبع لا أملك خبرةً في ذلك المجال. ولست ممّن يلقون اللّوم على الرّجال في كلّ شيء، فالسّيدة "درو" بخيلة بما يكفي كذلك، ويُقال إن الشيء الوحيد الذي تبرّعت به في حياتها كان قالبًا من الزبدة مصنوعًا من قشدةٍ كان قد وقع فيها جرذ، وكانت قد ساهمت بذلك القالب في اجتماع للكنيسة ولم يعلم أحدٌ بشأن الجرذ حتّى وقتٍ لاحق."

قالت الآنسة كورنيليا: "إنّ الأشخاص الوحيدين الذين أهانهم الميثوديّون هم ميثوديّون آخرون لحسن الحظّ. منذ أسبوعين تقريبًا، ذهب جيري ذاك إلى اجتماع الصّلاة وجلس إلى جانب "ويليام مارش" الذي نهض كعادته وراح يدلي بشهادته بشيءٍ من الخشوع وحين جلس سأله جيري: "أتشعر بحالٍ أفضل الآن؟" أراد جيري المسكين أن يبدو متعاطفًا ولكنّ السيد مارش اعتبرها وقاحةً فاغتاظ منه. وبالطّبع لا شأن لجيري في حضور اجتماع صلاة الميثوديّين على الإطلاق ولكنّ هؤلاء الأطفال يذهبون إلى حيث يحلو لهم."

قالت سوزان: "آمل أنهم لن يزعجوا السيدة "آلك ديفيس" من رأس

الميناء. أتفهم كونها امرأةً مرهفة الإحساس، ولكنّها فاحشة الثراء وهي أكثر من يدفع للرّواتب. سمعت أنّها تقول أنّ أطفال ميريديث هم أسوأ الأطفال تنشئةً رأتهم في حياتها."

قالت آن بحزم: "كلّ كلمةٍ تقولينها تزيد من اقتناعي بأن هذه الأسرة تنتمي لسلالة الذين عرفوا جوزيف."

قالت الآنسة كورنيليا معترفة: "في نهاية الأمر هم كذلك وهذا يفسر كلّ شيء. على أية حال، لا يمكن تغيير ما حصل، لذا ينبغي لنا أن نبذل ما في وسعنا لأجلهم وندعمهم للوقوف في وجه الميثوديّين. حسنًا، أعتقد أنه يجب علي النّزول إلى الميناء الآن فمارشال على وشك العودة إلى المنزل. لقد ذهب إلى الميناء اليوم وهو في انتظار العشاء. آسفةٌ أنه لم تتسنّ لي رؤية بقيّة الأطفال. وأين هو الطّبيب؟"

"إنه عند رأس الميناء. لقد عدنا للمنزل منذ ثلاثة أيّام ولكنّه لم يقض سوى ثلاث ساعات في سريره ولم يتناول سوى وجبتين في منزله."

"جميع من أصابهم المرض على مدى الأسابيع الستة الفائتة كانوا في انتظاره على أحرّ من الجمر وأنا لا ألومهم على ذلك. فالنّاس قد تملّكتها الرّيبة حين تزوج ذاك الطبيب الذي يسكن عند الميناء من ابنة الحانوتيّ في "لوبريدج" لأن ذلك لم يبدو ملائمًا. ينبغي لك وللطّبيب أن تنزلا بأسرع ما يمكن لإخبارنا جميعًا عن رحلتكما، لا شكّ في أنكما حظيتما بوقتٍ رائع."

قالت آن موافقة: "هذا صحيح، فتلك كانت تحقيقًا لسنواتٍ من الأحلام. إنّ العالم القديم مبهجٌ وعجيبٌ للغاية ولكنّنا عدنا راضين تمام الرّضى بأرضنا. فكندا هي أفضل بلاد العالم يا آنسة كورنيليا."

قالت الآنسة كورنيليا بكل رضا: "لم يشكّ أحد في ذلك قطّ."

وبينما كانت آن تمتّع عينيها بجمال المغيب والميناء والخليج، لوّحت بيدها وضحكت قائلة: "وجزرة الأمير إدوارد هي أجمل مقاطعة

فيها وفوروينذز هي أجمل بقعة في الجزيرة. لم تر عيناي ما هو أروع من هذا المنظر في أوروبا يا آنسة كورنيليا ألا بدّ لك من الذهاب؟ سيحزن الأطفال على تفويت فرصة رؤيتك."

"عليهم زيارتي قريبًا. فلتخبريهم أن جرّة الحلويات في انتظارهم."

"آه! لقد كانوا يتحدثون بشأن ذلك على العشاء. سيذهبون قريبًا ولكن عليهم التحضير للعودة إلى المدرسة الآن، كما أنّ التوأم سوف تبدآن بأخذ دروسٍ في الموسيقى."

قالت الآنسة كورنيليا بقلق: "آمل ألّا تخبريني بأنّ زوجة الكاهن الميثودي هي من ستتولى هذه المهمة!"

"لا بل روزماري ويست. لقد قضت ليلة أمس ساهرة تحضر للأمر معها. يا لها من فتاة فاتنة!"

"يبدو أن روزماري ما زالت محافظة على صيتها فهي لم تعدّ شابة كما في الماضي."

"أراها ساحرةً للغاية، أنا لا أعرفها جيّدًا كما تعلمين فمنزلها بعيدٌ جدًّا وأكاد لا أراها سوى في الكنيسة."

قالت الآنسة كورنيليا غير مدركةٍ لإشادتها العظيمة بسحر روزماري: "لطالما أُعجب الناس بروزماري ويست، على الرغم من أنهم لا يفهمونها. ودائمًا ما كانت إيلين تتسلّط عليها وتحاول الحدّ من طاقاتها إن جاز التعبير، ولكنّها لطالما اهتمّت بها ودلّلتها في الوقت عينه. كانت روزماري مخطوبةً للشّاب "مارتن كروفرد" كما تعلمين غير أنّ سفينته قد تحطّمت، وهلك جميع ركابها. كانت روزماري مجرّد طفلة لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها ولكنّ تلك الحادثة قد أثّرت فيها لدرجة أنها تغيرت تمامًا منذ ذلك اليوم. بقيت هي وإيلين في منزلهما منذ وفاة والدتهما. قلّما تزوران الكنيسة في "لوبريدج" وأتفهّم أنّ إيلين لا تسمح بالتردّد كثيرًا إلى كنيسة مشيخية. ولا بدّ أن أعترف بأنّها لا

تذهب إلى كنيسة الميثوديين فلطالما كانت عائلة "ويست" من الأسقفيّة المتعصّبين. في الواقع، لا تحتاج روزماري فعلًا لإعطاء دروسٍ في الموسيقى فهي وإيلين فاحشتا الثراء ولكنّها تقوم بذلك لأن الأمر يستهويها. تربطهما صلة قرابة بعيدة بـ "ليزلي" كما تعلمين. هل ستعود أسرة "فورد" إلى الميناء هذا الصيف؟"

"لا بل سيذهبون في رحلةٍ إلى اليابان وعلى الأرجح أنّهم لن يعودوا قبل عام. فأحداث رواية "أوين" الجديدة تدور في اليابان. سيكون هذا الصيف الأوّل الذي يخلو فيه "منزل الأحلام" القديم منذ هجرناه."

أظن أن لدى "أوين فورد" ما يكفي ليكتب عنه في كندا، دون الحاجة لسحب زوجته وأطفاله الأبرياء إلى إحدى بلاد الوثنيّة كاليابان. كان "كتاب الحياة" أفضل أعماله ولقد حصل على كلّ ما تتطلبه كتابته هنا في فوروينذز."

"لقد أعطاه جيم معظم الكتاب كما تعلمين، وقام بجمعه من جميع أنحاء العالم ولكنني أظن أن جميع كتب "أوين" مبهجة."

"آه أظن أنه لا بأس بها فأنا أحرص على قراءة كلّ كتابٍ يكتبه، على الرّغم من أنّني أؤمن بأن قراءة الرّوايات خطيئةٌ لأنّها تهدر الوقت يا عزيزتي آن. يجب أن أراسله وأخبره برأيي عن فكرة اليابان هذه، صدّقيني. أيرغب في أن يتحول كينيث وبيرسيس إلى وثنيّين؟"

وهكذا ومن دون الحصول على إجابة لهذا اللّغز، غادرت الآنسة كورنيليا. فسارعت سوزان لوضع ريلا في سريرها في حين جلست آن على مدرّجات الشرفة شاخصةً بالسماء المرصّعة بالنّجوم وراحت تحلم بأحلامها الآسنة وتأكّدت للمرة المئة أنّ لا شيء يُضاهي روعة بزوغ القمر وتألّقه في ميناء فوروينذز."

***

3
أطفال "إنجلسايد"



يحبّ أطفال أسرة بلايث اللعب بين الأعشاب المخضوضرة في بستان القيقب الشاسع المتواجد بين "إنجلسايد" وبركة "جلين سانت ماري" أمّا بالنسبة للراحة المسائية فلا يوجد أفضل من الوادي الصغير الكائن خلف بستان القيقب. كان ذلك المكان عالمًا خرافيًّا من الرومانسية في نظرهم. لقد اكتشفوه حين كانوا ينظرون من نوافذ "إنجلسايد" العليا بين الضباب وأعقاب عاصفةٍ صيفيّةٍ، وكان يزيّنه قوس مطر مبهر بدا أحد جانبيه وكأنه يصب مباشرةً عند زاوية البركة في أقصى بقعةٍ في الوادي.

قال والتر مبتهجًا: "فلنطلق عليه اسم وادي قوس المطر."

وكان هذا اسمه منذ ذلك اليوم.

لربّما تكون الرياح خارج وادي قوس المطر صاخبةً ومتخبّطة، ولكنها هنا دائمًا ما تهبّ هادئة. تتوزع فيه أشجار الكرز البريّة التي تصبح بيضاء حين تزهر في كل أرجاء الوادي، وتختلط مع البراعم الداكنة، ويعبر فيه جدولٌ صغيرٌ عنبريّ المياه ينبع من قرية جلين. كانت المنازل متباعدة عن بعضها البعض ولم يكن هناك سوى كوخٍ صغيرٍ

مهجور عند أعلى الوادي يطلق عليه اسم "منزل بايلي القديم" لم يسكنه أحدٌ لأعوام لذا كان مُحاطًا بسدٍّ مغطًى بالعشب وفي داخله حديقةٌ قديمة حيث باستطاعة أطفال إنجلسايد العثور على أزهار البنفسج والأقحوان وزنابق تمّوز حين تزهر في موسمها.

كانت الحديقة مليئة بالكراوية التي تتمايل تحت نور القمر عشيّة الصّيف كأنّها بحارٌ من الفضّة.

كانت البركة ممتدّة وعلى امتدادها تنتهي الطريق بغابةٍ بنفسجية حيث تواجد منزلٌ رماديٌّ قديم على هضبةٍ صغيرة يحرس القرية والميناء. وعلى الرّغم من كون المكان قريب من القرية غير أنّ وادي قوس المطر كان محاطًا بشيءٍ من الغموض والإلتباس الأمر الذي جعله محبّبًا لأطفال إنجلسايد.

كان الوادي مليئًا بتجاويف لطيفة غير مؤذية، كان أكبرها مكان لهوهم المفضل حيث اجتمعوا في تلك العشيّة. وفي ذلك التّجويف بستانٌ من أشجار التّنوب الحديثة وفي قلبه فسحةٌ معشوشبةٌ صغيرة تؤدي إلى ضفّة الجدول. وإلى جانب الجدول، تنمو شجرةٌ من أشجار البتولا أطلق عليها والتر لقب "السيّدة البيضاء" ذلك أنّها كانت حديثة ومستقيمة إلى حدٍّ مدهش. كما أطلق اسم "الشجرتان العاشقتان" على شجرة تنوّب وشجرة قيقب كانت قد نمت إحداهما قريبًا من الأخرى إلى أن تشابكت فروعهما على نحوٍ معقّد. وكان جيم قد علّق عليهما خيطًا من الأجراس المتأرجحة أعطاه إيّاه حدّاد القرية، عزفت عليها كلّ نسمةٍ ألحانًا من عالم الخرافة.

قالت نان: "كم تسرّني عودتنا أخيرًا. ففي النهاية، لا مكان في "أفونلي" بأكملها يضاهي روعة وادي قوس المطر."

وعلى الرّغم من ذلك، فقد كانت جميع الأماكن في "أفونلي" عزيزة على قلوبهم. دائمًا ما تكون زيارة "المرتفعات الخضراء" بمثابة متعةٍ

عظيمة فالخالة "ماريلا" تعاملهم بكثير من الهوادة، وكذلك السيدة "ريتشل ليند" التي كانت تقضي فترة تقاعدها في حياكة اللّحف القطنيّة، حين تحتاج بنات آن إلى إحداث تغييرات في غرفتهما. وكان لهم أترابًا طريفين هناك أيضًا، أولاد العمّ ديفي، وأولاد العمّة ديانا الذين كانوا على أتمّ المعرفة بجميع الأماكن التي كانت تحبّها والدتهم في صباها، درب العشاق الطويل الذي كان مكتنفًا باللّون الورديّ في أيّام الربيع، والفناء دائم التّرتيب وبحيرة المياه المتلألئة وبركة الصفصاف. حصل التوأم على غرفة والدتهما القديمة واعتادت الخالة ماريلا على زيارتهما ليلًا حين كانت تحسبهما غافيتين لتمنّي النفس بهما ولكنّ الأطفال كانوا يدركون جميعًا أنّ جيم هو المفضّل لديها.

كان جيم الآن منهمكًا في قلي بعض أسماك السلمون المرقّط الصغيرة التي اصطادها من البركة، وكان موقده عبارةً عن دائرة من الحصى الحمراء تأجّجت النّيران وسطها، أمّا معدّات الطّبخ خاصّته فقد كانت عبارةً عن علبةٍ عتيقةٍ من القصدير جرى طرقها إلى أن باتت مسطّحة، وشوكة لم تبقَ منها إلّا سنًا واحدة. ومع ذلك فقد حُضّرت أطباقٌ لذيذة المذاق بهذه الطّريقة من قبل.

وُلد جيم في "منزل الأحلام" في حين وُلد جميع الأطفال الآخرون في إنجلسايد. كان شعره أحمرًا ومجعّدًا كشعر والدته وعيناه عسليّتين كعينيّ والده وكان له أنف والدته الجميل وثغر والده المزوح والمحبوب. كما أنّه كان الوحيد في العائلة الذي ترضي أذناه سوزان، ولكنه كان يكنّ لها ضغينةً إذ أنّها لم تكن تقلع عن مناداته بـجيم الصّغير وكان جيم، وقد بات في الثالثة عشر من العمر، يظنّ بأنّ ذلك لا يطاق وأنّه ينبغي لوالدته أن تتصرّف باتّزان أكثر.

كان قد صاح بسخطٍ في عيد ميلاده الثامن قائلًا: "لم أعد صغيرًا بعد الآن يا أمّي. أنا كبيرٌ جدًّا."

تنهّدت والدته، ثمّ ضحكت، ثمّ تنهّدت مجدّدًا ولم تناده بجيم الصّغير منذ ذلك اليوم، ليس على مسمعٍ منه على الأقل.

لقد كان وما يزال غلامًا عنيدًا يُعتمد عليه، لم يُخلف بوعدٍ يومًا وكان قليل الكلام. لم يعتقد معلّموه أنّه كان فتًى متّقد الذّكاء ولكنه كان تلميذًا جيّدًا بشكلٍ عامّ. لم يؤمن بالأمور كما تُقال له يومًا، بل دائمًا ما كان يُفضّل التّحقّق من صحّتها بنفسه. أخبرته سوزان ذات مرّة بأنّه إذا لمس مقبضًا متجمّدًا بلسانه فإنّ ذلك سيؤدي إلى انتزاع كامل الجلد. فأقدم جيم على فعل ذلك عمدًا "ليتحقّق إن كان الأمر كذلك" واكتشف أنّه كان "كذلك" وكان الثّمن ألمًا حادًّا في اللّسان دام لعدّة أيّام. غير أنّ جيم لم يستخسر المعاناة في سبيل العلم. فقد تعلّم الكثير عبر المراقبة والاختبار الدّائمين، وكان إخوانه وأخواته يرون معرفته الواسعة عن عالمهم الصّغير مدهشةً للغاية. كان جيم يعلم دائمًا أين تنمو أولى ثمار التّوت وأنضجها، وأين تصحو أولى زهرات البنفسج من رقادها الشّتوي بخجل، وكم بيضةً زرقاء في عشّ أحد طيور أبي الحنّاء في بستان القيقب. وكان يستطيع قراءة الطّالع من بتلات الأقحوان، ومصّ العسل من أزهار البرسيم الحمراء، والتنقيب عن شتّى أنواع الشّروش القابلة للأكل عند ضفاف البركة، وكم خشيت سوزان أن تكون جميعها مسمّمة. كما كان يعلم أين تتواجد أفضل الراتنجيات الصّمغيّة، في عقدٍ عنبريّةٍ شاحبة على القارب المكسو بالحزاز. كان يعلم أين تنمو حبّات الجوز الأكبر في الغابات الخلفيّة عند رأس الميناء وفي أيّ بقعةٍ من الجدول تتواجد أسماك السّلمون المرقّط، وكان في استطاعته تقليد صوت أيّ طيرٍ جارح أو حيوان بريٍّ في "فوروينذز" ويعرف موقع جميع أوكار الأزهار البريّة التي تتفتّح من الرّبيع إلى الخريف.

كان والتر بلايث جالسًا تحت شجرة السّيدة البيضاء وإلى جانبه كتاب أشعار ولكنه لم يكن يقرأه. بل كانت عيناه الواسعتان الأخّاذتان

تتفرّسان بافتتان في شجرات الصّفصاف التي غشاها الزّمرد قرب البركة، ثمّ إلى حشدٍ من الغيوم بدت وكأنّها قطيعٌ من الخراف تقودها الرّياح وكانت تتجه نحو وادي قوس المطر. كانت عينا والتر شديدتيّ الرّوعة ترنو من خلال عمقيهما الرماديّ جميع أحزان العديد من الأجيال الراحلة وضحكاتهم ووفائهم وطموحاتهم.

كان والتر فريدًا من نوعه، في المظهر على الأقلّ، فهو لم يكن يشبه أيًا من أقاربه وكان الأوسم من بين أطفال إنجلسايد بشعره الأسود النّاعم وملامحه جميلة التّكوين، ولكنّه ورث عن أمّه خيالها الخصب وحبّها الشّغوف للجمال. جليد الشتاء، دعوة الرّبيع، حلم الصّيف ورونق الخريف جميعها أمورٌ كانت تعني الكثير لوالتر.

في المدرسة، حيث كان جيم زعيمًا، لم يكن والتر يُقدّر أبدًا، بل كان يُحسب أنثويًا وجبانًا لأنّه لم يكن يتعارك قطّ، ونادرًا ما كان ينضمّ للأنشطة الرّياضيّة المدرسيّة مفضّلًا أن يخلو بنفسه لمطالعة الكتب ولا سيّما "دواوين الأشعار". كان والتر محبًّا للشّعراء، يتثقف بصفحات الشّعر منذ تعلّم القراءة. كانت موسيقاها منسوجةً في روحه المتنامية، موسيقى الخالدين. كان والتر يقدّر طموح أن يصبح شاعرًا يومًا ما. ذلك ليس بعيد المنال. وكان العمّ بول الذي يعيش الآن في تلك الدّولة الغامضة المدعوّة بالأمم، قدوة والتر. كان العمّ بول مجرّد تلميذٍ صغيرٍ في أفونليا من قبل وقد باتت أشعاره الآن متطيّرة الشّهرة. ولكنّ فتيان المدرسة في قرية جلين كانوا يجهلون أحلام والتر وما كانوا حقًّا ليُعجبوا بها ولو علموا. فعلى الرّغم من افتقاره للقوّة البدنيّة، غير أنّه كان يدعو لشيءٍ من الاحترام المرغم لقدرته على "المحادثة بالكتب". ولم يملك أحدٌ في مدرسة "جلين سانت ماري" القدرة على التحدّث مثله. وقد قال أحد الصّبية: "إنّه يتحدّث وكأنّه واعظ." ولهذا السبب كان يُترك وشأنه بدلًا من أن يُضطهد كحال معظم الصّبية المتّهمين

بأنّهم يكرهون العراك أو يخشونه.

كان توأم إنجلسايد ذوات العشر أعوام تخالفان تقليد التوائم، إذ كانتا لا تشبه إحداهما الأخرى على الإطلاق. كانت آن التي دائمًا ما تُدعى بنان فاتنةً للغاية بعينيها الأسيلتين البنيّتين وشعرها الحريريّ البنّي. وكانت بتولًا صغيرةً أنيقة، قال أحد معلّميها إنها من عائلة بلايث قلبًا وقالبًا. وكانت بشرتها تخلو من أيّ عيب، الأمر الذي كان مرضيًا لوالدتها.

وقد اعتادت السيّدة بلايث على أن تقول بابتهاج: "أنا سعيدةٌ جدًّا أنّني رُزقت بفتاة يمكنها ارتداء اللون الورديّ."

كانت "ديانا بلايث" أو كما تُعرف بدي، تشبه والدتها إلى حدٍّ كبير بعينيها الخضراوين الرّماديتين اللّتان تلمعان ببريقٍ متميّز عند الغسق وشعرها الأحمر. لربّما هذا سبب كونها المفضّلة لدى والدها. كانت هي ووالتر أصحابًا مقرّبين، كانت دي هي الوحيدة التي يقرأ لها والتر أبيات الشّعر التي كتبها بنفسه، والوحيدة التي تعرف أنّه كان يعمل بدأبٍ على سيرةٍ ملحميّة تُحاكي إلى حدّ الدّهشة ملحمة "مارميون" في بعض الأمور أو في غيرها. وكانت تبقي جميع أسراره في بئر حتّى أن نان لم يُسمح لها بمعرفتها وكانت تخبره بالمقابل بجميع أسرارها.

قالت نان وهي تستنشمّ الرائحة بأنفها الجميل: "هلّا أسرعت في إنهاء هذه الأسماك يا جيم؟ فالرّائحة تجعلني أتضوّر جوعًا."

أجاب جيم وهو يقلب إحدى الأسماك بمهارة: "أوشكت أن تجهز. أحضرن الخبز والأطباق يا فتيات. أفق يا والتر."

قال والتر حالمًا: "كم الهواء متألّقٌ اللّيلة. لا بدّ من أنّ ملاك الزهر كان يمرّ فوق العالم اليوم مناديًا الزّهور. بإمكاني أن ألمح جناحيه الزرقاوين يلوّحان فوق تلك التلّة بجانب الغابة." ليس الأمر أنّه كان يهين سمك السلمون المرقّط المقليّ، لا على الإطلاق، ولكنّ بالنسبة

لوالتر فإنّ غذاء الرّوح يأتي في المقام الأوّل.

قالت نان: "جميع أجنحة الملائكة التي سبق أن رأيتها كانت بيضاء."

"أجنحة ملاك الزهور ليست كذلك. بل هي زرقاء ضبابيّة شاحبة كلون سديم الوادي تمامًا. آهٍ كم أتمنّى أن أطير. لا بدّ من أنّ الأمر عظيم."

قالت دي: "أحيانًا يحلم المرء بأنّه يحلّق في أحلامه بالفعل."

قال والتر: "أنا لا أحلم أبدًا بأنني أطير على وجه الخصوص، ولكن غالبًا ما أحلم بأنني أسمو عن الأرض وأطفو فوق الأسياج والأشجار. ذلك يبعث البهجة في قلبي، وأفكّر دائمًا بأنّ هذا ليس حلمًا ككلّ المرّات السابقة، بل إنّها الحقيقة ومن ثمّ أستيقظ في نهاية المطاف ويكون الأمر مؤثّرًا جدًّا."

قال جيم آمرًا: "أسرعي يا نان."

كانت نان قد صنعت لوح المأدبة، وكان لوحًا بكل ما تعنيه الكلمة من معنى حرفيّ ومجازيّ، وقد استخدم لتناول ولائم اللّحم المتبّلة التي لا مثيل لها في وادي قوس المطر. وجرى تحويله لطاولة عن طريق إسناده لصخرتين مطحلبتين كبيرتين. استعملت الجرائد كمفرشٍ للمائدة التي زُوّدت بالأطباق المكسورة والأكواب التي قامت سوزان برميها. قامت نان بإحضار الملح والخبز من علبةٍ قصديريّة عند جذور إحدى شجرات التنوب. أعطى الينبوع شراب جعّة آدم مظهرًا بلّوريًّا لا مثيل له. وكان هناك صلصةٌ خاصّة جمعت كلًّا من الهواء المنعش وشهيّة الشباب، لتمنح كلّ ذلك نكهةً روحانيّة. الجلوس في وادي قوس المطر غارقين في شفقٍ نصف ذهبيٍّ ونصف أرجوانيّ، حافلين بعطور التنّوب البلسميّ والأخشاب المتنامية في أوجّ ربيعها، من حولهم براعم الفراولة البريّة الشّاحبة، ويتناهى إلى مسامعهم تأوّه

الرّياح ورنين الأجراس في أعلى الأشجار المرتجفة، يتناولون سمك السلمون المرقّط المقليّ، جميعها أمورٌ تحسدهم عليها عظمة الأرض بعظمتها.

دعت نان جيم بينما وضع طبقه القصديري الحارق على الطاولة فقالت: "تفضّل بالجلوس. إنّه دورك الآن في إلقاء كلمات الشّكر يا جيم."

احتجّ جيم إذ كان يكره قول كلمات الشّكر قائلًا: "لقد أدّيت دوري حين قليت الأسماك. فلتطلبي ذلك من والتر فهو يحبّ إلقاء كلمات الشّكر. ولتختصر الأمور يا والتر فأنا أتضوّر جوعًا."

قالت دي: "من ذا المقبل من هضبة الدّير؟"

***

4
أطفال الدّير



كانت الخالة مارثا مدبّرةَ منزلٍ سيّئة. وكان القسّ جون نوكس ميريديث رجلًا صفوحًا شارد الذّهن. مع ذلك، لا يمكن نكران الجوّ العائلي المحبّب الذي يحيط بدير جلين سانت ماري. حتّى أنّ ربّات المنزل الناقدات في جلين كنّ يشعرن بذلك، الأمر الذي أكسبهنّ خبرةً في إطلاق الأحكام. ولربّما يعود سحره بعض الشّيء إلى ظروفٍ تصادفيّة كالكرمات الفاخرة المعنقدة فوق جدران الدير الرّمادية الملبّسة بالألواح التراكبية، ونباتات السّنط وبلسم جلعاد المتزاحمة حوله بحرّية، ومناظر الميناء والكثبان الرّملية الخلّابة التي تطلّ عليها نوافذه الأماميّة. ولكن كلّ هذه الأمور كانت موجودة في عهد سلف السيّد ميريديث، حين كان الدّير في أوجّه وقمّة ترتيبه وكان أكثر منازل القرية كآبة. لذا يعود الفضل إلى شخصيّة نزلائه الجدد الّذين يبعثون فيه جوًّا من المرح والألفة، فالأبواب كانت مفتوحةً دائمًا وكان العالمان الخارجيّ والدّاخلي يتكاتفان. كان الحبّ هو القانون الوحيد في دير "جلين سانت ماري".

كان رعايا الكنيسة يقولون أنّ السيّد ميريديث يدلّل أطفاله وعلى

الأرجح أنّه كان يفعل. ومن المؤكّد أنّ ذلك لأنّه لم يكن يتحمّل أن يقوم بتوخيبهم. وكان يقول في قرارة نفسه متنهّدًا، متى ما لاحظ هفواتهم الطّفيفة الشائنة غير الاعتيادية: "إنهم لا يملكون أمًّا". ولكنّه لم يكن على درايةٍ بنصف أفعالهم فقد كان ينتمي لفئة الحالمين.

كانت نوافذ مكتبه تطلّ على المقبرة ولكنّه بينما كان يمشي ذهابًا وإيابًا في الغرفة، يتفكّر في خلود الرّوح، لم يكن مدركًا البتّة أنّ جيري وكارل كانا يلعبان لعبة القفز بفرحٍ شديد، ويثبان فوق الحجران المسطّحة في مقرّ أموات الميثوديين ذاك. ومن وقتٍ إلى آخر، كانت تراود السيّد ميريديث تحقّقاتٍ بعيدة النظير بأنّه لا يهتم بأطفاله، جسديًّا أو نفسيًّا، بقدر ما كانت تهتمّ بهم زوجته قبل رحيلها. ودائمًا ما كان يحدّثه عقله الباطنيّ بأنّ إدارة الخالة مارثا للمنزل والوجبات بعيدةٌ كلّ البعد عمّا كانت عليه تحت إشراف "سيسيليا". عدا عن أنّه كان يعيش في عالمٍ من الكتب والمفاهيم التجريديّة، ولذا، وعلى الرّغم من أنّ ملابسه نادرًا ما تكون مكويّة، وعلى الرّغم من أنّ ربّات المنازل في قرية جلين استنبطن من شحوب ملامحه المرسومة كالعاج ويديه النحيلتين أنّه لم يكن يحصل على كفايته من الطّعام، لكنه لم يكن رجلًا تعيسًا.

إن كان يصحّ وصف المقابر بالمكان المبهج فإنّ ذلك قد ينطبق على مقبرة الميثوديين القديمة في "جلين سانت ماري". كانت المقبرة الجديدة، في الجانب الآخر من كنيسة الميثوديين، مكانًا مرتّبًا وملائمًا وكئيبًا ولكنّ المقبرة القديمة تُركت لأفاعيل الطّبيعة اللّطيفة والفاتنة إلى أن أصبحت مبهجةً للغاية.

كانت محاطةً بحاجزٍ من الحجار والأغصان المخضرة، يعلوه لونٌ رمادي شاحب غريب. وبالخارج منه، نمت أشجار الشربين ذات الأفنان البلسميّة الكثيفة. أمّا الحاجز الذي بناه مقيمو قرية جلين

الأوائل، فقد مرّ عليه ما يكفي من الزّمن ليصبح جميلًا ولتنمو من بين شقوقه الأشنات والحشائش الخضراء، وكانت أزهار البنفسج تتأرجح في أسفله أوائل أيّام الرّبيع، وتضفي أزهار النجمة والقضبان الذَهبية تألّقًا خريفيًّا. وكانت السراخس الصّغيرة متجمّعةً برفقٍ بين حجارته، بينما نمت أشجار سراخس كبيرة هنا وهناك.

أما في الجانب الشّرقي، فلم يكن هناك حاجز أو سور وكانت المقبرة مخفيّةً بين مجموعةٍ صغيرة من أشجار الشربين التي كانت تمتدّ نحو المقابر وتغرق غربًا في غابةٍ كثيفة. كان البحر يرسل أصواته معزوفةً قيثاريّة يملأ الجوّ بها على الدّوام وفي صباحيات الربيع، تشدو العصافير، فوق أشجار الدّردار قرب الكنيستين، ألحان الحياة لا الموت. كان أطفال ميريديث يحبّون المقبرة القديمة.

اكتست القبور المدفونة باللّبلاب وأشجار التنّوب ونباتات النعناع المشاغبة. ونمت شجيرات التّوت البرّي بشكلٍ مسرفٍ في الزّاوية الرّملية قرب غابة الشربين. تواجدت هناك شواهد القبور المتنوّعة على مدى ثلاثة أجيال، من المسطّحة إلى المتطاولة، أمّا ألواح الأحجار الرّمليّة الحمراء كانت تعود إلى المقيمين القدامى، أيّام شجر الصّفصاف المنتحب، والأيادي المتشابكة، وصولًا إلى وحشيّة الشّواهد التذكاريّة الأخيرة والجرار المكسيّة التي كانت أكبرها وأقبحها مقدّسةً وتعود لرجلٍ يُدعى "آلك دايفس" . كان قد نشأ في عائلةٍ ميثوديّة ولكنّه اتّخذ لنفسه زوجةً مشيخيّة من عشيرة "دوجلاس" وقد جعلت منه مشيخيًّا بدوره، وجعلته يسير على درب المشيخيّة طيلة حياته. ولكنّها لم تجرؤ على تركه لمصيره في قبرٍ موحشٍ في مقبرة المشيخيين عند الميناء. فقد دفن جميع أفراد عائلته في جبّانة الميثوديّين، لذا عاد "آلك دايفس" إلى أصوله بعد الموت فعزّت أرملته نفسها بتشييد نصبٍ تذكاريٍّ تفوق تكاليفه قدرة تحمّل أيّ ميثوديّ. كان أطفال ميريديث يكرهونه دون

سببٍ وجيه ولكنّهم كانوا يحبّون الأحجار المسطّحة القديمة الشبيهة بالمقاعد وتنمو حولها الحشائش، فقد كانت تفي بغرض مقاعد ظريفة، وكانوا جميعهم يجلسون على إحداها. كان جيري، وقد أُنهك من لعبة القفز، يعزف على القيثارة وكان كارل يلاحق بسعادةٍ خنفساء غريبةً كان قد وجدها أمّا أونا فكانت تحاول صنع فستان للدّمية وكانت فيث تؤرجح قدميها الحافيتين على أنغام القيثارة، مستندةً على رسغيها السّمراوين النحيلين.

كان جيري يملك شعر والده الأسود وعينيه السّوداوين الواسعتين، ولكنّهما كانتا برّاقتين عوضًا عن أن تكونا حالمتين. أمّا فيث التي تأتي بعده، فقد كانت آيةً في الحسن والجمال، كالوردة متوهجة ولا مبالية. كانت عيناها بنيّتين ذهبيّتين وضفائر شعرها بنيّة ذهبية ووجنتاها قرمزيّتين. كانت شديدة الضّحك، الأمر الذي كان يزعج رعايا الكنيسة، كما أنّها سببت صدمةً للسيدة "تايلر" العجوز، أرملة العديد من الرجال الراحلين، حين أعلنت بكل جرأة في رواق الكنيسة، "ليس العالم واديًا للدموع يا سيدة "تايلر" بل هو بستان للضحكات."

لم تكن أونا الصغيرة الحالمة نزّاعةً للبكاء. ولم تخن خصلات شعرها الأسود القاتم العقد العاصية. كانت عيناها الزرقاوان اللوزيّتان تخفيان بعض الحزن والأسى، وثغرها يكشف مخادعًا عن أسنانها البيضاء الصّغيرة فترتسم في بعض الأحيان ابتسامة متأمّلة تعلو محياها. كانت أكثّر تأثّرًا بآراء العامّة من فيث ويراودها إدراكٌ مقلق بأنّهم يعيشون حياتهم بطريقةٍ منحرفةٍ بعض الشّيء. كانت تنفض الغبار عن الأثاث بين الفينة والأخرى، ولكنها كانت نادرًا ما تتمكّن من إيجاد المنفضة لأنّها لم تتواجد قطّ في المكان نفسه مرّتين، وحين كانت تجد فرشاة الملابس، كانت تفرشي أفضل بذلة لوالدها في أيّام السبت، كما أنّها أعادت تخييط أحد الأزرار المفقودة ذات مرّةٍ بخيطٍ أبيض رديء.

وحين ذهب السيّد ميريديث إلى الكنيسة في اليوم التالي، كان ذلك الزرّ هو ما وقعت عليه أنظار النساء جميعًا، ما عكّر صفو مزاج عضوات جمعيّة "مساعدة السيدات" لأسابيع.

ورث كارل عن أمّه الرّاحلة عينيها الصافيتين البرّاقتين زرقاوتيّ اللون، وورث معهما جرأتهما وصراحتهما، إضافةً إلى شعرها البنيّ الذي كان يتلألأ كالذّهب. كان يعرف أسرار الحشرات ويشعر بنوعٍ من التعاطف تجاه النّحل وحشرات الخنفساء. لم يكن الجلوس بجواره يستهوي أونا لأنّها كانت تجهل أيّ مخلوق غريب قد يخرج منه. وكان جيري يأبى النّوم بجانبه لأنّ كارل قد جلب معه إلى السرير أفعى مقلّمة حديثة السنّ، لذلك كان كارل ينام بمفرده في مهده القديم الذي كان ضيّقًا للغاية فيعجز فيه عن التمدّد وكان له فيه مرافقين مثيرين للعجب. ربّما كان لحسن الحظّ أنّ الخالة مارثا نصف عمياء فهي من ترتب السرير. إجمالاً، كانوا يشكّلون مجموعةً طريفةً محبّبة، ولا بدّ من أنّ قلب "سيسيليا ميريديث" قد انقبض بشدّة حين واجهت حقيقة أنّ عليها الرّحيل عنهم.

سألت فيث بابتهاج: "أين تفضّلون أن تدفنوا لو كنتم ميثوديّين؟"

أفسح السؤال مجالًا مثيرًا للاهتمام من النظريات. قال جيري: "لا خيار آخر فالمكان ممتلئ. كنت لأحبّذ تلك الزاوية قرب الطريق على ما أظن، لأتمكّن من سماع الناس يتحدثون والفرق المارة."

قالت أونا: "أفضّل تلك الحفرة الصّغيرة تحت شجرة البتولا البكّاءة، إذ تجتمع فيها العصافير كلّ صباحٍ وتطلق ألحانها بشغف."

قالت فيث: "سأختار بقعة "بورتر" حيث يُدفن الكثير من الأطفال فأنا أحبّ أن يؤنسني الكثير من الأصحاب. ماذا عنك يا كارل؟"

أجاب كارل: "أفضّل ألّا أُدفن على الإطلاق، ولكن إن كان ولا بدّ

من ذلك فأنا أختار مأرضة النمل. النمل مثيرٌ للاهتمام بشكل رهيب."

قالت أونا بينما كانت تقرأ المرثيّات الإطرائية القديمة: "لا بدّ من أن الأشخاص المدفونين هنا كانوا مثالًا للطيبة، لا يبدو أنّ هناك أيّ شخصٍ سيّءٍ في المقبرة بأكملها. يبدو أنّ الميثوديّين أفضل من المشيخيين في النهاية."

اقترح كارل قائلًا: "ربّما يدفن الميثوديّون أشخاصهم السيّئين كما يدفنون القطط. ربّما لا يكلّفون نفسهم عناء إحضارهم إلى المقبرة على الإطلاق."

قالت فيث: "هذا هراء! لم يكن الأشخاص المدفونون هنا أفضل من غيرهم يا أونا. ولكن لا يجب التحدّث عن الأموات إلّا بالحسنى وإلّا عادوا للحياة وطاردوك. هذا ما أخبرتني به الخالة مارثا. سألت والدي عن صحّة الأمر ولكنّه فقط نظر إليّ وراح يتمتم قائلًا: "صحيح؟ صحيح؟ ما هي الحقيقة؟ ما هي الحقيقة أيا بيلاطس المستهزئ؟" فاستنتجت من ذلك أنّ الأمر حقيقيّ بالتأكيد."

قال جيري: "أتساءل إن كان السيد "آلك دايفس" سيعود للحياة ويلاحقني إن ألقيت بحجرٍ على الجرّة الموجودة فوق شاهدة قبره."

قهقهت فيث قائلة: "أراهن أنّ السيدة دايفس قد تفعل. فهي تترصّدنا في الكنيسة كترصّد القطّ لفئرانه. عبستُ في وجه ابن أخيها الأحد الفائت فعبس في وجهي بدوره. كان عليكم أن تروا كيف حدّقت بي وهي تشتعل غضبًا. أراهن أنّها قامت بضربه حين خرجا. ولو أنّ السيدة "مارشال إيليوت" لم تخبرني بأنه لا ينبغي لنا الإساءة إليها بأيّ ثمن، لعبست في وجهها أيضًا."

قال جيري: "يُقال أنّ "جيم بلايث" مدّ لسانه لها ذات مرّة فكفّت عن استدعاء والده حتّى وإن كان زوجها على مشارف الموت. أتساءل كيف تبدو جماعة بلايث."

قالت فيث: "إنهم يعجبونني. وبالأخص جيم."

كان أطفال الدّير عند المحطّة ذلك اليوم حين وصل أطفال أسرة "بلايث."

قال جيري: "يُقال في المدرسة أنّ والتر مخنّث."

قالت أونا وقد كانت تجد والتر وسيمًا للغاية: "لا أصدّق ذلك."

"حسنًا، لكنه ينظم الشّعر على أيّة حال وقد فاز بالجائزة التي رتّبها المعلّم العام الماضي، أخبرني "بيرتي شيكسبير درو" بذلك. كانت والدة "بيرتي" تعتقد بأنّه هو من كان يستحقّ الجائزة بسبب اسمه، ولكنّ "بيرتي" أخبرها بأنّه لا يجيد كتابة الشعر ولو على جثّته، باسم أو بلا اسم."

قالت فيث مفكّرة: "أظنّ أنّنا سنتعرّف عليهم بمجرّد أن يبدأوا بالذّهاب إلى المدرسة. آمل أن تكون الفتيات طيّبات. لا أحبّ معظم الفتيات في هذه الأرجاء فحتّى الطيّبات منهنّ بليدات. ولكنّ التوأم تبدوان مسليّتين. لطالما ظننت أنهما تشبهان بعضهما، ولكنّهما ليستا كذلك. أعتقد أنّ صاحبة الشّعر الأحمر هي الألطف."

قالت أونا متنهّدة: "أعجبني مظهر والدتهم." كانت أونا تحسد جميع الأطفال على والداتهم. لم تكن قد تجاوزت الستّ سنوات حين توفيّت والدتها ولكنّها كانت تحتفظ في روحها بذكرياتٍ ثمينة كالجواهر، من العناقات الغسقيّة والمسامرات الصّباحية، عن عينين محبّتين وصوتٍ عذب وعن أحلى الضحكات وأكثرها مرحًا.

قال جيري: "يُقال أنّها ليست كالنّاس الآخرين."

قالت فيث: "تقول السيدة إيليوت أنّ ذلك بسبب أنها لم تكبر أبدًا."

"ولكنّها أطول من السيدة إيليوت."

"أجل، أجل ولكنّها تعني من الداخل. السيدة بلايث ما زالت فتاةً صغيرة من الداخل."

قاطعهم كارل قائلًا وهو يتشمّم: "ما هذه الرائحة؟"

كان الجميع يشتمّها الآن. رائحة زكيّة كانت تطفو في هواء المساء مقبلة من اتجاه الوادي الصغير الحرجيّ في أسفل هضبة الدّير."

قال جيري: "إنّها تشعرني بالجوع."

قالت أونا بحزن: "لم نأكل سوى الخبز والدبس على الغداء، و "الدّيتو" الباردة على العشاء."

اعتادت الخالة مارثا سلق قطعة كبيرة من الضأن في أوّل الأسبوع وتقديمها كلّ يوم، باردة ودهنيّة إلى أن تنفد. وقد أطلقت فيث على ذلك اسم "الدّيتو" في لحظة إيحاء وعُرف بهذا الاسم في الدّير منذ ذلك اليوم."

قال جيري: "هيّا بنا نكتشف مصدر تلك الرائحة."

قفزوا جميعًا من فوق البستان مرحين صارفي النظر عن الجراء الصغيرة، تسلّقوا حاجزًا وعبروا منحدرًا مطحلبًا، تجذبهم الرّائحة الشهية التي كانت تصبح أقوى وأقوى. ثمّ وصلوا بعد عدّة دقائق، وقد انقطعت أنفاسهم، إلى معتزل وادي قوس المطر حيث كان أطفال أسرة بلايث على وشك قول كلمات الشكر والبدء بالأكل.

توقفوا بخجل وهنا تمنت أونا لو لم يسرعوا لهذا الحدّ ولكنّ دي بلايث تصرّفت على طبيعتها. وأقبلت إليهم بابتسامةٍ ودودة.

وقالت: "أظنّ أنني أعرف من تكونون. أنتم تسكنون الدير أليس كذلك؟"

أومأت فيث وقد بدت الغمازات على وجهها.

"شممنا رائحة سمك السلمون المرقط وكنا نتساءل ما كان ذلك."

قالت دي: "عليكم بالجلوس ومساعدتنا في أكلها."

نظر جيري إلى الطبق القصديري بجوع قائلًا: "ربّما لا تملكون ما يكفي لأنفسكم."

قال جيم: "بل لدينا أكوام، لكلّ فردٍ ثلاثة. فلتجلسوا."

كانت مراسيم التّرحيب تلك كافية. وجلسوا جميعًا أرضًا على الحجار المطحلبة. كانت تلك المأدبة مباركة. ولربّما ماتت نان ودي رعبًا لو علمتا ما تعلمانه فيث وأونا، وهو أنّ كارل كان يخفي في جيب معطفه فأرين حديثيّ الولادة. ولكنّهما لم تعلما أبدًا، لذا لم يضرّهم الأمر. أين يمكن للرّفاق التعارف أفضل من حول مأدبة طعام؟ ومع اختفاء آخر سمكة، كان أطفال الدّير وأطفال إنجلسايد قد أصبحوا أصدقاء وحلفاء مخلصين. لطالما عرف بعضهم الآخر ودائمًا سيفعلون. فأبناء يوسف يعرفون بعضهم بعضًا.

راح الأطفال يتبادلون أطراف الحديث عن قصص ماضيهم. سمع أطفال الدّير عن "أفونلي" و"المرتفعات الخضراء"، عن تقاليد وادي قوس المطر، عن المنزل الصّغير قرب شاطئ الميناء حيث وُلد جيم. وسمع أطفال إنجلسايد عن "ميواتر" حيث كان يعيش الميثوديّون قبل وفودهم إلى قرية جلين، عن دمية أونا العوراء المحبّبة وعن ديك فيث الأليف.

كانت فيث تمتعض من حقيقة أنّ الناس كانوا يهزأون بها لاعتنائها بديك. أحبّت أطفال أسرة بلايث لأنّهم تقبّلوا الأمر من دون طرح الأسئلة.

فقالت: "أنا أظنّ أنّ ديكًا جميلًا كآدم هو حيوانٌ أليف لطيف بقدر كلب أو قطّ، لو كان عصفور كناري لما تعجّب أيّ أحد. لقد ربّيته منذ أن كان صوصًا أصفر صغيرًا جدًّا. أعطتني إيّاه السيدة "جونسون" في "ميواتر"، لقد قام ابن عرس بالقضاء على جميع إخوانه وأخواته. أسميته على اسم زوجها، لم تستهوني الدّمى أو القطط من قبل. فالقطط حيواناتٌ مراوغة للغاية أمّا الدّمى فهي ميتة.

سأل جيري: "من الذي يسكن ذلك المنزل البعيد هناك في الأعلى؟"

أجابت نان: "آنستين من أسرة "ويست"، روزماري وإيلين. سنتلقى أنا ودي دروسًا موسيقية على يد الآنسة روزماري هذا الصّيف."

أمعنت أونا النّظر بالتّوأم المحظوظتين بعينين كان توقانها أكثر وداعةً من أن يكون حسدًا. آهٍ، لو أنّ في وسعها فقط تعلّم دروسٍ موسيقيّة. لطالما كان ذلك أحد أحلام حياتها المخفيّة ولكن لم يعر أيّ أحدٍ اهتمامًا لأمر كهذا قطّ."

قالت دي: "الآنسة روزماري لطيفةٌ للغاية كما أنّها أنيقةٌ دائمًا." وأضافت بحزنٍ قائلة: "لون شعرها كلون حلوى الدّبس الجديدة تمامًا." إذ كانت دي، كوالدتها سابقًا، غير مذعنةٍ لجدائلها الحمراء اللّعينة.

قالت نان: "أحبّ الآنسة إيلين أيضًا، لقد اعتادت أن تعطيني السكاكر حين تأتي إلى الكنيسة ولكنّ دي تُذعر منها."

قالت دي: "حاجباها سوداوين جدًّا كما أنّها تملك صوتًا عميقًا رائعًا. آهٍ كم كان "كينيث فورد" يخافها حين كان طفلًا. تقول أمّي أنّه في أوّل أحدٍ اصطحبته السيّدة "فورد" إلى الكنيسة، صادف أن كانت الآنسة إيلين هناك فشرع كينيث بالنحيب والصّراخ لحظة رؤيته لها إلى أن أخذته السيدة "فورد" خارجًا."

سألت أونا بتعجّب: "من تكون السيّدة "فورد"؟"

"آه، لا يعيش أفراد عائلة "فورد" هنا. هم فقط يأتون في الصّيف ولكنّهم لن يأتوا هذا الصيف أيضًا. إنهم يعيشون في ذلك المنزل الصغير أقصى جنوب شاطئ الميناء حيث كان يعيش أبي وأمّي. أتمنّى لو في استطاعتكم رؤية "بيرسيس فورد"، فهي بجمال الصورة.

تدخّلت فيث قائلة: "لقد سمعت عن السيّدة "فورد"، حدّثني عنها "بيرتي شيكسبير درو" من قبل. كانت متزوّجة من رجلٍ ميت لمدّة أربعة عشر عامًا وعاد للحياة بعدها."

قالت نان: "هذا هراء. تلك ليست الحقيقة إطلاقًا. لا يأتي "بيرتي شيكسبير" بالحقائق أبدًا. سأخبرك القصّة بكاملها ولكن في وقتٍ آخر فالقصّة طويلةٌ جدًّا وقد آن أوان عودتنا إلى المنزل. لا تحبّذ والدتنا تأخّرنا خارجًا في هذه الأمسيّات الرّطبة."

لم يهتمّ أيّ أحدٍ ما إن كان أطفال الدّير في الخارج في الأمسيات الرطبة أو لا.

كانت الخالة مارثا نائمةً بالفعل وكان الكاهن ما زال غارقًا جدًّا في تخمينات بشأن خلود الرّوح ليتذكّر فناء الجسد. ولكنّهم عادوا إلى المنزل متطلّعين للأوقات المرحة التي تنتظرهم.

قالت أونا: "أظنّ أنّ وادي قوس المطر أكثر روعةٍ حتى من المقبرة. كما أنّني أحبّ رفاق بلايث الأعزّاء أولئك. إنّه لأمرٌ رائع حين يتمكّن المرء من حبّ الناس لأنّه في معظم الأحيان لا يستطيع ذلك. قال والدنا في خطابه الأحد الفائت أنّه ينبغي لنا أن نحبّ الجميع. ولكن كيف لنا ذلك؟ كيف لنا أن نحبّ السيّدة "آلك دايفس"؟"

قالت فيث بعبث: "آه، قال والدنا ذلك عند المنبر فقط فهو يتمتع بالمنطق أكثر من أن يعتقد ذلك حقًّا في الخارج."

عاد أطفال أسرة بلايث إلى إنجلسايد باستثناء جيم الذي تسلّل لبعض الوقت في رحلةٍ استكشافيّة فرديّة في زاوية قريبة من وادي قوس المطر. كانت زهور أيّار تنمو هناك ولم ينس جيم أبدًا أن يأتي والدته بباقةٍ طالما كانت متوفّرة.

***

5
وفود ماري فانس



قالت فيث مستجيبةً لسحر الجوّ والتّلال الزّرقاء:

"اليوم هو من ذاك النّوع من الأيّام التي تشعرك بأنّ أمرًا ما قد يحدث." عانقت نفسها بابتهاجٍ وراحت ترقص رقصة المزماريّة على مقعد شاهد قبر "هيزيكيا بولوك"، الأمر الذي قزّز امرأتين عانستين كانتا تمرّان بينما كانت فيث تقفز على قدمٍ واحدة حول الصّخرة وتلوح بقدمها الأخرى وذراعيها في الهواء.

قالت إحداهما متذمّرة: "وتلك هي ابنة كاهننا."

فناحت الأخرى: "ما الذي تنتظرينه غير ذلك من أسرة رجلٍ أرمل؟" ثمّ طأطأتا برأسيهما.

كان الوقت باكرًا ذات صباح يوم سبت وكان أفراد أسرة ميريديث خارجين إلى العالم المخضلّ بالثلج يستشعرون بهجة العيد. لم يكن لديهم ما يقومون به في الأعياد أبدًا. حتى أنّ نان ودي كانت لديهما بعض المهامّ المنزليّة صباح كلّ سبت في حين أنّ فتاتيّ الدّير كانتا متفرّغتين للتسكّع منذ بزوغ الفجر إلى المساء الرطيب إن كان هذا ما يحلو لهما. وكان ذلك يحلو لفيث ولكنّ أونا كانت تشعر بإهانةٍ مريرة

في سرّها لأنّهما لم تتعلّما كيف تقومان بأيّ شيءٍ البتّة. فالفتيات الأخريات في صفها كنّ يستطعن الطهي والخياطة والحياكة. أمّا هي فكانت مجرّد جهولةٍ وضيعة.

اقترح جيري أن تذهبا للاستكشاف لذا فقد ذهبتا إلى بستان الشربين واصطحبتا كارل في طريقهما، وقد كان جاثيًا على ركبتيه بين الحشائش المبلولة يتفحّص نمله العزيز. وبعد البستان، وصلوا إلى مرعى السيّد "تايلر" الذي نثرت فوقه أشباح نبات الطّرخشقون البيضاء. وفي زاويةٍ قريبة تواجدت زريبةٌ قديمة متداعية حيث كان السيد "تايلر" يخزّن جنى الحشائش المجففة المتبقيّة ولكنّه لم يستعملها لأيّ غرضٍ آخر. وهناك احتشد أطفال ميريديث وتجوّلوا في الطابق الأرضي لعدّة دّقائق.

همست أونا فجأة: "ما كان ذلك؟"

أنصتوا جميعهم. كان هناك صوت خشخشة هافت ولكن ملحوظ في مخزن التبن العلوي. نظر الأطفال إلى بعضهم البعض.

تنفسّت فيث قائلة: "هناك شيءٌ ما في الأعلى."

قال جيري بعزم: "سأصعد لأرى ما هو."

فأمسكت أونا بذراعه وتوسّلت إليه قائلة: "آه، لا تفعل."

"سأذهب."

قالت فيث: "إذًا سنذهب جميعنا أيضًا."

تسلّق أربعتهم السلّم المتقلقل، كان جيري وفيث جسوران للغاية وكانت أونا شاحبةً من الرّعب، أمّا كارل فكان غارقًا في التفكير في احتماليّة إيجاد خفّاشٍ في المخزن وكان توّاقًا لرؤية خفّاشٍ في وضح النّهار.

وحين وصلوا لآخر السلّم، رأوا ما كان سبب الخشخشة فصعقوا للمنظر وأصبحوا عاجزين عن الكلام لبعض اللّحظات.

كانت هناك فتاةٌ منطويةٌ على نفسها في عشٍّ صغير من القشّ، كانت

تبدو وكأنّها قد استيقظت لتوّها. وحين رأتهم، وقفت وبدت مرتعشةً. وبفضل نور الشّمس المتدفّق من الشبّاك خلفها، رأوا أنّ وجهها النحيل الملتاح كان يخفي شحوبه الشّديد تحت سمرته. كان لها ضفيرتان من الشّعر السميك الأشقر وعينان غريبتان جدًّا. قال أطفال الدّير في أنفسهم: "عينان بيضاوان"، بينما كانت تحدّق بهم بشيءٍ من التحدي والشّفقة. كان لونهما أزرق شاحب لدرجة أنّهما بدتا تقريبًا بيضاوان، لا سيّما حين تباينتا مع الحلقة السوداء الضيّقة المحيطة بقزحية العين. كانت حافية القدمين ومكشوفة الرّأس ومكسوّةً بفستانٍ منقوش رثٍّ باهتٍ وبالٍ، كان قصيرًا وضيّقًا جدًّا عليها. أمّا بالنسبة لعمرها، فقد كانت تبدو في أيّ عمرٍ تقريبًا، نظرًا لوجهها الضعيف الصّغير ولكنّ طولها بدا وكأنّها في عمر ما يقارب الإثني عشر عامًا.

سأل جيري: "من أنتِ؟"

نظرت الفتاة من حولها وكأنّها تسعى للفرار، ثمّ استسلمت برعشة قنوط.

وقالت: "أنا ماري فانس."

تابع جيري قائلًا: "من أين أتيتِ؟"

بدل أن تجيب، جلست ماري فجأةً، أو ارتمت، على القشّ وشرعت بالبكاء. هرعت فيث إلى جانبها على الفور ووضعت ذراعها على كتفيّ الفتاة النّحيلين المرتعدين.

أمرت جيري قائلة: "أنت، فلتتوقّف عن مضايقتها." ثمّ عانقت الطّفلة المتشرّدة وقالت: "لا تبكي يا عزيزتي، فقط أخبرينا ما الخطبُ فنحن أصدقاء."

ناحت ماري قائلة: "أنا جائعةٌ جدًّا جدًّا. فأنا-أنا لم أتناول شيئًا منذ صباح يوم الخميس، عدا بعض المياه من الينبوع هناك."

حدّق أطفال الدّير ببعضهم البعض مصعوقين وقفزت فيث قائلة:

"سترافقيننا إلى الدّير وتحصلين على الطّعام قبل أن تنطقي بأيّ كلمةٍ أخرى."

انكمشت ماري.

"آه لا أستطيع. ما الذي سيقوله والداكم؟ سوف يطردانني على أيّ حال."

"نحن لا نملك أمًّا، ووالدنا لن ينزعج بسببك ولا الخالة مارثا. هيّا تعالي."

ألحّت فيث بفارغ الصّبر. هل سوف تصرّ هذه الفتاة الغريبة على الجوع حتّى الهلاك أمام بابهم؟

أذعنت ماري للأمر. كانت واهنةً لدرجة أنها كانت بالكاد قادرةً على نزول السّلم ولكنّهم تمكنوا بطريقةٍ ما، من إيصالها إلى الأسفل وعبور المرعى حتّى وصلوا إلى مطبخ الدّير ـ لم تلحظها الخالة مارثا إذ كانت منهمكةً في الطهي ككلّ يوم سبت. سارعت فيث وأونا إلى غرفة المؤن وسلبوا منها ما يؤكل، فقد كانت تحوي بعضًا من "الدّيتو" والخبز والزّبدة والحليب وفطيرةٍ مشبوهة. هجمت ماري فانس على الطّعام بشراسةٍ لا تُلام عليها. في حين جلس أطفال الدّير في الجوار وراحوا يراقبونها. لاحظ جيري أنّ لها ثغرًا عذبًا وأسنانًا جميلةً بيضاء حتّى. لاحظت فيث، بخوفٍ مبهم، أنّه لم يكن يغطي جسد ماري أيّ خيطٍ آخر باستثناء ذاك الثّوب الرثّ البالي. شعرت أونا بشفقةٍ تغمرها، وكارل بدهشةٍ مميّزة، وانتابهم جميعًا الفضول.

وحين بدأت شهيّة ماري بخذلانها، أمرتها فيث قائلة: "فلتخرجي الآن إلى المقبرة لتخبرينا بكلّ شيءٍ عنك." لم يعد مظهر ماري الآن منفرًا، فقد أعاد الطّعام حيويّتها الطّبيعيّة وحلّ عقدة لسانها المقاوم.

وحين كانت جالسة على شاهد قبر السيّد "بولوك"، اشترطت قائلة: "لن تقوموا بإخبار أبيكم أو أيّ أحدٍ إن أخبرتكم؟" قبالها، كان أطفال

الدّير مستندين بعضهم على بعض. هنا كان الغموض والإثارة والمغامرة. لقد حدث أمرٌ ما بالفعل.

"لا لن نفعل."

"أتقسمون؟"

"نحن نقسم."

"حسنًا، لقد هربت. كنت أعيش مع السيّدة وايلي في الميناء. هل تعرفون السيّدة وايلي؟"

"لا."

"حسنًا، أنتم بغنى عن معرفتها. إنّها امرأةٌ فظيعة. يا إلهي كم أبغضها! كانت تهلكني بالعمل ولا تعطيني نصف ما يكفي من الطّعام، لقد كانت تجلدني كلّ يومٍ تقريبًا! انظروا إلى هنا."

شمّرت ماري عن أكمامها البالية ورفعت ذراعيها الهزيلتين ويديها النحيلتين اللتان كانتا متشقّقتين إلى اللّحم تقريبًا. كانتا مليئتين بالكدمات. ارتعش أطفال الدّير واحمرّ وجه فيث سخطًا أمّا أونا فقد اغرورقت عيناها بالدّموع.

قالت ماري غير مبالية: "لقد قامت بجلدي عشيّة الأربعاء بواسطة عصا لأنّني سمحت للبقرة بركل دلوٍ من الحليب. كيف لي أن أعلم أنّ البقرة اللّعينة كانت ستركل؟"

ما كانوا ليحلموا أبدًا بالتلفّظ بكلماتٍ مشكوك بأمرها كهذه، غير أنّ سماع شخصٍ آخر يستعملها كان رائعًا ولا سيّما أنّها فتاة. لا شكّ في أنّ ماري فانس هذه مخلوقةٌ مثيرةٌ للاهتمام.

قالت فيث: " أنا لا ألومك على الفرار."

"آه أنا لم أهرب لأنّها جلدتني. فالجلد كان يرافقني طيلة أيّام العمل وكنت معتادةً عليه. لا، لقد نويت الفرار لمدّة أسبوع لأنّني اكتشفت أنّ السيّدة وايلي أرادت تأجير مزرعتها والذّهاب للعيش

في "لوبريدج" وإعطائي لإحدى أقاربها عند طريق "شارلوت تاون". وما كنت لأتحمّل ذلك فهي أسوأ من السيّدة وايلي حتّى. لقد أعارتني السيّدة وايلي لها لمدّة شهرٍ الصّيف الماضي وأنا أفضّل العيش مع الشّيطان نفسه."

الإحساس رقم اثنان. ولكنّ أونا بدت مرتابة.

""لذا قرّرت أن أنهي الأمر. كنت قد ادّخرت سبعين سنتًا أعطتني إيّاها السيّدة "جون كراوفورد" في الرّبيع لأنّني زرعت لها البطاطا. لم تكن السيّدة وايلي تعلم بشأن ذلك. لقد كانت غائبةً تزور أحد أقاربها حينما زرعتها. فكّرت في التسلّل إلى قرية جلين وشراء تذكرةٍ إلى "شارلوت تاون" ومحاولة العمل هناك. أنا فتاةٌ مجدّة، ليس هناك عظمةٌ كسولةٌ واحدةٌ في جسدي. لذا صحوت صباح الخميس قبل استيقاظ السيّدة وايلي وسرت إلى قرية جلين ستّة أميال، وحين وصلت إلى المحطّة، اكتشفت أنّني أضعت نقودي. لا أدري كيف، لا أدري أين. على أيّة حال، لقد اختفت. لم أعلم ما عليّ القيام به، فلو عدتُ أدراجي لاكتشفت السيّدة وايلي العجوز أمري لذا اختبأت في تلك الزّريبة القديمة."

سأل جيري: "وما الذي ستفعلينه الآن؟"

"لا أدري. أظنّ أنّي سأضطرّ للعودة وتحمّل العواقب. أعتقد بأنّي سأكون قادرةً على تحمّل ذلك الآن بما أنّني ملأت معدتي ببعض الطّعام."

ولكنّ الذّعر في عينيّ ماري كان مختبئًا خلف ثرثرتها. انزلقت أونا إلى شاهد القبر الآخر ووضعت ذراعها حول ماري."

"لا تعودي. فلتبقي هنا معنا."

قالت ماري: "آه، سوف تقوم السيّدة وايلي بملاحقتي وعلى الأغلب أنّها كانت تفعل قبل هذا اليوم. أظنّ أنّني قد أبقى هنا إلى أن

تجدني، إن كنتم لا تمانعون يا رفاق. لقد كنت حمقاء لعينةً لتفكيري بالتسلّل والفرار. فقد تلاحق تلك المرأة ابن عرسٍ إلى نهاية الأرض. ولكنّني كنت بائسةً للغاية."

ارتجف صوت ماري، غير أنّها كانت تشعر بالعار من إظهار ضعفها.

فسّرت ماري بتحدٍّ: "لم تتسنّ لي حياة الكلاب على مدى الأعوام الأربعة الفائتة."

"لقد عشت أربع سنوات برفقة السيّدة وايلي؟"

"أجل، لقد أخرجتني من الملجأ في "هوبتاون" حين كنت في الثّامنة من العمر."

قالت فيث بدهشة: "إنّه المكان نفسه الذي جاءت منه السيّدة بلايث."

"قضيت سنتين في الملجأ، وُضعت هناك حين كنت في السّادسة من العمر. لقد قامت أمّي بشنق نفسها وقام والدي بقطع حنجرته.

قال جيري: "يا للهول! لم ذلك؟"

قالت ماري موجزة: "الجعة."

"أليس لك أقارب؟"

"لا أعرف شيئًا عن أيّ لعينٍ منهم. ولكن على الأرجح أنّه كان لي أقارب من قبل. لقد استدعاني بعضهم. اسمي الكامل هو "ماري مارثا لوسيلا مور بول فانس". أيمكنكم حفظ ذلك؟ كان جدّي رجلًا ثريًّا، أراهن أنّه كان أكثر ثراءً من جدّكم. ولكنّ أبي أنفق كلّ هذه الثّروة على الخمر، أمّا أمّي فقد أدّت دورها. كما اعتاد كلاهما على ضربي أيضًا. لقد جُلدت كثيرًا لدرجة أنّ الأمر بدأ يروق لي نوعًا ما."

رفعت ماري رأسها لامبالية. فقد شعرت بأنّ أطفال الدّير يشفقون عليها وهي لم ترد الشّفقة بل أرادت أن يشعروا بالغيرة. فنظرت من حولها بسعادة. كانت عيناها الغامضتان تبرقان الآن بعد أن أُزيل إرهاق

الجوع منهما. سوف تري هؤلاء الصّغار أيّ نوعٍ من الأشخاص تكون.

فقالت بفخر: "لقد كابدت الأسقام طويلًا. لا يستطيع العديد من الأطفال تحمّل ما مررت به. لقد عانيت من حمّى قاسية ومن الحصبة والحمرة والنكاف والشّاهوق والتهاب الرّئة."

سألت أونا: "هل عانيت من أيّ مرضٍ فتّاك من قبل؟"

قالت ماري مرتابة: "لا أدري."

قال جيري ساخرًا: "بالطّبع لا! إن أُصيب المرء بمرضٍ فتّاك فسيموت."

قالت ماري: "آه في الواقع أنا لم أمت تمامًا ولكنّني شارفت على ذلك من قبل. لقد ظنّوا أنّي كنت ميتة وكانوا على وشك دفني وإذ بي أقوم وأبعث مجدّدًا."

سأل جيري وقد انتابه الفضول: "كيف هو شعور أن تخسري نصف حياتك؟"

"لا يشبه شيئًا. فأنا لم أعرف ذلك إلّا بعد بضعة أيّام. حدث ذلك حين أصبت بالتهاب الرّئة. ولم تشأ السيّدة وايلي استدعاء الطّبيب، قالت أنّها لن تتحمّل هذا العبء لأجل جارية. قامت العمّة "كريستينا ماكاليستر" برعايتي بواسطة الكمّادات إلى أن شفيت. ولكنّني في بعض الأحيان أتمنّى لو أنّي خسرت النّصف الآخر وانتهيت من الأمر. لكان ذلك أفضل بالنّسبة إليّ."

قالت فيث بشيءٍ من الارتياب: "أظنّ أنّ الأمر سيكون كذلك لو ذهبت إلى الجنّة."

سألت ماري مستغربة: "وهل هناك مكانٌ آخر للذّهاب إليه؟"

عانقتها أونا لتهوّن من هول الأمر وقالت بصوتٍ منخفض: "هناك الجحيم كما تعلمين."

"الجحيم؟ وما ذلك؟"

قال جيري: "إنّه حيث يعيش الشّيطان. لا بدّ من أنك سمعت به، لقد تحدّثت عنه."

"آه، صحيح ولكنّني لم أكن أعلم أنّه يعيش في أيّ مكان. ظننت أنّه يتجوّل في الأرجاء. كان السيّد وايلي يذكر الجحيم حين كان على قيد الحياة، وكان يخبر رفاقه بالذّهاب إلى هناك. كنت أحسبها مكانًا ما في "برونسويك" حيث ينتمي."

قالت فيث بالمتعة النّاجمة عن سرد الأمور المخيفة: "إنّ الجحيم مكانٌ مريع. يذهب الأشخاص السيّئون إليه حين يموتون ويحترقون في النّار للأبد والأبد والأبد."

سألت ماري بشكوك: "من أخبرك بذلك؟"

"هذا ما يقوله الكتاب المقدّس. كما أخبرنا السيّد "إسحاق كروثرز" في "ميووتر" بذلك أيضًا في مدرسة الأحد. لقد كان شيخًا وعضوًا مؤسّسًا في الكنيسة وكان يعلم كلّ شيءٍ بشأنه. ولكن لا تقلقي، إن كنت طيّبة ستذهبين إلى الجنّة وإن كنت شرّيرة فلربّما تفضّلين الذّهاب إلى الجحيم."

قالت ماري بإيجابيّة: "لا أفضّل ذلك. فأنا لا أرغب في أن أُحرق وأُحرق مهما كنت شرّيرة. أعرف طعم هذا الشّعور فلقد التقطت مسعرًا حراريًّا ساخنًا عن غير عمدٍ ذات يوم. ما الذي يجب على المرء فعله ليكون طيّبًا؟"

قالت أونا: "عليك الذّهاب إلى الكنيسة ومدرسة الأحد وقراءة الكتاب المقدّس والصّلاة كلّ ليلةٍ والذّهاب في البعثات التّبشيريّة."

قالت ماري: "يبدو ذلك عبئًا ثقيلًا، وماذا بعد؟"

"عليك أن تطلبي من الربّ أن يغفر ما ارتكبت من خطايا."

قالت ماري: "ولكنّي لم أرتـ... لم أرتكب أي منها مطلقًا. وما هي الخطيئة على أيّ حال؟"

"آه ماري، لا بدّ أنّك فعلت. فالجميع يرتكب الخطايا. ألم تكذبي بتاتًا من قبل؟"

قالت ماري: "بل فعلت عديدًا من المرّات."

قالت أونا مصرّحة: "تلك خطيئةٌ مروّعة."

سألت ماري: "أتعنين أنّني سألقى الجحيم لكذبي بين الفينة والأخرى؟ لم؟ لقد كنت مضطرّةً لذلك. كان السيّد وايلي ليحطّم كلّ عظمةٍ في جسدي ذات مرّة لو أنّي لم أكذب. لقد خلصّتني الأكاذيب وافرًا من المرّات، صدّقيني."

تنهّدت أونا. كان أمامها الكثير من الصّعاب لتخطّيها. ارتعشت متخيّلةً فكرة أن تُضرب بوحشيّة. وعلى الأرجح أنّها كانت لتكذب أيضًا. فشدّت على يد ماري الصّغيرة المتثفّنة.

لم تكن طبيعة فيث المرحة تسمح لها بالتّركيز على المواضيع غير المستحبّة، فسألت: "ألا تملكين ثوبًا آخر؟"

احمرّت ماري خجلًا وصرخت قائلة: "لقد ارتديت هذا الثّوب فقط لأنّه كان مهترئًا. إنّ السيّدة وايلي هي من اشترت ملابسي ولم أكن أريد أن أدين لها بأيّ شيء. أنا صريحة. إن كنت سأهرب فما كنت سآخذ أيّ شيءٍ يخصّها ذا قيمة. حين أكبر سيكون لديّ ثوبٌ أزرق فخم. لا تبدو ملابسكم بتلك الأناقة. كنت أظنّ أن أطفال الدّير متأنّقين على الدّوام."

كان من الواضح أنّ ماري فتاة سريعة الغضب وحسّاسة إزاء بعض الأمور. ولكنّها كانت تتمتّع بجاذبيّةٍ ثائرةٍ غير مألوفة أسرتهم جميعًا. واصطحبوها إلى وادي قوس المطر ذاك المساء ليعرّفوها إلى أطفال أسرة بلايث على أنّها صديقتهم التي أتت لزيارتهم من الميناء. تقبّلها أطفال أسرة بلايث دون طرح الأسئلة، ربّما لأنّها باتت تبدو محترمةً إلى حدٍّ ما الآن. بعد العشاء، حيث تمتمت الخالة مارثا وبينما كان السيّد ميريديث غارقًا في حالةٍ من شبه اللّا وعي وهو يفكّر في خطابه

ليوم الأحد، انتصرت فيث على ماري في محاولة إقناعها بارتداء إحدى أثوابها، وغيرها من قطع الملابس الأخرى. بدت ماري جذّابةً بشعرها المضفر المرتّب. وباتت صديقةً قيّمةً للّعب ذلك أنّها كانت تعرف العديد من الألعاب الجديدة والمشوّقة، ولم تكن أحاديثها تفتقر إلى الإثارة. في الواقع، جعلت بعض تعابيرها كلًّا من نان ودي تنظران إليها باستنكار، لم تكونا متأكّدتين من رأي والدتهما بها ولكنّهما كانتا تعرفان ما قد تقوله سوزان تمام المعرفة. ولكنّها كانت أحد زوّار الدّير لذا لا بدّ من أنّه لا ضير في الأمر.

حين آن أوان الخلود إلى النّوم، واجهتهم مشكلةٌ بشأن مكان نوم ماري.

قالت فيث لأونا بحيرة: "لا يمكننا أن نضعها في الغرفة الإضافيّة كما تعلمين."

صاحت ماري بنبرةٍ متألّمة: "ليس لديّ أيّ شيءٍ في رأسي."

قالت فيث محتجّة: "آه، أنا لم أعني ذلك. الغرفة الإضافيّة في حالٍ يُرثى لها، قامت الفئران بحفر حفرةٍ كبيرةٍ في الفراش وصنعت عشًا لها في داخله. لم نكتشف ذلك إلى أن وضعت الخالة مارثا القدّيس السيّد "فيشر" من "شارلوت تاون للنّوم هناك الأسبوع الفائت. فكان هو من اكتشف الأمر على الفور وبعدها اضطرّ والدي لإعطائه سريره والنّوم في حجرة الدّراسة. لم تملك الخالة مارثا الوقت لإصلاح سرير الغرفة الإضافيّة بعد، لذلك تقول أنّه لا يمكن لأيّ أحدٍ أن ينام هناك مهما كانت رؤوسهم نظيفة. أمّا غرفتنا فصغيرة للغاية والسّرير صغيرٌ للغاية لذا ليس في وسعك أن تنامي معنا."

قالت ماري بشكلٍ فلسفي: "في وسعي العودة إلى القشّ في الزّريبة القديمة لهذه الليلة إن أعرتموني بطّانيّة. كانت ليلة الأمس باردةً بعض الشّيء ولكن باستثناء ذلك فبإمكاني القول أنّني نمت في أسرّةٍ أسوأ."

قالت أونا: "آه لا، لا، لا ينبغي لك ذلك. لقد فكّرت في خطّةٍ يا فيث. أتعرفين ذاك السّرير في العليّة مع الفرشة الذي تركه الكاهن السّالف هناك؟ فلنأخذ الشّراشف من الغرفة الإضافيّة ونرتّب سريرًا لماري هناك. لن تمانعي النّوم في العليّة، أليس كذلك يا ماري؟ إنّها فوق غرفتنا تمامًا."

"سيفي أيّ مكانٍ بالغرض. لم أنم في أيّ مكانٍ لائقٍ طيلة حياتي. كنت أنام في الغرفة العلويّة فوق المطبخ في منزل السيّدة وايلي. وكان السّقف يسرّب الماء في الصّيف والثّلج في الشّتاء. كان سريري فراشًا من القشّ على الأرض. لن تجدوني أتذمّر بشأن مكان نومي."

كانت عليّة الدّير مكانًا واسعًا ومظلمًا وهنا صُنع فراش ماري من شراشف مخيّطةً بأناقة وبطّانيّة مزركشة كانت "سيسيليا ميريديث" قد قامت بخياطتها بفخرٍ شديدٍ لأجل غرفتها الإضافيّة والتي قاومت غسيل الخالة مارثا المشكوك فيه. تمنت لهم ليلة سعيدة وخيّم الصّمت في الدّير. كانت أونا على وشك أن تغفو وإذ بها تسمع صوتًا في الغرفة العلويّة جعلها تنهض فجأةً.

همست أونا: "اسمعي يا فيث، إنّ ماري تبكي." لم تجب فيث التي كانت نائمةً بالفعل. نهضت أونا من السّرير بثوبها الصّغير الأبيض ونزلت إلى الرّدهة ثمّ صعدت سلالم العليّة. أثار صرير الأرضيّة انتباهًا وافرًا عن قدومها وحين وصلت إلى الغرفة في الزّاوية، كان السّكون سائدًا تحت نور القمر ولم تر سوى حدبةٍ في منتصف السّرير.

همست أونا: ماري.

ولكنّها لم تحصل على إجابة.

زحفت أونا إلى السّرير وشدّت اللّحاف. "أنا أعلم أنّك تبكين يا ماري. لقد سمعتك. هل تشعرين بالوحشة؟"

ظهرت ماري فجأةً لمرأى أونا ولكنّها لم تنطق ببنت شفة.

قالت أونا مرتعشةً في الهواء البارد، إذ كانت نافذة العليّة الصّغيرة مفتوحة وكانت أنفاس الشّاطئ الشّماليّ تلفح في الدّاخل: "دعيني أنام بجانبك. أنا أشعر بالبرد."

تنحّت ماري جانبًا واندسّت أونا في السّرير إلى جانبها.

"لن تشعري بالوحشة الآن. ما كان ينبغي لنا تركك هنا بمفردك في أوّل ليلةٍ لك."

استنشقت ماري قائلة: "لم أكن أشعر بالوحشة."

"لم كنت تبكين إذًا؟"

"آه، كنت أفكّر وحسب في بعض الأمور بينما كنت وحيدةً هنا. فكّرت في أنّي سأضطرّ للعودة إلى السيّدة وايلي وسأُجلد عقابًا على فراري و... و... وفكّرت أيضًا في أنّني سوف أصلى الجحيم بسبب الكذب. أقلقني كلّ ذلك حدّ الخزي."

قالت أونا المسكينة بحزن: "آه ماري. أنا لا أظنّ أنّ الرّب سيرسلك إلى الجحيم لقول الأكاذيب حين كنت تجهلين أنّ ذلك خطأ. هو لا يمكنه ذلك فهو رؤوفٌ وطيّب. ولكن ينبغي لك ألّا تكذبي بعد الآن بما أنّك أصبحت تعلمين أنّ ذلك خطأ."

قالت ماري منتحبة: "إن كنت لا أستطيع الكذب فما الذي سيحدث لي؟ أنت لا تفهمين. أنت تجهلين كلّ شيءٍ بشأن هذا الأمر. أنت تملكين منزلًا ووالدًا لطيفًا، على الرّغم من أنّه يبدو لي أنّه سارحٌ في عالمه الخاصّ، ولكنّه في كلّ الأحوال لا يقوم بجلدك. كما أنّك تحصلين على حاجتك من الطّعام، على الرّغم من أنّ الخالة مارثا خاصّتكم لا تجيد الطّهي. فهذه المرّة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بالغثيان إن أكلت ما يكفيني من الطّعام. لقد كنت أُضرب طيلة حياتي تقريبًا، باستثناء العامين الذين قضيتهما في الملجأ، فهم لم يكونوا يجلدونني هناك ولم يكن الوضع بهذا السّوء، رغم أنّ المديرة كانت

نزقة وكانت تبدو على الدّوام وكأنّها على وشك التحدّث معي بفظاظة وسخط. ولكنّ السيّدة وايلي رعبٌ رهيب، هذا ما هي عليه ويتملّكني الذّعر حين أفكّر بالعودة إليها."

"ربّما لن تضطرّي لذلك. ربّما يمكننا التّفكير في طريقةٍ لتفادي ذلك. فلنطلب من الرّب أن يجنّبك العودة إلى السيّدة وايلي. أنت تتلين صلواتك، أليس كذلك يا ماري؟"

قالت ماري لامبالية: "آه، أجل. دائمًا ما أردّد أسجوعةً قديمةً قبل الخلود إلى النّوم. ولكنّني لم أفكّر في طلب أيّ شيءٍ على وجه الخصوص. لم يعرني أيّ أحدٍ في هذا العالم بأسره أيّ اهتمام، لذا لم أفترض أنّ الرّب سيفعل. ربّما يكلّف نفسه عناءً أكثر لأجلك لأنّك ابنة كاهن."

قالت أونا: "أنا متأكّدة من أنّه سيكلّف نفسه العناء ذاته لأجلك أيضًا. لا يهمّ ابنة من تكونين يا ماري. فلتطلبي منه فحسب وسأفعل أيضًا."

وافقت ماري قائلة: "حسنًا. لا ضير في الأمر ولو لم يأتي بمنفعة. لو كنت تعرفين السيّدة وايلي كما أعرفها، لما ظننت أن الرّب سيرغب في التّدخل فيها. ولكنّني على أيّ حال لن أبكي بشأن هذا الأمر بعد الآن. المنظر هنا أروع من الليلة الماضية في الزّريبة القديمة مع الفئران المتجوّلة في الأرجاء. انظري إلى منارة "فوروينذز". أليس نورها خلّابًا؟"

قالت أونا: "هذه النّافذة هي الوحيدة التي تسمح لنا برؤيته. أنا أحبّ مشاهدته."

"حقًّا؟ وأنا كذلك. كنت أستطيع رؤيته من الغرفة العلويّة لدى أسرة وايلي وكان ذلك السّلوان الوحيد الذي كنت أملكه. كان ينسيني ألم الأماكن في جسدي التي لم تسلم من الجلد. كنت أفكّر في السّفن

المبحرة بعيدًا وبعيدًا عنه وكنت أتمنّى لو أنّني إحداها فأبحر بعيدًا وبعيدًا عن كلّ شيء. وحين لم يكن النّور يتلألأ في ليالي الشّتاء، كنت أشعر بالوحشة. أخبريني يا أونا، ما الذي يجعلكم ورفاقكم تعاملونني بهذا اللّطف في حين أنّني مجرّد غريبة."

"لأنّه من الصّواب فعل ذلك. يأمرنا الكتاب المقدّس بأن نكون لطفاء مع الجميع."

"أحقًّا ذلك؟ أظنّ إذًا أنّ معظم الأشخاص لا يكترثون لهذا الأمر فأنا لا أذكر أيّ شخصٍ عاملني بلطفٍ من قبل صدّقي أو لا تصدّقي. أخبريني يا أونا أليست الظّلال المنعكسة على الجدران جميلة؟ إنّها تبدو تمامًا كسربٍ من الطّيور الصّغيرة المتراقصة. اسمعي يا أونا، أنا أحبّكم جميعًا، أنتم يا رفاق وصبية بلايث ودي. ولكنّني لا أحبّ نان تلك، فهي متكبّرة."

قالت أونا بلهفة: "آه كلّا يا ماري. هي ليست متكبّرة على الإطلاق. إنّها لا تحمل في نفسها ذرّةً من الكبر."

"باللّه عليك. أيّ فتاةٍ ترفع أنفها كما تفعل فهي متكبّرة لا محالة. أنا لا أحبّها."

"جميعنا نحبّها بشدّة."

قالت ماري بغيرة: "آه، أظنّ بأنّكم تحبّونها أكثر منّي؟ أليس كذلك؟"

قالت أونا متلعثمة: "ماري نحن نعرفها منذ أسابيع، أمّا أنت فلم نعرفك سوى قبيل ساعاتٍ قليلة."

قالت ماري بسخط: "إذاً فأنتم حقًّا تحبّونها أكثر منّي؟ حسنًا لا بأس، فلتحبّوها بقدر ما تشاؤون. لا يشكّل ذلك فرقًا عندي. في وسعي تدبّر أموري من دونكم."

وانطرحت مستديرةً بقوّةٍ نحو جدار العليّة.

قالت أونا واضعةً ذراعها بلطفٍ على ظهر ماري المعاندة: "لا تقولي ذلك. أنا حقًّا أحبّك للغاية وأنت تشعرينني بالذّنب."

لا إجابة. وكانت أونا الآن قد أجهشت بالبكاء. فاستدارت ماري على الفور، وضمّتها بولع.

وقالت: "اصمتي. لا تبدئي بالبكاء بسبب ما قلت. كنت لئيمةً كالشّيطان لتحدّثي إليك بهذه الطّريقة. أستحقّ أن أُسلخ حيّة ولكنّكم جميعًا تعاملونني بكثيرٍ من الطّيبة. عليّ توقّع أنّكم قد تحبّون أيّ شخصٍ أكثر منّي. أنا أستحقّ كلّ جلدةٍ أصابتني. اصمتي الآن. إن استمرّيت بالبكاء فسوف أنزل مباشرةً إلى الميناء في ثوب النّوم هذا وأُغرق نفسي."

جعل هذا التّهديد أونا تختنق بجهشاتها ومسحت ماري عبراتها. احتضنت المُسامِحة والمسامَحة بعضهما البعض من جديد، وقد أُعيد التّناغم، لمشاهدة انعكاس ظلال أوراق الكرمة على الجدار المُضاء بنور القمر إلى أن غلبهم النّعاس.

وفي المكتب في الأسفل، كان القسّ "جون ميريديث" يمشي بوجهٍ جذلٍ وعينين متلألئتين مفكّرًا برسالته لصباح الغد. وكان يجهل وجود، تحت سقف منزله، روحٍ بائسةٍ تذلّ في الظّلمات والجهل، يحاصرها الرّعب، وتحيطها مصاعب أعظم من أن تقوى على مجاهبتها بكفاحها غير العادل لعالمٍ كبيرٍ لا يبالي.

***

6
بقاء ماري في الدّير



في اليوم التّالي، قام أطفال الدّير باصطحاب ماري فانس إلى الكنيسة معهم. ولكنّ ماري عارضت الفكرة في بادئ الأمر.

سألت أونا: "ألم تكوني تذهبين إلى الكنيسة عند الميناء؟"

"بلى طبعًا. لم تكترث السيّدة وايلي كثيرًا لأمور الكنيسة، ولكنني كنت أذهب كلّ يوم أحدٍ يحالفني فيه الحظّ بالهرب. كنت ممتنّةً جدًّا لذهابي إلى مكانٍ يُتاح لي فيه الجلوس لمدّةٍ من الوقت. ولكنّني لا أستطيع الذّهاب إلى الكنيسة بهذا الثّوب القديم البالي."

أزيحت تلك المشكلة باقتراح فيث إعارة ماري ثاني أفضل أثوابها.

"إنّه باهتٌ قليلًا وينقصه زرّان ولكنّني أظنّ أنّه سيفي بالغرض."

قالت ماري: "سأعيد خياطة الأزرار في لحظة."

قالت أونا مصدومة: "ليس في يوم الأحد."

"بلى بالتّأكيد. في اليوم العظيم إنجازاتٌ أعظم. فلتأتيني بإبرةٍ وخيطٍ ولتشيحي بنظرك إن كنت موسوسة."

اكتمل زيّ ماري بكلٍّ من حذاء فيث المدرسيّ وقلنسوةٍ سوداء

مخمليّةٍ قديمة كانت إحدى مقتنيات "سيسيليا ميريديث" من قبل ثمّ توجّهوا إلى الكنيسة. كان سلوك ماري عاديًّا إلى حدٍّ بعيد. وبالرّغم من أنّ البعض تساءل من تكون الفتاة الصّغيرة الدّنيئة برفقة أطفال الدّير، فهي لم تجذب الانتباه الكثير. أنصتت للخطاب بلباقةٍ سطحيّة كما شاركت في إنشاد التّرانيم بنشاط. وكما بدا، فقد كانت تملك صوتًا قويًّا واضحًا وسمعًا جيّدًا."

راحت ماري تنشد التّرانيم بابتهاج: "يستطيع دمه تطهير أزهار البنفسج." استدارت السيّدة "جيمي ميلجرايف" فجأةً، والتي كان مقعدها أمام مقعد الدّير، وراحت تحدّق بالطّفلة من رأسها إلى أخمص قدميها. وإذ بماري تمدّ لها اللّسان بفائضٍ من البذاءة، الأمر الذي أخاف أونا."

وبعد خروجهم من الكنيسة، قالت ماري: "لم أتمالك نفسي. ما غايتها من التّحديق بي بتلك الطّريقة؟ أيّها أخلاق! أنا مسرورةٌ لمدّ لساني لها. أتمنّى لو أنّني مددته أكثر من ذلك. اسمعوا، لقد لمحت "روب ماكالستر" من الميناء هناك. أتساءل إن كان سيشي بي للسيّدة وايلي."

لم يظهر أثرٌ للسيّدة وايلي على أيّة حال، كما نسي الأطفال أن يبحثوا عنها. على ما يبدو فقد كانت ماري الآن دائمة الوجود في الدّير ولكنّها أبت الذّهاب إلى المدرسة مع الآخرين.

وحين حثّتها فيث على الذّهاب، قالت: "أرفض ذلك. لقد أتممت دراستي. ارتدت المدرسة أربعة فصول شتاء منذ مجيئي إلى منزل السيّدة وايلي وقد حصّلت كلّ ما أحتاجه من ذلك. ضقت ذرعًا بالتّأنيب المؤبّد بسبب عدم إتمامي لواجباتي المنزليّة. لم أكن أملك الوقت لذلك."

قالت فيث: "لن يفعل معلّمنا ذلك. فهو شخصٌ دمث الأخلاق."

"حتّى ولو كان كذلك، لن أذهب. في وسعي القراءة والكتابة وحساب الكسور. وهذا كلّ ما أريده. بإمكانكم الذّهاب يا رفاق، أمّا أنا فسألازم المنزل. ليس عليكم أن تخشوا أنّني سأقوم بسرقة أيّ شيء. أقسم أنّني صادقةٌ في قولي."

أشغلت ماري نفسها بتنظيف الدّير إبّان وجود الأطفال الآخرين في المدرسة. فأضحى مكانًا آخر في غضون أيّامٍ قليلة. إذ مُسحت الأرضيّات ونُفض غبار الأثاث ورُتّب كلّ شيء. قامت بإصلاح فرشة سرير الغرفة الإضافيّة وتخييط الأزرار المبتورة وترقيع الملابس بعناية، فضلًا عن أنّها اجتاحت المكتب بمكنسةٍ ومحرقة الكناسة وأوجبت السيّد ميريديث مغادرة المكان كي يتسنّى لها تنظيمه وإعادته إلى ما كانت عليه. ولكن، ثمّة قسمٌ واحدٌ عارضت الخالة مارثا أن تأذن لها بالتّدخّل فيه. قد تكون الخالة مارثا صمّاء وشبه عمياء وخرفةً للغاية غير أنّها كانت عازمةً على تولّي المؤونة بنفسها برغم كلّ حيل ماري ومكايدها.

أخبرت أطفال الدّير بامتعاض: "أضمن لكم أنّكم ستتناولون طعامًا ملائمًا لو أنّ الخالة مارثا تسمح لي بالطّهي. لن يكون هناك المزيد من "الدّيتو" أو المزيد من العصائد المتكتّلة أو الحليب الفاسد. ما الذي تفعله تلك العجوز بكلّ القشدة؟"

قالت فيث: "تقوم بإعطائها للقطّ. فهو قطّها كما تعلمين."

صاحت ماري بنقم: "أودّ أن أتخلص منه لا حاجة لي بالقطط على أيّة حال فهي من أتباع إبليس. بإمكانكم تبيّن ذلك من نظراتها. حسنًا، إن قالت الخالة مارثا أنّها لن توافق فهي لن توافق. ولكنّني أشتعل غيظًا لرؤية الطّعام يفسد."

عقب الدّوام المدرسيّ، كانوا دائمًا ما يذهبون لزيارة وادي قوس المطر. إذ كانت ماري تأبى اللّعب في المقبرة متذرّعةً بخوفها من الأشباح."

قال "جيم بلايث" معلنًا: "لا وجود للأشباح أو لأمثالها."
"أمتأكّدٌ أنت من كلامك؟"
"هل سبق أن رأيت أيٍّ منها؟"
قالت ماري على الفور: "بل المئات منها."
قال كارل: "وكيف تبدو؟"
قالت ماري: "مظهرها شنيعٌ جدًّا، تلبس الأبيض من رؤوسها إلى أخمص أقدامها ولها أيادي الكياهل العظميّة ورؤوسها."
سألت أونا: "وماذا فعلت؟"
قالت ماري: "ولّيت هاربةً كالشّيطان." ثمّ التقت نظراتها بعينيّ والتر فاحمرّت خجلًا. كانت ماري معجبةً بوالتر إلى حدٍّ كبير وقد أفصحت لفتاتيّ الدّير عن أنّ عينيه تصيبانها بالتوتّر.
قالت: "حينما أنظر إلى عينيه، فإنّني أستذكر كلّ الأكاذيب التي رويتها وأتمنّى لو أنّي لم أفعل."
كان جيم المفضّل لدى ماري. وكانت تشعر بإطراء شديدٍ وسعادةٍ غامرة عندما يصطحبها إلى الأتيكيّة في "إنجلسايد" ويريها المتحف الذي أوصاه به الكابتن "جيم بويد". كما أنّها فازت بقلب كارل لشغفها بحشرات الخنفساء والنّمل خاصّته. ولا مجال لنكران أنّ ماري كانت تنسجم مع الفتية أكثر منها مع الفتيات. فقد وقع تشاجرٌ لاذعٌ بينها وبين "نان بلايث" في اليوم التّالي.
أخبرت نان باحتقار: "والدتك مشعوذة. تلك هي حال جميع النّساء ذوات الشّعر الأحمر." كما تعاركت مع فيث بشأن الدّيك فقالت أنّ ذيله أقصر ممّا ينبغي، فردّت فيث قائلةً أنّها تظنّ أنّ الرّب يعلم أيّ طولٍ يصنع به ذيل الدّيك. وتوقفتا عن التّحدّث مع بعضهما البعض ليومٍ كامل بسبب ذلك. قامت ماري برتق دمية أونا الصّلعاء والعوراء بعناية. ولكن حين أرتها أونا كنزها الثّمين الآخر، وهو صورة ملاكٍ يحمل

رضيعًا، صرّحت ماري أنّه يبدو أشبه بالشّبح بالنّسبة لها. فهرعت أونا إلى غرفتها وراحت تبكي بسبب ذلك، ولكنّ ماري لاحقتها واحتضنتها تائبةً ومناشدةً إيّاها بالمسامحة. ما كان أحدٌ يستطيع التّشاجر طويلًا مع ماري ولا حتّى نان، التي كانت بالأحرى تنزع لكنّ الضّغائن ولم تكن تغفر ذمّ والدتها مطلقًا. كانت ماري فتاةً مرحة تستطيع سرد أكثر القصص تشويقًا عن الأشباح. ولا مجال للشّكّ في أن جلسات استحضار الأرواح في وادي قوس المطر قد باتت أكثر حماسيّةً منذ قدوم ماري. كما أنّها تعلّمت العزف على القيثارة ونجحت في سرقة الأضواء من جيري خلال مدّةٍ وجيزة.

أعلنت ماري قائلة: "لم أواجه يومًا أيّ أمرٍ عجزت عن القيام به إن عزمت على ذلك." قلّما كانت ماري تفوّت أيّ فرصةٍ للتّمدح والتّباهي بنفسها. قامت بتعليمهم كيفيّة صنع "أكياس النّفخ" من أوراق شجرة "عش للأبد" التي نمت في حديقة "بايلي" القديمة وأطلعتهم على أنواع الحمضيّات السائغة التي نمت في مشكاوات حاجز المقبرة كما أنّها كانت بارعةً في صنع أروع صور الظّلال على الجدران بأناملها الطّويلة المرنة. ودائمًا ما كانت ماري تحصل على "أكبر علكة" عندما كانوا يذهبون سويّا لقطف اللّبان في وادي قوس المطر وكانت تتفاخر بذلك. كانوا يبغضونها أحيانًا ويستلطفونها في أحيان أخرى. ولكنّهم كانوا يجدونها مثيرةً للاهتمام في جميع الأحيان. لذا انصاعوا لقيادتها إلى حدٍّ بعيد، ومع مرور أسبوعين، انتابهم شعورٌ بأنّها كانت برفقتهم منذ الأزل.

قالت ماري: "أكثر الأمور عجبًا هو أنّ السيّدة وايلي لم تلاحقني. لا أستطيع فهم الأمر."

قالت أونا: "ربّما لن تتعب نفسها بشأنك بتاتًا وحينها سيمكنك البقاء هنا."

قالت ماري مقطّبة الجبين: "يكاد هذا المنزل لا يتسّع لي وللعجوز مارثا. إنّه لأمرٌ جيّد حصول المرء على حاجته من الطّعام فغالبًا ما تساءلت عن هذا الشّعور ولكنّني نيّقةٌ بشأن طهيي. والسيّدة وايلي ستأتي عاجلًا أم آجلًا، ولا بدّ أنّها تخفي لي في جعبتها وابلًا من الضّرب المبرح، أتفهمان؟ أنا لا أفكّر في ذلك خلال النّهار، ولكن اسمعن يا فتيات، لا تنفكّ الأفكار تجول في بالي ليلًا في العليّة لدرجة أنّني أتمنّى لو تأتي السيّدة وايلي وتنهي هذا الأمر. لا أدري إن كان إبراحي ضربًا طويلًا لمرّةٍ واحدة أفضل من عشرات المرّات التي قضيتها أضرب في فكري منذ لذت بالفرار. أتعرّضت أيٌّ منكما للجلد من قبل؟"

قالت فيث باحتدام: "لا بالطبّع لا. ما كان والدنا أبدًا ليفعل هكذا أمر."

قالت ماري بتنهّد يصاحبه الحسد: "أنتما لا تعلمان ما الذي مررت به. وأعتقد أن أطفال أسرة بلايث لم يُجلدوا أيضًا؟"

"لا أظنّ ذلك. ولكنّني أعتقد أنّهم صُفعوا حين كانوا صغارًا."

قالت ماري مستهزئة: "إنّ الصّفع لا يقارن بأيّ شيء. لو أنّ أصحابي قاموا بصفعي فحسب، لحسبتهم يداعبونني. على أيّة حال، إنّ هذا العالم غير عادل. وما كنت لأمانع حصولي على نصيبي من الضّرب ولكنّني رأيت ما يكفي لعينًا من المرّات."

قالت أونا مؤنّبة: "من الخطأ التّلفّظ بتلك الكلمة يا ماري. لقد وعدتني بأنّك لن تتلفّظي بها ثانيةً."

أجابت ماري: "اغربي عن وجهي. لو أنّك تعرفين نصف الكلمات التي يسعني قولها إن أردت، ما كنت لتجادليني بشأن كلمة اللّعين. وأنت تعلمين تمامًا بأنّني لم أكذب مطلقًا منذ قدومي إلى هنا."

سألت فيث: "وماذا عن كلّ تلك الأشباح التي زعمت رؤيتها؟"

احمرّت ماري خجلًا.

وقالت مدافعةً عن نفسها: "لا شأن لذلك الأمر. كنت أعلم أنّكم لن تصدّقوا تلك الحكايات ولم تكن نيّتي أن تصدّقوها. كما أنّني حقًّا رأيت شيئًا غريبًا ذات ليلة لدى مروري بجانب المقبرة عند الميناء. أجهل ما إن كان ذلك شبحًا أم فرس "ساندي كراوفورد" الأبيض العجوز. ولكنّه كان غريبًا للغاية فهرعت مسرعةً كالصّاروخ."

***



7
حادثةٌ مريبة



كانت "ريلا بلايث" تختال مزهوّة، بشيءٍ من الاحتشام، عابرةً شارع قرية جلين الرّئيس متّجهةً نحو رابية الدّير. وهي تحمل برفقٍ سلّةً صغيرةً مليئةً بباكورة الفراولة التي كانت سوزان قد زرعتها في إحدى الزّوايا المشمسة في إنجلسايد، فغدت لذيذةً شهيّة. كلّفت سوزان ريلا بتسليم السلّة للخالة مارثا أو للسيّد ميريديث لا غيرهما، وكانت ريلا عازمةً، وهي الفخورة بكونها وُكّلت بهكذا مهمّة، على اتّباع تعاليم سوزان بالحرف الواحد.

كانت سوزان قد ألبستها ثوبًا مزركشًا أبيض وحزامًا أزرق مع حذاءٍ زُخرف بالخرز. كانت جدائلها الحمراء الطّويلة ناعمةً ومفتولة وكانت سوزان قد سمحت لها بارتداء أجمل قبّعاتها مجاملةً للدّير. كان ذلك شأنًا مدروسًا إلى حدٍّ ما، كان لرأي سوزان فيه قولٌ أكثر من رأي آن. وتألّقت روح ريلا الصّغيرة في إزهاءٍ من الحرير والدّانتيل والزّهر. وكانت يقظةً جدًّا بشأن قبّعتها وأخشى أنّها تبخترت أعلى رابية الدّير. وقد أثار التّبختر أو القبّعة، أو كلاهما، الحنق في نفس ماري فانس التي كانت تتغايد على بوابة البستان. وفوق ذلك كلّه، كان مزاج ماري عكرًا

بالفعل عندها إذ أنّ الخالة مارثا رفضت السّماح لها بتقشير البطاطا وقامت بطردها من المطبخ.

صاحت ماري قائلة: "ياه! سوف تأتين بالبطاطا إلى المائدة نصف ناضجة تتدلّى منها القشور كالعادة! يا إلهي سيكون من الجيّد حضور جنازتك." وهكذا غادرت المطبخ وأغلقت الباب بكلّ ما أوتيت من قوّة حتّى أنّ الخالة مارثا سمعت الخبطة وشعر السيّد ميريديث بالارتجاج النّاجم عنها وبذهنٍ شارد، حسبه فعل زلزالٍ أرضيٍّ طفيف.

ترجّلت ماري عن البوّابة لتواجه فتاة إنجلسايد المرتّبة الأنيقة.

فسألت محاولةً انتهاب السّلة: "ماذا لديك هنا؟"

قاومت ريلا وقالت لاثغة: "إنّها للثّيد ميريديث."

قالت ماري: "هاتها سأقوم بإعطائه إيّاها."

أصرّت ريلا قائلة: "لا. قالت ثوزان إنّه ليث عليّ تسليمها لأيّ شخصٍ عدا الثّيد ميريديث أو الخالة مارثا."

نظرت ماري إليها بحدّة.

"تحسبين نفسك شيئًا عظيمًا بتأنّقك كالدّمية، أليس كذلك؟ انظري إليّ. ثوبي متهرّئٌ تمامًا وأنا لا أكترث! أفضّل أن أبدو رثّةً على أن أكون طفلةً دمية. عودي للمنزل وأخبريهم أن يضعوك في صندوقٍ زجاجيّ. انظروا إليّ، انظروا إليّ، انظروا إليّ!"

راحت ماري تتراقص بهمجيّة حول ريلا التي روّعها ما يحدث. كانت تعبث بتنّورتها البالية وتعجعج قائلةً "انظروا إليّ انظروا إليّ" إلى أن أصيبت المسكينة ريلا بالدّوار. وبينما كانت الأخيرة تحاول المناص للوصول إلى البوّابة، وإذ بماري تنقضّ عليها ثانيةً.

كشّرت ماري عن أنيابها وقالت: "أعطني تلك السّلّة." كانت ماري أكثر من حرّيفة في فنّ "الوجوه المتجهّمة". كان في وسعها منح سيماها مظهرًا متنافرًا مثاليًّا وكانت عيناها البيضاوان الغريبتان

والبرّاقتان تشعّان بتأثيرٍ غريب.

قالت ريلا وهي تلهث مذعورةً ولكنّها احتفظت بثباتها: "لن أفعل. فلتدعيني وشأني يا ماري فانث."

توقّفت ماري لبرهةٍ ونظرت من حولها. كان هناك ثمّة "رقاقة" داخل البوّابة تمامًا، وعليها كانت بعض الأسماك على مشارف الموت. كان أحد الأبرشيّون قد أهدى تلك الأسماك للسيّد ميريديث ذات يوم ولعلّها كانت عوضًا عن التبرّعات التي كان من المفترض أن يدفعها للرّاتب ولكنّه لم يفعل مطلقًا. شكره السيّد ميريديث ولكنّه نسي تمامًا أمر الأسماك التي كانت لتفسد على الفور لولا أنّ ماري النّشيطة قامت بتحضيرها للتّجفيف وتجهيز "الرّقاقة" لتجفيفها عليها بنفسها.

أُلهمت ماري بفكرةٍ جهنّمية فسارعت إلى "الرّقاقة" واختطفت منها أكبر سمكةٍ. كانت مسطّحةً وضخمةً، وكادت أن تكون بحجم ماري نفسها. ثمّ انقضّت على ريلا المرتاعة وراحت تلوّح بقذيفتها العجيبة. وهنا فقدت ريلا رباطة جأشها وخانتها شجاعتها. كان ضرب أحدهم بإحدى سمكات البكلاء المجفّفة أمرًا غير مألوفٍ لم تقو ريلا على مجابهته، فإذ بها توقع سلّتها أرضًا وتصيح هاربة. تدحرجت حبّات الفراولة الجميلة التي كانت سوزان قد انتقتها بعناية للكاهن، وشكّلت نهيرًا ورديًّا فوق الطّريق المعفّرة ثمّ سُحقت بأقدام المفترسة وفريستها. لم تعد السلّة ومحتوياتها تعني شيئًا لماري بل كانت الآن تستمتع فقط بإرعاب "ريلّا بلايث" حدّ الموت. سوف تلقّنها درسًا لتتعلّم ألّا تأتي متباهيةً بملابسها الفاخرة مرّةً أخرى.

انطلقت ريلا نزولًا من الرّابية ووصلت إلى الشّارع، كان الذّعر كفيلًا بمنحها القوّة اللّازمة لتسبق ماري التي كانت تعرقلها ضحكاتها والتي ما زالت تملك، رغم ذلك، الأنفاس الكافية للزّعق بشكلٍ تتجمّد له الدّماء بينما كانت تجري. واستمرّت

الفتاتـان بالعـدو عند شـارع جلين فـي حين هـرع الجميع إلـى النّوافذ والأبـواب لرؤيتهمـا. أحسّـت مـاري بأنّهـا تتسبّب بضجيـجٍ عـارمٍ وكانـت مسـتلذّةً بالأمر. شـعرت ريـلا بأنّها عاجـزةٌ عن الرّكـض أكثر من ذلـك، فلقـد انقطعـت أنفاسـها وتملّكهـا الرّعـب. سـوف تنقضّ عليهـا تلـك الفتـاة المريعـة بسـمكة البـكلاء فـي أيّـة لحظـة. وهنـا، تعثّـرت الطّفلـة المسـكينة وسـقطت فـي بركةٍ ضحلـةٍ مـن الطّين عند نهاية الشّارع لحظة خروج الآنسة كورنيليا من متجر "كارتر فلاج".

استنبطت الآنسـة كورنيليـا الموقـف برمّتـه مـن نظـرةٍ واحـدة وكذلـك مـاري التـي تلبّثـت فـي مكانهـا والتفّـت عائـدةً أدراجهـا وجـرت بالسّـرعة نفسـها التـي نزلـت بهـا قبـل أن يتسنّى للآنسـة كورنيليـا النّطـق بكلمـةٍ واحـدة. حاولـت الآنسـة كورنيليـا تمالـك نفسـها، كانـت تعلـم أنّـه لا جـدوى مـن ملاحقتهـا فقـرّرت حمـل المسـكينة ريـلا الشّـعثاء المنتحبـة واصطحابهـا للمنـزل عوضًـا عـن ذلـك. كانـت ريـلا منفطرة الفـؤاد. لقـد أُتلـف فسـتانها وحذاؤها كما تلقّى فخرها الذي دام ستّة أعوام العديد من الكدمات الفظيعة.

سمعت سوزان ما روته الآنسة كورنيليا عن ماري فانس وفعلتها المشينة، وشحبت من الإستياء.

وبينما أخذت ريلا لمواساتها وتهدئتها قالت: "آه يا لتلك البنت الوقحة! آه يا لتلك الوقحة الوضيعة!"

قالت الآنسة كورنيليا بشكلٍ حازم: "لقد تخطّى هذا الأمر الحدود يا عزيزتي آن. علينا فعل شيء بشأن ذلك. من تكون تلك المخلوقة التي تلازم الدّير ومن أين أتت؟"

أما آن، والتي رأت الجانب الكوميديّ لمطاردة سمكة البكلاء، وظنّت في سرّها بأنّ ريلا كانت متغطرسةً بعض الشّيء، وأنّها تحتاج لتعلّم درسٍ أو اثنين، ردّت قائلةً: "حسبما فهمت، إنّها فتاةٌ صغيرةٌ من

الميناء وقد كانت في زيارةٍ للدّير."

ردّت الآنسة كورنيليا قائلة: "أنا أعرف جميع عائلات الميناء الذين يأتون إلى كنيستنا وتلك العفريتة لا تنتمي لأيٍّ منها. إنّها تلبس المرقعات وحين تحضر الكنيسة فهي ترتدي ملابس "فيث ميريديث" القديمة. ثمّة بعض الغموض هنا وسوف أتحرّى بشأن هذا الأمر، إذ يبدو أنّ لا أحد آخر سيفعل. أظنّ بأنّها وراء ما فعلوه في شجيرة التنّوب لدى "وارين ميد". أسمعت كيف أصابوا والدته بنوبة رعب؟"

"لا. أعلم فقط أنّ جيلبرت قد جرى استدعاؤه لرؤيتها ولكنّني لم أعلم ما كانت المشكلة."

"حسنًا، كما تعلمين فهي من أصحاب القلوب الضّعيفة. في أحد أيّام الأسبوع الفائت، وحين كانت وحيدةً على الشّرفة، سمعت أفظع الصّرخات من "قتل" و "النّجدة" قادمةً من الشّجيرة، أصوات مرعبة للغاية يا عزيزتي آن. فراح قلبها يخفق دفعةً واحدة. سمعهم "وارين" بنفسه في الزّريبة وتوجّه مسرعًا إلى الشّجيرة لتفقّد الأمر، فوجد أطفال الدّير جميعهم هناك جالسين على شجرةٍ هامدة، يصرخون ملء حناجرهم منادين بـ "قتل" أخبروه بأنّهم كانوا يلهون ولم يعتقدوا أنّ أيّ أحدٍ سيسمعهم، كانوا يلعبون لعبة الكمين الهنديّ. عاد "وارين" إلى منزله فوجد والدته المسكينة مطروحةً على أرضيّة الشّرفة مغمى عليها."

عادت سوزان تستروح بازدراء.

"أظنّ أنّها كانت بعيدةً كلّ البعد عن كونها مغمى عليها يا سيّدة "مارشال إيليوت". إنني أسمع بضعف قلب "أميليا وارين" على مدى أربعين عامًا. كانت تلك حالها منذ كانت في العشرين من عمرها. إنّها تستمتع بلفت الانتباه واستدعاء الطّبيب وسيفي أيّ عذرٍ بالغرض."

قالت آن: "لا أظنّ أنّ جيلبرت وجد إصابتها حرجةً حقًّا."

قالت الآنسة كورنيليا: "آه، قد تكون تلك هي الحقيقة. ولكنّ الحادثة سبّبت الكثير من الكلام وحقيقة أنّ عائلة "ميدز" من الميثوديّين تزيد ملحًا على الجرح. ماذا سيحلّ بأولئك الأطفال؟ أكاد لا أستطيع النّوم ليلًا وأنا أفكّر بهم يا عزيزتي آن. حتّى أنّني أتساءل حقًّا ما إن كانوا يحصلون على كفايتهم من الطّعام، ذلك أنّ والدهم سارحٌ في أحلامه لدرجة أنّه غالبًا ما ينسى أنّه يملك معدة، ثمّ إنّ تلك العجوز الكسول لا تكلّف نفسها عناء الطّهي كما يجب أن تفعل. إنّهم يسرحون ويمرحون على هواهم وكما يحلو لهم وسيزداد الطّين بلّة الآن بما أنّ المدرسة ستقفل أبوابها."

ضحكت آن مستذكرةً بعض أحداث وادي قوس المطر التي رُويت على مسامعها وقالت: "إنّهم يقضون أوقاتًا مبهجةً بالتّأكيد. جميعهم أطفالٌ مقدامون وصريحون ومخلصون وصدوقون."

"معك حقٌّ في ذلك يا عزيزتي آن وحين أستذكر جميع المشاكل التي سبّبها أولئك الصّغيران الثّرثاران المواربان، طفلا الكاهن السّابق، فإنّني أميل لتجاهل الكثير ممّا يفعله أطفال ميريديث."

قالت سوزان: "في نهاية الأمر، إنّهم أطفالٌ طيّبون بحقّ يا زوجة الطّبيب العزيزة. أعترف بأنّهم يملكون الكثير من الخطايا في نفوسهم، ولكنّ ذلك قد يكون في صالحهم إذ أؤمن بأنّهم قد يفسدون من الطّيبة المفرطة لولا ذلك. بيد أنّني ما زلت مصرّةً أنّه من غير الملائم لهم اللّهو في المقبرة."

عذرتهم آن قائلة: "ولكنّهم يلعبون بهدوءٍ تمامًا هناك. إنّهم لا يجرون ويصيحون كما يفعلون في الأماكن الأخرى. أكاد أسمع صياحهم من وادي قوس المطر في بعض الأحيان! على الرّغم من أنّني أقدّر بطلي الصّغير عضوًا باسلًا في فريقهم. أخبرني جيم بأنّهم خاضوا معركةً زائفةً هناك اللّيلة الماضية وكان عليهم أن "يزمجروا" بأنفسهم

ذلك أنّهم لم يكونوا يملكون طوبجيّةً لفعل ذلك. إنّ جيم في خضمّ المرحلة التي يتوق فيها جميع الصّبية لأن يكونوا جنودًا."

قالت الآنسة كورنيليا: "الحمد للّه أنه لن يغدو جنديًّا مطلقًا. لم أرحّب قطّ بفكرة ذهاب أولادنا إلى تلك المعركة في جنوب إفريقيا، ولكنّ الأمر انتهى وعلى الأرجح أنّه لن يحدث شيءٌ من هذا القبيل مرّةً أخرى بتاتًا. أعتقد أنّ العالم يغدو أكثر حساسيّة. أمّا بالنّسبة لقضيّة أسرة ميريديث فأنا أكرّر ما قلته وما زلت مصرّةً أنّ الأمور كانت ستكون بأفضل حال لو أنّ السيّد ميريديث كان متزوّجًا."

قالت سوزان: "أُخبرت بأنّه قام بزيارة أسرة "كيرك" مرّتين الأسبوع الفائت."

قالت الآنسة كورنيليا مفكّرةً: "في الواقع، وانصياعًا للقانون، فأنا لا أؤيّد فكرة زواج كاهن ضمن رعيّته لأنّ ذلك من شأنه أن يفسده. ولكن لا ضير في حالٍ كهذه إذ أنّ الجميع يحبّ "إليزابيث كيرك" ولا أحد آخر متلهّف لتربية أولئك الصّغار، حتّى أنّ فتيات الرّبوة يحبطن بشأن ذلك. لم يُكتشف أمرهنّ وهنّ يحاولن نصب المكائد للسيّد ميريديث. قد تصبح "إليزابيث" زوجةً مثاليّةً له ولكنّ المشكلة هي أنّها قبيحة يا عزيزتي آن والسيّد ميريديث، رغم كونه شارد الذّهن، إلّا أنه يقظٌ بشأن النّساء الحسناوات. وهو لا ينتمي لعالمٍ آخر حين يتعلّق الأمر بذلك، صدّقيني."

قالت سوزان بتوعّد: "إنّ "إليزابيث كيرك" إنسانةٌ دمثة الأخلاق، ولكنّني سمعت أنّ النّاس كانوا على وشك التجمّد من البرد في سرير غرفة والدتها الإضافيّة من قبل يا زوجة الطّبيب العزيزة. لو أنّني شعرت أنّ لي أدنى حقٍّ في إبداء رأي إزاء مسألةٍ جدّيّةٍ كزواج كاهن فأنا أرى أنّ سارة قريبة إليزابيث من الميناء قد تكون زوجةً أفضل للسيّد ميريديث."

قالت الآنسة كورنيليا وكأنّ سوزان قد اقترحت هوتنتوتية كعروسٍ

للدّير: "لم؟! إنّ سارة كيرك ميثوديّة."

ردّت سوزان: "على الأرجح أنّها ستصبح من الأسقفيّة إن تزوّجت السيّد ميريديث."

هزّت الآنسة كورنيليا برأسها. ومن الجليّ أنّه بالنّسبة إليها سيبقى الميثوديّون ميثوديّين.

وقالت بإيجابيّة: "زواجه من "سارة كيرك" غير واردٍ على الإطلاق وكذلك "إيميلين درو" رغم أنّ عائلة "درو" تسعى جميعها للمنافسة، إنّهم ينخرون في رأس "إيميلين" المسكينة التي لا تملك أدنى فكرة عمّا يحدث."

قالت سوزان: " لا بدّ لي من القول أنّ "إيميلين درو" لا تملك من النّباهة شيئًا يا زوجة الطّبيب العزيزة إنّها من نوع النّساء اللّواتي يضعن قنّينة مياهٍ ساخنة في سرير المرء في إحدى اللّيالي القارصة، ثمّ تؤذي مشاعرهنّ إن لم يكن ممتنًّا لهنّ. كما أنّ والدتها كانت مدبّرة منزلٍ سيّئة. أسبق لك أن سمعت بقصّتها مع فوطة الصّحون؟ لقد فقدت تلك الفوطة ذات يوم ولكنّها وجدتها في اليوم التّالي. آه أجل يا زوجة الطّبيب العزيزة، وجدتها داخل الإوزّة على مائدة العشاء، مختلطةً بالحشوة. أتظنّين أنّ امرأةً كتلك قد تصلح لتكون حماة الكاهن؟ أشكّ في ذلك. ولكن لا شكّ في أنّه من الأفضل لي أن أشغل نفسي في ترقيع سروال جيم الصّغير. لقد مزّقه بشكلٍ مشينٍ في وادي قوس المطر اللّيلة الماضية."

سألت آن: "أين والتر؟"

"أخشى أنّ تصرّفاته كانت وبيلةً في الآونة الأخيرة يا زوجة الطّبيب العزيزة. إنّه في الأتيكيّة يكتب شيئًا ما في كتاب التّمارين. أخبرني معلّمه بأنّه لم يبلِ حسنًا في الحساب كما ينبغي في هذا الفصل. ولعلّني أعلم سبب ذلك تَمام العلم. فقد كان منهمكًا في نظم القوافي السّخيفة

بدل انشغاله في حلّ المسائل الحسابيّة. أخشى أنّ ذلك الفتى سيغدو شاعرًا يا زوجة الطّبيب العزيزة."

"إنّه شاعرٌ الآن بالفعل يا سوزان."

"أنت تأخذين الأمر برويّةٍ حقًّا يا زوجة الطّبيب العزيزة. أظنّ أنّ هذه هي الطّريقة الأفضل حين يتمتّع المرء بالقوّة. كان لي عمٌّ ابتدأ كونه شاعرًا ثمّ انتهى به المطاف في أن أصبح متشرّدًا. كانت عائلتنا تشعر برهيبٍ من العار بسببه."

قالت آن مقهقهة: "لا يبدو لي أنّك تقدّرين الشّعراء يا سوزان."

سألت سوزان باندهاشٍ شديد: "ومن يفعل يا زوجة الطّبيب العزيزة؟"

"ماذا عن "ميلتون" و"شكسبير"؟ ماذا عن شعراء الكتاب المقدّس؟"

"سمعت أنّ "ميلتون" لم يتمكّن من التّفاهم مع زوجته، أمّا "شيكسبير" فقد كان جديرًا بالتّقدير في أيّامه ليس إلّا. أمّا بالنّسبة للإنجيل، فالأمور كانت مختلفةً بالطّبع في تلك الأيّام المقدّسة على الرّغم من أنّني لم أقدّر "كينج دايفيد" في حياتي، فلتقولي ما شئت. أنا لم أسمع عن أيّ فائدةٍ تنجم عن نظم الشّعر وأنا آمل وأصلّي أن يتخطّى ذاك الطّفل المبارك هذا الميول. وإن لم يفعل، فسوف نرى أيّ مستحلب من زيت السّمك قد ينفع."

***

8
تدخّل الآنسة كورنيليا



في اليوم التّالي، نزلت الآنسة كورنيليا إلى الدّير واستجوبت ماري التي روت قصّتها ببساطةٍ وصدقٍ دون تذمّرٍ أو تبجّح كونها فتاة تتمتّع بفائقٍ من الفطنة والدّهاء. أبهر ذلك الآنسة كورنيليا أكثر ممّا كانت تتوقّع، ولكنّها كانت تعلم أنّ من واجبها أن تكون حازمة.

فقالت بصرامة: "أتعتقدين أنّك أبديت امتنانك لهذه الأسرة التي عاملك أفرادها بكثير من الطّيبة واللّطف بإساءتك لإحدى صديقاتهم الصّغيرات ومطاردتها كما فعلت بالأمس؟"

اعترفت ماري بسهولة: "كان ذلك لئيمًا جدًّا منّي. لا أدري ما الذي دهاني. بدت تلك السّمكة القديمة سهلة المنال بطريقةٍ تُلام عليها حينها، ولكنّني أشعر بالأسف الشّديد، لقد أجهشت بالبكاء اللّيلة الماضية عند خلودي إلى النّوم، صدقًا فعلت. بإمكانك سؤال أونا إن شئت. ولكنّني لم أجرؤ الإفصاح عن السّبب لأنّني كنت أشعر بالعار من فعلتي، وبعدها بكت أونا أيضًا لأنّها خشيت أنّ أحدهم قد آذى مشاعري. أنا لا أملك أيّ مشاعر جديرةً بالأذى. ما يقلقني هو لمَ لم

تلاحقني السيّدة وايلي حتّى الآن، هذا ليس من عادتها."

وجدت الآنسة كورنيليا هذا الأمر غريبًا أيضًا، ولكنّها عاتبت ماري بشدّةٍ على تصرفّها كما يحلو لها بسمكات الكاهن ثمّ عادت إلى إنجلسايد لإبلاغ الآخرين.

قالت: "إن كانت قصّة تلك الطّفلة صحيحة فيجدر بنا تحرّي الأمر. أنا أعلم بعض الأمور عن وايلي تلك، صدّقيني. كان "مارشال" مقرّبًا منها حين كان يعيش في الميناء. سمعته في الصّيف الماضي يقول شيئًا عنها وعن طفلةٍ متشرّدةٍ تعيش معها، على الأرجح أنّها تلك المخلوقة ماري. قال أنّها كانت تشغل الطّفلة إلى حدّ الهلاك وتكاد لا تطعمها أو تكسوها. كما تعلمين يا عزيزتي آن لطالما كانت عادتي ألّا أتدخّل بأولئك الرّفاق من الميناء ولكن لا بدّ لي من إرسال "مارشال" إلى هناك في الغد للتحقّق من صحّة الأمر إن أمكنه، وبعد ذلك سأتحدّث إلى الكاهن. لا تؤاخذيني يا عزيزتي آن ولكنّ أطفال ميريديث وجدوها تتضوّر جوعًا في مخزن قشّ "جايمس تايلور" القديم، وكانت قد قضت ليلتها هناك تشعر بالبرد والوحدة أمّا نحن فكنّا نائمين نتمتّع بدفء أسرّتنا بعد أن ملأنا بطوننا بعشاءٍ شهيّ."

تصوّرت آن أحد صغارها الأعزّاء جائعًا ووحيدًا وبردانًا في هكذا ظروف فقالت: "يا للصّغيرة المسكينة. إن كانت تُستغلّ بشكلٍ مخزٍ يا آنسة كورنيليا، فلا يجب أن تعود إلى مكانٍ كهذا. لقد كنت يتيمةً من قبل أيضًا ومررت بالموقف نفسه."

قالت الآنسة كورنيليا: "سيتوجّب علينا استشارة أصحاب ملجأ "هوبتاون". على أيّ حال، لا يمكن تركها في الدّير. الرّب وحده يعلم ما الذي قد يتعلّمه أولئك الأطفال المساكين منها. أعلم أنّها عُرفت بالشّتم، ولكن فكّري فقط بوجودها هناك لأسبوعين كاملين والسيّد ميريديث لا يعي ذلك مطلقًا! ما شأن رجلٍ كهذا في امتلاك أسرة؟ لماذا

يا عزيزتي آن يجب أن يكون راهبًا."

عادت الآنسة كورنيليا إلى إنجلسايد بعد ليلتين.

قالت: "إنّه أمرٌ رائع! وُجدت السيّدة وايلي ميتةً في فراشها صباح اليوم التّالي الذي هربت أمسه تلك المخلوقة ماري. لقد كانت تعاني من ضعف القلب لسنوات وقد حذّرها الطّبيب أنّها ستفارق الحياة في أيّة لحظة. كانت قد أرسلت موظّفها بعيدًا وكان المنزل خاليًا، وجدها بعض الجيران في اليوم التّالي. يبدو أنّهم افتقدوا الطّفلة ولكنّهم ظنّوا لاحقًا أنّ السيّدة وايلي قد تكون أرسلتها إلى إحدى أقاربها في "شارلوت تاون" كما قالت أنّها ستفعل. لم تحضر قريبتها المأتم لذا لم يعلم أيّ أحدٍ مطلقًا أنّ ماري لم تكن برفقتها. قال "مارشال" أنّ الأشخاص الّذين تحدّث إليهم أخبروه كيف كانت السيّدة وايلي تستغلّ تلك الطّفلة، ممّا جعل دمه يغلي. فكما تعلمين، يشتاط "مارشال" غضبًا عند سماعه بطفلٍ تُساء معاملته. قالوا أنّها كانت تجلدها بوحشيّةٍ بسبب أيّ زلّةٍ أو خطأ تقترفه. تشاور بعض الرّفاق بشأن مراسلة مسؤولي الملجأ ولكنّ العمل الذي لا يُكلّف به شخصٌ معيّنٌ لا يؤخذ على محمل الجدّ ولذا لم يحصل أي من ذلك."

قالت سوزان بشراسة: "أنا متحسّرةٌ بشأن موت وايلي تلك. كنت أرغب في الذّهاب إلى الميناء لأصارحها برأيي في تجويع طفلةٍ وضربها يا زوجة الطّبيب العزيزة. كما تعلمين، أنا أسمح بالصّفع الحقّاني ولكنّني لا أتمادى أكثر من ذلك. وما الذي سيحدث لتلك الطّفلة البائسة الآن يا سيّدة مارشال إيليوت؟"

قالت الآنسة كورنيليا: "أعتقد أنّها يجب أن تعود إلى "هوبتاون". أظنّ أنّ جميع من يريدون فتاةً تخدمهم هنا في الأرجاء، يملكون واحدةً بالفعل. سأقابل السيّد ميريديث غدًا وأخبره برأيي في هذه المسألة."

بعد ذهاب كورنيليا، قالت سوزان: "لا أشكّ في أنّها ستفعل يا

زوجة الطّبيب العزيزة. فهي تتابع العمل الدّؤوب في كلّ ما تعقد العزم على فعله، حتّى وإن كان ذلك تسقيف برج الكنيسة. ولكنّي لا أفهم كيف يمكن حتّى لكورنيليا برااينت مخاطبة الكاهن كما تفعل. قد تظنّين أنّه شخصٌ عاديٌّ ليس إلّا."

بعد رحيل الآنسة كورنيليا نهضت "نان بلايث" من الأرجوحة الشّبكيّة حيث كانت ملتفّةً على نفسها تذاكر دروسها وتسلّلت إلى وادي قوس المطر، كان الآخرون هناك بالفعل. كان جيم وجيري يلعبان لعبة حلقات الرّمي بحذوات حصانٍ قديمةٍ كانا قد استعاراها من حدّاد قرية جلين. وكان كارل يلاحق النّمل فوق أكمةٍ مشمسة. أمّا والتر، فقد كان مستلقيًا على بطنه بين الخنشار يروي لكلٍّ من ماري ودي وفيث وأونا، من كتاب أساطير مذهل، قصص "بريستر جون" و"واندريج جو"، عن القضبان العرّافة، عن رجالٍ مذيّلين، عن "شامير"، عن الدّودة التي فلقت الصّخور وفتحت الدّرب لكنزٍ من الذّهب، عن جزر "فورتونيت آيل" و عن الشّاعرات البتولات. كانت صدمةً عظيمةً بالنّسبة لوالتر اكتشاف أنّ "ويليام تيل" و"جيليرت" كانا أسطورتين أيضًا، كما أنّ قصّة "بيشوب هاتو" ستكون كفيلة بإبقائه ساهرًا اللّيل بطوله. ولكنّ المفضّلة بالنّسبة إليه كانت قصص "المزماريّ الأبلق" و"سان جريل". كان يقرأها بتشوّقٍ بينما كانت الأجراس تطنطن على "الشجرتين العاشقتين" بفعل نسيم الصّيف وبينما كانت برودة ظلال المساء تزحف فوق الوادي.

قالت ماري بإعجاب حين أغلق والتر كتابه: "أخبرني، أليست تلك أكاذيب مثيرةً للاهتمام؟"

قالت دي باستياء: "إنّها ليست أكاذيب."

سألت ماري مرتابة: "أنت لا تعنين أنّها حقيقيّة، صحيح؟"

"لا ليس تمامًا. إنّها مثل قصص الأشباح خاصّتك. هي لم تكن

قصصًا صحيحةً غير أنّك لم تكوني تنتظرين منّا أن نصدّقها، لذا فهي ليست بالأكاذيب."

قالت ماري: "تلك الحكاية عن العصا العرّافة لم تكن كذبةً على أيّ حال. يمكن للعجوز "جايك كراوفورد" من الميناء استخدامها. يقصده الجميع حين يرغبون في حفر حفرة. وأعتقد أنّني أعرف "واندرينج دجو".

قالت أونا مبغوتة: "آه ماري."

"صدّقوا أولا تصدّقوا. أقبل رجلٌ عجوزٌ إلى منزل السيّدة وايلي ذات يوم. كان يبدو أنّه عاش طويلًا من السّنين لدرجة أنّه قد يكون أيّ شيء. كانت السيّدة وايلي تسأله عن مناصب الأرز الخشبيّة وإن كانت تدوم طويلًا. فأجاب: "تدوم طويلًا؟ سوف تدوم لآلاف السّنين. أنا أعلم ذلك لأنّني قمت بتجربتهم مرّتين." إن كان عمره ألفي سنة فمن يكون سوى "واندرينج دجو"؟"

قالت فيث بلا تردّد: "لا أظنّ أنّ واندرينج دجو قد يتعامل مع أمثال السيّدة وايلي."

قالت دي: "تعجبني قصّة المزماريّ الأبلق وكذلك تعجب والدتي. دائمًا ما أشعر بالأسف إزاء الفتى الصّغير المسكين والعاجز الذي لم يستطع مجاراة الآخرين وتمّ احتجازه في الجبل. لا بدّ من أنّه قد خاب أمله. وأظنّ أنّه ظلّ يتساءل لبقيّة حياته عن الأمور الرّائعة التي فاتته ويتمنّى لو أنّه استطاع الانخراط مع الآخرين."

قالت أونا بلطف: "ولكن لا بدّ من أنّ سرور والدته قد بلغ عنان السّماء. أظنّ أنّها ظلت متحسّرةً طيلة حياتها بشأنه. ولربّما كانت تذرف الدّموع بسبب ذلك. ولكنّها لن تشعر بالأسف مرّةً أخرى البتّة، أبدًا بل ستكون ممتنّة لأنّه كان عاجزًا إذ أنّها لم تخسره بفضل ذلك."

قال والتر على نحوٍ حالم محدّقًا عاليًا في السّماء: "يومًا ما، سيلوح

المزماريّ الأبلق عند الرّابية هناك، يعزف بمزماره ببهجةٍ ورخامة وينزل إلى وادي قوس المطر. وسوف ألاحقه، ألاحقه إلى الشّاطئ وتحت البحر بعيدًا عنكم جميعًا. لا أظنّ أنّني سأرغب في الرّحيل، ولكنّ جيم سيرغب في الرّحيل، ستكون تلك مغامرةً مذهلة ولكنّني لن أرغب في الرّحيل، بيد أنّني سأضطرّ لذلك. ستقوم الأنغام بمناداتي ومناداتي إلى أن يتوجّب عليّ تلبية النّداء."

صاحت دي وقد بدأ الحماس يشدّها بسبب قصّة والتر: "سنذهب جميعًا". وقد خيّل لها أنّها رأت ظلّ المزماريّ الغامض المتهكّم يتقهقر بعيدًا عند نهاية الوادي المظلمة.

قال والتر وعيناه الباهرتان تتلألآن بريقًا فاتنًا: "لا ستبقون هنا وتنتظرون. تنتظرون عودتنا. وقد لا نعود لأنّنا لا نستطيع ذلك طالما يعزف المزماريّ. قد يجعلنا نجوب العالم ورغم ذلك سوف تبقون هنا وتنتظروننا وتنتظروننا."

قالت ماري مرتعدة: "آه أعرنا صمتك ولا تبد هكذا يا "والتر بلايث". أتريدني أن أشرع بالبكاء؟ في وسعي رؤية ذلك المزماريّ المقيت يغادر وأنتم الصّبية تتبعونه بينما نجلس نحن الفتيات ننتظر بمفردنا. أنا أجهل ما خطبي، لم أكن يومًا من نوع الأشخاص البكّائين: ولكنّني دائمًا ما أرغب في البكاء بمجرّد أن تبدأ حديثك."

ارتسمت ابتسامة النّصر على وجه والتر. كان يحبّ ممارسة قوّته هذه على أترابه، اللّعب بمشاعرهم، إيقاظ مخاوفهم، إثارة أرواحهم. كان ذلك يشبع غريزةً مثيرةً ما في نفسه. ولكن خلف نصره، كان ثمّة رعشة غريبة سببها جزءٌ غامض. بدا له "المزماريّ الأبلق" حقيقيًّا للغاية وكأنّ الحجاب المرفرف الذي يخفي المستقبل قد أُزيح لبرهةٍ عند الغسق المنار بالنّجوم في وادي قوس المطر.

أعادهم مجيء كارل للإبلاغ عن الأحداث في أرض النّمل إلى

أرض الواقع.

تعجّبت ماري وهي المسرورة لتحرّرها من عبوديّة المزماريّ المبهم قائلة: "النّمل اللّعين مثيرٌ للاهتمام فعلًا. راقبت وكارل ذلك المغرس في المقبرة طيلة مساء السّبت. لم أظنّ في حياتي أنّ الحشرات مثيرةٌ إلى هذا الحدّ. ولكن اسمع، إنّها مخلوقاتٌ معربدةٌ وضيعة. يحبّ بعضها افتعال الشّجار دون أيّ سبب على حدّ علمنا وبعضها جبان، أُصيبت بالهلع لدرجة أنّها التفّت على نفسها كالكرات وسمحت لرفاقها بضربها، ولم تدافع عن نفسها البتّة. وبعضها الآخر كسولٌ ولا يعمل، لقد رأيناها وهي تصيح وثمّة نملة ماتت من الحزن لأنّ نملةً أخرى قُتلت، فلم تعد تعمل ولم تعد تأكل بل ماتت فحسب، أجل ماتت بكلّ بساطة. أقسم للرّ- أقسم لكم."

ساد صمتٌ مطبق. علم الجميع أنّ ماري لم تقصد قول "أقسم لكم" في بادئ الأمر. تبادلت فيث ودي النّظرات. بدا كلٌّ من كارل ووالتر مرتبكين وارتعشت شفة أونا.

تلوّت ماري متضايقة.

"لقد انزلقت تلك الكلمة من فمي قبل أن أفكّر، صدّقوا أو لا تصدّقوا، ثمّ إنّني ابتلعت نصفها. يبدو لي أنّكم مفرطون في الاحتشام وسريعي الحساسيّة. كان عليكم رؤية أسرة وايلي وهم يتلاسنون."

قالت فيث باحتشام لا يناسبها: "لا تتفوّه الآنسات بألفاظٍ كهذه."

همست أونا قائلة: "ذلك ليس صوابًا."

قالت ماري: "أنا لست آنسة. ما هي احتمالات أن أغدو آنسة؟ ولكنّني لن أقول ذلك ثانيةً إن استطعت. أعدكم بذلك."

قالت أونا: "ثمّ لا يمكنك أن تتوقّعي من الرّب استجابة صلواتك إن تلفّظت باسمه وكأنّه بلا قيمةٍ هكذا."

قالت ماري بإيمانٍ ضعيف: "أنا لا أنتظر منه أن يستجيب لصلواتي

في جميع الأحوال. أنا أطلب منه أن ينهي قضيّة وايلي تلك لمدّة أسبوع وهو لم يحرّك ساكنًا حتّى اللّحظة. سوف أفقد الأمل."

وهنا وصلت نان لاهثة.

"آه ماري أحمل لك أنباءً عظيمة. كانت السيّدة إيليوت عند الميناء وماذا تعتقدين أنّها اكتشفت؟ قضت السيّدة وايلي حتفها، لقد وُجدت ميتةً في سريرها الصباح التّالي لليوم الذي لذت فيه بالفرار. لذا لن تضطرّي للعودة إليها."

قالت ماري وقد فقدت الإحساس في جسدها: "ميتة!" ثمّ راحت ترتعد.

انتحبت ماري متوسّلةً لأونا وقالت: "أتعتقدين أنّ لصلاتي أيّ علاقةٍ بما حدث؟ إن كان الأمر كذلك فأنا لن أصلّي مرّةً أخرى ما حييت أبدًا. فهي قد تعود وتلاحقني."

قالت أونا مواسية: "لا لا، لا علاقة لك بذلك إذ أنّ السيّدة وايلي توفّيت قبل أن تبدئي بالصّلاة لأجل هذا الأمر حتّى."

قالت ماري مستئيبةً من هلعها: "أحقًّا؟ لقد أصبت بالهلع، صدّقوني. لن أرغب في أن أفكّر بأنّني قضيت على أحدهم بسبب صلاتي. لم يخطر في بالي شيء كموت السيّدة وايلي بينما كنت أصلّي، فهي لم تكن تبد أنّها من النوع الذي يموت. أقالت السيّدة إيليوت أيّ شيءٍ بشأني؟"

"قالت أنّه سيتوجّب عليك العودة إلى الملجأ على الأرجح."

قالت ماري بشكلٍ موحش: "كما اعتقدت. وبعدها سيعطونني لأمثال السيّدة وايلي. حسنًا، أعتقد أنّ في وسعي تحمّل ذلك فأنا فتاةٌ عنيدة.

وبينما كانت أونا وماري في طريقهما للعودة إلى الدّير، همست أونا: "سوف أصلّي كي لا تضطرّي للعودة."

قالت ماري بعزم: "فلتفعلي ما يحلو لك ولكنّني أتعهّد بعدم فعل ذلك. أنا بخير ولكنّني خائفة من قضيّة الصّلاة هذه، ألم تري ما نجم عنها؟ لو أنّ السيّدة وايلي هلكت بعد أن بدأت بالصّلاة لكانت تلك فعلتي."

قالت أونا: "هذا غير صحيح. أتمنّى لو أنّني أستطيع أن أشرح لك الأمور بطريقةٍ أفضل. قد يستطيع والدي فعل ذلك لو تحدّثت إليه يا ماري."

"لن يحدث ذلك. أنا باختصار لا أدري كيف أتعامل مع والدكم. فهو يمرّ بي في وضح النّهار ولا يراني. أنا لست متكبّرة ولكنّني لست ممسحة أرجلٍ أيضًا."

"آه ماري والدي هكذا بطبعه، فهو لا يرانا أيضًا في معظم الأوقات. إنّه غارقٌ في التّفكير، هذا كلّ ما في الأمر. وسوف أصلّي كي يبقيك الرّب في فورويندز لأنّني أحبّك يا ماري."

قالت ماري: "حسنًا ولكن لا تدعيني أسمع بموت مزيدٍ من الأشخاص على حساب ذلك. أودّ البقاء في فورويندز فأنا أحبّ هذا المكان وأحبّ الميناء وأحبّ المنارة وأحبّكم أنتم وأطفال أسرة بلايث. أنتم أصدقائي الوحيدون وأكره أن أفارقكم."

***

9
تدخّل أونا



قابلت الآنسة كورنيليا السيّد ميريديث، الأمر الذي أثبت شيئًا صادمًا لذلك الرّجل التّائه. فقد وضّحت له، بغير فائق الاحترام، تقصيره في مسؤوليّته لسماحه لمتشرّدةٍ من أمثال ماري فانس بالوفود إلى أسرته ومعاشرة أطفاله دون معرفة أو محاولة معرفة أيّ شيءٍ بشأنها. "

واختتمت حديثها قائلة: "أنا لا أقصد أنّها تسبّبت بالكثير من الأضرار بالطّبع. فتلك المخلوقة ماري ليست شرّيرةً في نهاية المطاف. كنت أستجوب أطفالك وأطفال أسرة بلايث وما فهمته هو أنّنا لا يمكننا أن نلوم الطّفلة على شيءٍ باستثناء أنّها مبتذلة وأنّ حديثها يفتقر للّباقة والكياسة. ولكن فكّر فيما كان ليحصل لو أنّها كانت مثل أولئك المشرّدين الذين نعرفهم. أنت تعلم ما الذي علّمته تلك المخلوقة المسكينة الصّغيرة التي كانت عند "جيم فلاج" لأطفاله وما الذي قالته لهم. "

كان السيّد ميريديث على علمٍ بالفعل وكان بصراحةٍ مصدومًا إزاء لامبالاته بالأمر.

فسأل عاجزًا: "وما الحلّ يا سيّدة إيليوت؟ لا يمكننا طرد تلك الطّفلة المسكينة. ينبغي لنا رعايتها."

"بالطّبع. لا بدّ لنا مراسلة المسؤولين في "هوبتاون" على الفور. وفي هذه الأثناء، أفترض أنّها ستمكث هنا لبعض الأيّام إلى أن يصلنا خبرٌ منهم. ولكن إبق يقظًا وأبق عينيك وأذنيك مفتوحتين يا سيّد ميريديث."

لماتت سوزان في مكانها هولًا لو أنّها سمعت الآنسة كورنيليا تعاتب كاهنًا بذاك الأسلوب، غير أنّ الآنسة كورنيليا غادرت يعلوها وهجٌ دافئ من الرّضا لإتمامها واجبها. وفي تلك اللّيلة، قام السيّد ميريديث باستدعاء ماري إلى مكتبه، فانصاعت ماري التي كانت شاحبةً من الفزع كالشّبح، غير أنّها اندهشت دهشة حياتها المسكينة المحطّمة، إذ كان هذا الرّجل الذي لطالما كانت تهابه أكثر الأشخاص الّذين عرفتهم لطفًا ورأفةً في حياتها. وقبل أن يتسنّى لها التّفكير فيما يحدث، راحت ماري تقصّ على مسامعه جميع متاعبها وحصلت في المقابل على الحنان والتفهّم الأنيس الذي لم يسبق أن تخيّلت حدوثه يومًا. غادرت ماري القاعة ووجهها وعينيها ملطّفين لدرجة أنّ أونا بالكاد عرفتها.

قالت ماري وهي تتنهد وكأنّها على وشك أن تجهش بالبكاء: "لا بأس بوالدك حين يكون يقظًا. إنّه لأسفٌ شديدٌ أنّه لا يستيقظ في أحيان أكثر. أخبرني أنّني لست الملامة في وفاة السيّدة وايلي ولكنّني يجب أن أفكّر في مزاياها الحسنة لا السيّئة. أنا أجهل ما الحسنات التي كانت تتمتّع بها باستثناء المحافظة على نظافة منزلها وصناعة الزّبدة من النّخب الأوّل. أعلم أنّني كدت أهلك ذراعيّ وأنا أنظّف أرضيّة مطبخها. ولكنّني سآخذ بكلّ ما يقوله والدك منذ اليوم."

ولكنّ ماري كانت رفيقة لعبٍ مملّة بعض الشّيء في الأيّام اللاحقة.

وقد أسرّت لأونا أنّها كلّما ازدادت تفكيرًا في عودتها إلى الملجأ ازداد مقتها للفكرة. عصرت أونا دماغها لتأتي بحلٍّ لتفادي ذلك، ولكنّ المنقذة هذه المرّة كانت "نان بلايث" باقتراحها المباغت.

"قد تأخذك السيّدة إيليوت بنفسها. فهي تملك منزلًا كبيرًا فيّاحًا ودائمًا ما يصرّ السيّد إيليوت أن تحصل على المساعدة. سيكون ذلك مكانًا رائعًا لماري ولن يكون عليها سوى أن تتأدّب."

"آه نان أتظنّين أن السيّدة إيليوت قد تأخذها؟"

قالت نان: "لا ضير في سؤالها."

في بادئ الأمر، لم تظنّ أونا أنّ في وسعها فعل ذلك، فقد كانت خجولةً لدرجة أنّ الطلب من أيّ شخصٍ إسداء معروفٍ لها كان بمثابة عذابٍ، فضلًا عن أنّها كانت تهاب السيّدة إيليوت المفعمة بالنّشاط والحيويّة إلى حدٍّ بعيد. كانت تحبّها كثيرًا وكانت تستمتع بزيارة منزلها غير أنّ قصدها لطلب تبنّي ماري فانس كان يتطلّب جرأةً تهون أمامها روح أونا مخلوعة الفؤاد.

حين وصلت رسالة المسؤولين في "هوبتاون" للسيّد ميريديث والتي تفيد بإرسال ماري إليهم دون تأخير، بكت ماري تلك اللّيلة في عليّة الدّير إلى أن غلبها النّعاس فاستجمعت أونا شجاعةً شديدة. وفي المساء التّالي، تسللّت إلى درب الميناء، سمعت ضحكاتٍ مرحةٍ قادمةٍ من وادي قوس المطر ولكنّ السّبيل لم يأخذها إلى هناك فقد كانت شاحبةً وعازمةً لدرجة أنّها لم تلحظ الأشخاص الّذين مرّت بهم كالسيّد "ستانلي فلاج" العجوز المنتفخ الذي قال أنّ أونا ستغدو شاردة الفكر كوالدها حين تكبر.

كانت الآنسة كورنيليا تعيش في منتصف الدّرب الفاصلة بين جلين ونقطة "فوروينـدز". وكان منزلها أساسًا ذا لونٍ أخضر قاتمٍ أضحى بفعل الزّمن لونًا رماديًا مائلًا للأخضر محبّبًا. وكان

"مارشال إيليوت" قد قام بغرس الأشجار وتجهيز بستانٍ من الورد وسياجٍ من الخشب الأبيض. كان مكانًا مختلفًا كلّيًا عمّا كان عليه قبل سنوات. كان يحبّ أطفال الدّير وأطفال إنجلسايد التردّد إلى هناك والتنزّه على درب الميناء القديمة، ودائمًا ما كانت تنتظرهم في نهاية المطاف جرّةٌ عارمةٌ بالكعك.

كان البحر السّديميّ يحتضن الرّمال برفقٍ بعيدًا. أبحرت ثلاث سفنٍ كبيرة مغادرةً الميناء كأنّها طيورٌ بحريّةٌ عظيمة. اقترب مركبٌ شراعيٌّ من القناة. كان عالم "فوروينذز" مغمورًا بالألوان الوهّاجة والموسيقى الهادئة وبريقٍ عجيبٍ ولا بدّ من أنّ الجميع سعداء فيه. ولكن حين استدارت أونا إلى بوّابة منزل الآنسة كورنيليا أوشكت ساقاها على خذلانها.

كانت الآنسة كورنيليا بمفردها على الشّرفة. كانت أونا تأمل أن يكون السيّد إيليوت متواجدًا هناك، إذ كان ضخمًا وودودًا ولطيفًا لدرجة أنّ وجوده قد يمنحها البسالة. جلست على المقعد الصّغير الذي أحضرته الآنسة كورنيليا وحاولت أكل الكعكة التي أعطتها إيّاها فعلقت في حنجرتها ولكنّها ابتلعتها بيأس كي لا تسيء للآنسة كورنيليا. كانت عاجزةً عن الكلام وكانت ما تزال شاحبة، بدت عيناها الزّرقاوان الكبيرتان وكأنّهما تطلبان النّجدة فاستنبطت الآنسة كورنيليا أنّ الطّفلة قد تكون في مأزق.

فسألت: "ما الذي يجول في ذهنك يا صغيرتي؟ ثمّة خطبٌ ما وذلك واضح."

ابتلعت أونا لقمة الكعك الأخيرة بزقم مستميت.

ثمّ قالت بتضرّع: "سيّدة إيليوت هلّا أخذت ماري فانس؟"

حدّقت بها الآنسة كورنيليا بذهول.

"أنا؟ آخذ ماري فانس؟ أتعنين أن أبقيها عندي؟"

قالت أونا بلهفةٍ وقد بدأت تستجمع شجاعتها الآن بما أنّ حاجز القلق قد كُسر:

"أجل أبقيها عندك، قومي بتبنّيها. آه يا سيّدة إيليوت فلتفعلي أرجوك. هي لا ترغب في العودة إلى الملجأ، إنّها تبكي كلّ ليلةٍ بسبب هذا الأمر. إنّها تخشى أن يرسلوها إلى مكانٍ قاسٍ آخر. كما أنّها فطنةٌ للغاية وليس هناك ما لا تستطيع فعله. أنا واثقةٌ من أنّك لن تندمي على أخذها."

قالت الآنسة كورنيليا وقد بدت عاجزة: "لم أفكّر بتاتًا في مثل هذا الأمر."

ناشدتها أونا قائلة: "هلّا فكّرت في الأمر؟"

"ولكنّني يا صغيرتي، لا أحتاج للمساعدة فأنا قادرةٌ على القيام بكلّ الأعمال المنزليّة هنا. كما أنّني لم أفكّر يومًا في أنّني قد أرغب في فتاةٍ مشرّدةٍ حتّى وإن احتجت للمساعدة."

انطفأ النّور في عينيّ أونا وارتعشت شفتاها. جلست على المقعد مجدّدًا وقد بدت كئيبةً من خيبة الأمل ثمّ راحت تبكي.

قالت الآنسة كورنيليا بابتئاس: "لا تبكي يا صغيرتي لا تبكي. أنا لا أقول أنّي لن آخذها ولكنّ الفكرة جديدةٌ بالنّسبة إليّ لدرجة أنّها صدمتني. ينبغي لي التّفكير مليًّا في الأمر." لم تكن تطيق أن تؤذي طفلًا أبدًا.

قالت أونا مجدّدًا: "ماري فطنةٌ للغاية."

"هذا ما سمعته. كما أنّني سمعت أنّها تشتم أيضًا. أهذا صحيح؟"

قالت أونا مرتبكة: "أنا لم أسمعها أبدًا تشتم على وجه التّحديد ولكنّني أخشى أنّها قد تفعل."

"أنا أصدّقك! وهل تقول الحقيقة دائمًا؟"

"أظنّ أنّها تفعل إلّا إذا كانت خائفةً من أن تُجلد."

"وبالرّغم من ذلك تريدينني أن آخذها؟"

انتحبت أونا قائلة: "يجب على أحدهم أن يفعل. يجب على أحدهم أن يرعاها يا سيّدة إيليوت."

قالت الآنسة كورنيليا متنهّدة: "أنت محقّة. ولربّما يكون هذا واجبي. حسنًا، سيكون عليّ أن أتحدّث إلى السيّد إيليوت بشأن هذا الأمر. لذا لا تقولي أيّ شيءٍ بخصوص ذلك بعد. فلتأخذي كعكةً أخرى يا صغيرتي."

أخذتها أونا وأكلتها بشهيّةٍ أفضل.

اعترفت أونا قائلة: "أنا مولعةٌ جدًّا بالكعك. الخالة مارثا لا تصنع أيًّا منها البتّة. ولكنّ الآنسة سوزان في إنجلسايد تفعل وفي بعض الأحيان تسمح لنا بالحصول على صحنٍ مليءٍ بها في وادي قوس المطر. أتعلمين ما الذي أفعله حينما أكون راغبةً في تناول الكعك ولا أجد أيًّا منها يا سيّدة إيليوت؟"

"لا يا عزيزتي، ما الذي تفعلينه؟"

"أخرج كتاب طهي والدتي القديم وأقرأ وصفة تحضير الكعك وغيرها من الوصفات الأخرى. إنّها تبدو شهيّةً للغاية. دائمًا ما أفعل ذلك حين أكون جائعة ولاسيّما بعد تناول "الدّيتو" للعشاء. وبعدها أقوم بقراءة وصفتيّ الدّجاج المقليّ والإوزّة المشويّة. كان في وسع والدتي طهي كلّ ذلك."

أخبرت الآنسة كورنيليا زوجها بامتعاضٍ بعد رحيل أونا: "سيموت أطفال الدّير أولئك جوعًا إن لم يتزوّج السيّد ميريديث وهو لن يفعل فما الحلّ؟ وهل علينا أن نأخذ المخلوقة ماري تلك يا "مارشال"؟"

قال "مارشال" موجزًا: "أجل فلتأخذيها."

أجابت زوجته بيأسٍ قائلة: "كالرّجال تمامًا. "فلتأخذيها" وكأنّ الأمر بتلك البساطة. هناك مئات الأمور التي ينبغي لنا أن نأخذها بعين

الاعتبار، صدّقني."

قال زوجها: "فلتأخذيها ولنفكّر في تلك الأمور لاحقًا يا كورنيليا."

وفي نهاية المطاف، أخذتها كورنيليا بالفعل ثمّ ذهبت لتعلن قرارها لأهالي "إنجلسايد" أوّلًا.

قالت آن مبتهجة: "يا له من أمرٍ عظيم. كنت آمل أن تقدمي على هذا الأمر تمامًا يا آنسة كورنيليا. أريد أن تحصل تلك الطّفلة المسكينة على مأوىً مناسب، فلقد كنت يتيمةً مشرّدة من قبل مثلها تمامًا."

ردّت الآنسة كورنيليا بكآبةٍ قائلة: "أنا لا أظنّ أنّ تلك المخلوقة ماري تشبهك أو سوف تشبهك البتّة. فهي فتاةٌ من نوعٍ آخر ولكنّها أيضًا إنسانٌ ذو روحٍ خالدةٍ تحتاج للإنقاذ. أنا أملك كتابًا دينيًّا ومشطًا صغيرًا ذو أسنان رفيعة وسوف أؤدّي واجبي تجاهها بما أنّ الأمور قد آلت إلى ما آلت إليه الآن، صدّقيني."

تلقّت ماري الأنباء بقناعةٍ مكبوحة.

وقالت: "حظّي أفضل ممّا توقّعت."

قالت نان: "سيكون عليك أن تنتبهي لألفاظك وأفعالك مع السيّدة إيليوت."

قالت أونا بقلق: "عليك ألّا تتلفّظي بالكلمات البذيئة كما تعلمين يا ماري."

ابتسمت ماري ابتسامةً عريضةً وتلألأت عيناها ببريقٍ شرّيرٍ إزاء الفكرة ثمّ قالت: "أظنّ أنّها ستموت رعبًا إن فعلت. ولكن اطمئنّي يا أونا سأكون فتاةً رزينةً منذ اليوم. وسأكون مؤدّبةً ومهذّبة."

أضافت فيث قائلة: "ولا تكذبي."

قالت ماري متذرّعة: "ولا حتّى لتفادي الضّرب؟"

صاحت دي قائلة: "لن تضربك السيّدة إيليوت أبدًا. أبدًا."

قالت ماري مرتابة: "ألن تفعل؟ إن وجدت نفسي في مكانٍ لا أُجلد

فيه فسيكون بمثابة الجنّة بالنّسبة إليّ. لا خوف من أن أنطق بالأكاذيب إذًا، فأنا لست مولعةً بذلك وأفضّل ألّا أفعل."

في اليوم السّابق لمغادرة ماري للدّير، خرج الأطفال للتّنزّه في وادي قوس المطر تكريمًا لها. وذاك المساء، أهداها كلٌّ من أطفال الدّير شيئًا بسيطًا من مقتنياتهم العزيزة إليهم كتذكار. أعطاها كارل سفينة نوح خاصّته وأعطاها جيري ثاني أفضل قيثارةٍ لديه. أعطتها فيث فرشاة شعرها الصّغيرة التي لها مرآة في الخلف والتي لطالما اعتبرتها ماري رائعة. تردّدت أونا بين إعطائها حقيبةٍ مزركشةٍ قديمة وبين صورةٍ مبهجةٍ لدانييل في عرين الأسد وفي آخر المطاف منحت ماري حريّة الاختيار. كانت ماري ترغب حقًّا في الحقيبة المزركشة ولكنّها كانت تعلم أنّ أونا تحبّها، لذا قالت:

"أعطني دانييل، أفضّل أن أحصل عليه فأنا متحيّزةٌ للأُسود. أتمنّى فقط لو أنّها التهمته لكان الأمر أكثر تشويقًا."

عندما حان وقت الخلود إلى النّوم، لاطفت ماري أونا للنّوم معها.

قالت: "ستكون هذه المرّة الأخيرة كما أنّها تمطر اللّيلة ولا أطيق النّوم في العلّيّة بمفردي حين يكون الجوّ ماطرًا عند المقبرة. أنا لا أمانع ذلك في اللّيالي الأخرى ولكنّني لا أستطيع رؤية شيءٍ في ليلةٍ كهذه باستثناء المطر المنهمر على تلك الحجارة البيضاء ويبدو صوت الرّياح عند النّافذة وكأنّ الموتى يحاولون أن يقتحموا المكان ثمّ يبكون لأنّهم لم يفلحوا."

قالت أونا بينما احتضنت ماري في السّرير في غرفة العلّيّة الصّغيرة: "أحبّ اللّيالي الماطرة وفتيات بلايث."

قالت ماري: "لا مانع لديّ في هكذا ليالٍ حين لا أكون قريبةً من المقابر. لو كنت بمفردي هنا لتورّمت عيناي من البكاء ولشعرت بوحدةٍ موحشة. أشعر بأسًى فظيعٍ لافتراقي عنكم جميعًا."

قالت أونا: "أنا متأكّدةٌ من أنّ السيّدة إيليوت سوف تسمح لك بالمجيء واللّهو معنا في وادي قوس المطر من حينٍ لآخر وستكونين فتاةً طيّبة، أليس كذلك يا ماري؟"

تنهّدت ماري قائلة: "آه سأحاول ولكنّ الأمر لن يكون بتلك البساطة، أعني أن أكون طيّبةً من الدّاخل ومن الخارج لن يكون سهلًا كما هو بالنّسبة لك. فأنت لم تمرّي بعلاقاتٍ مع مشاغبين كما فعلت."

قالت أونا مجادلةً إيّاها: "ولكن لا بدّ أنّ لأفراد أسرتك بعض المزايا الحسنة إلى جانب مزاياهم السيّئة وينبغي لك أن تتقيّدي بها وألّا تكترثي للسيّئة منها."

قالت ماري باكتئاب: "لا أظنّ أنّهم كانوا يتمتّعون بأيّ مزايا حسنة. لم أسمع بذلك قطّ. كان جدّي رجلًا ثريًّا ولكنّه كان وغدًا. لا، سوف يكون عليّ أن أبدأ مساري الخاصّ وأبذل قصارى جهدي."

"وسوف يعينك الرّبّ إن طلبت منه كما تعلمين يا ماري."

"لست واثقةً من ذلك."

"آه ماري أنت تعلمين أنّنا طلبنا إلى الرّبّ أن يجد لك مأوى وقد فعل."

ردّت ماري: "أنا لا أرى ما كانت علاقته بالأمر، كنت أنت من أقنع السيّدة إيليوت بذلك."

"ولكنّ الرّبّ هو من أقنع قلبها بأخذك. لباءت كلّ محاولاتي في إقناعها بالفشل لولا تدخّل الرّب."

اعترفت ماري قائلة: "حسنًا قد يكون له علاقةٌ بالأمر. أنا لا أكنّ ضغينةً للرّبّ يا أونا أنا مستعدّةٌ لمنحه فرصة. ولكنّني بصراحةٍ أظنّ أنّه يشبه والدك بشكلٍ رهيب فهو شارد الذّهن ولا يلحظ وجود الآخرين في معظم الأحيان غير أنّه يستيقظ أحيانًا على حين غرّة فيكون لطيفًا وحنونًا وحسّاسًا للغاية."

اندهشت أونا مرتعبةً فقالت: "آه ماري لا! الرّبّ لا يشبه والدي البتّة، أعني أنّه أفضل وأكثر لطفًا منه بآلاف المرّات."

قالت ماري: "يكفي أن يكون بلطف والدك وسيفيني ذلك بالغرض. حين كان والدك يتحدّث إليّ، أحسست وكأنّني لا أستطيع أن أكون شرّيرةً بعد الآن."

تنهّدت أونا قائلة: "أتمنّى لو تتحدّثين مع والدي بشأن الرّبّ. فهو يستطيع أن يشرح لك أفضل ممّا أفعل بكثير."

وعدتها ماري قائلة: "سأفعل ذلك في المرّة المقبلة التي يستيقظ فيها. لقد وضّح لي في تلك اللّيلة التي تحدّث فيها إليّ أنّ صلواتي لم تقتل السيّدة وايلي. وظلّ بالي مطمئنًّا منذ ذلك الوقت ولكنّني أتوخّى حذري بشأن الصّلاة وأعتقد أنّ الأسجوعة القديمة هي الأكثر أمانًا. أخبريني يا أونا يبدو لي أنّه من الأفضل أن يصلّي المرء للشّيطان عوضًا عن الرب إن كان في وسعه أن يصلّي لأيّ كان فالرب لطيف بكل الأحوال كما تقولين لذا فهو لن يؤذينا. ولكنّ ما توصّلت إليه هو أنّ الشّيطان يحتاج إلى المسايرة. أظنّ أنّ الطّريقة المثلى هي أن نخبره "أيها الشّيطان الطّيّب، لا تغويني من فضلك. دعني وشأني أرجوك. هلّا فعلت؟"

"آه لا لا يا ماري. أنا متأكّدةٌ أنّه ليس من الصّواب أن نصلّي للشّيطان. قد يزيد ذلك الطّين بلّة وقد يصبح أسوأ من أيّ وقتٍ مضى."

قالت ماري معاندة: "حسنًا بما أنّه يبدو أنّنا لن نستطيع الاتّفاق بشأن قضيّة الرب هذه، فلا جدوى من التّحدّث في هذا الأمر إلى أن نحصل على فرصة اكتشاف الحقيقة بشأنها. سأبذل قصارى جهدي بمفردي حتّى ذلك الوقت."

قالت أونا متنهّدة: "لو كانت والدتي على قيد الحياة، لأخبرتنا بكلّ شيء."

قالت ماري: "يا ليتها كانت على قيد الحياة. أنا أجهل ما الذي سيحلّ بكم أيّها الصّغار بعد رحيلي. ولكن في جميع الأحوال، حاولوا أن تبقوا المنزل مرتّبًا بعض الشّيء، فالطّريقة التي يتحدّث النّاس بها عنه مخزية. ولن تلحظي سوى أنّ والدك على مشارف الزّواج مرّةً أخرى وعندها ستقع المصائب على رؤوسكم."

ذُهلت أونا. لم تكن فكرة زواج والدها مجدّدًا قد خطرت في بالها من قبل كما أنّها لم ترق لها لذا التزمت الصّمت.

تابعت ماري قائلة: "زوجات الآباء مخلوقاتٌ مروّعة. لارتعدت خوفًا إن أخبرتك بكلّ ما أعرفه عنهنّ. كان لأطفال أسرة "ولسن" في الشّارع المقابل لمنزل وايلي زوجة أب. وقد كانت تعاملهم بالفظاعة نفسها التي كانت تعاملني بها السيّدة وايلي. سيكون الأمر مروّعًا لو أصبح لكم زوجة أب."

قالت أونا مضطربة: "واثقةٌ من أنّ ذلك لن يحصل. لن يتزوّج والدنا من امرأةٍ أخرى."

قالت ماري متطايرة: "أتوقّع أن يُستدرج لفعل ذلك. جميع العانسات يضعنه نصب أعينهنّ وليس في وسع أحدٍ إيقافهنّ. ولعلّ أسوأ ما في زوجات الأب هو أنهنّ دائمًا يحرّضن الأب على أولاده فلا يكترث لكم البتّة بعد ذلك. وقد تقنعه بأنّكم جميعًا تسيئون التّصرّف."

بكت أونا قائلة: "أتمنّى لو أنّك لم تخبريني بهذا يا ماري فقد أشعرتني بالبؤس."

قالت ماري بنبرةٍ صاحبها شيءٌ من التأسّف: "أردت أن أحذّرك فحسب. وبالطّبع والدك شارد الذّهن لدرجة أنّه قد لا يفكّر بالزّواج من جديد. ولكن من الأفضل أن تكوني مستعدّة."

بعد أن غفت ماري مطمئنّة، بقيت أونا مستلقيةً وقد جافاها النّعاس وعيناها ملوعتان من البكاء. كم سيكون مريعًا أن يتزوّج والدها من

امرأةٍ تزرع البغض في قلبه إزاءها وإزاء كلٍّ من فيث وكارل وجيري. لم تطق تحمّل ذلك، لم تطق!

لم تغرس ماري سمًّا من النّوع الذي كانت تخشاه الآنسة كورنيليا في نفوس أطفال الدّير ولكنّها بالطّبع افتعلت الأذيّة بأصفى النّوايا. غير أنّها غفت قريرة العين بينما بقيت أونا مستيقظةً والمطر ينهمر والرّياح تعول حول الدّير الرّماديّ القديم. نسي القسّ "جون ميريديث" أن يخلد إلى النّوم تمامًا إذ كان منغمسًا في قراءة قصّة حياة القدّيسة "أوجستين". كان الفجر على وشك البزوغ حينما أنهى القراءة وقرّر صعود السّلالم وفي ذهنه صراعاتٌ بين مشاكل من ألفي عامٍ منصرم. كان باب غرفة الفتيات مفتوحًا فرأى فيث نائمةً وبدت جميلةً ومتورّدة، تساءل عن مكان أونا. لربّما ذهبت لتمضية اللّيل بطوله مع فتيات بلايث، إذ كانت تفعل ذلك بين الفينة والفينة باعتبارها متعةً لا توصف. تنهّد "جون ميريديث" فقد أحسّ أنّ مكان تواجد أونا لا ينبغي له أن يكون أحجية بالنسبة إليه ولكانت "سيسيليا" قد انتبهت لها أفضل منه.

يا ليت "سيسيليا" ما زالت بقربه! كم كانت امرأةً حسناء وبهيجة! وكم كان الدّير القديم في "ميووتر" يصدح بصدى أغنياتها! ولكنّها رحلت دون سابق إنذار آخذةً ضحكتها وموسيقاها ولم تترك سوى السّكون، رحلت دون سابق إنذار حتّى أنّه لم يتخطّى شعور الانذهال هذا بعد. كيف استطاعت أن تموت وهي الجميلة والحيويّة؟

لم يفكّر "جون ميريديث" حقًّا بالزّواج مجدّدًا من قبل، فقد أحبّ زوجته حبًّا جمًّا حتّى أنّه كان واثقًا من أنّه ليس باستطاعته أن يعير الاهتمام لأيّ امرأةٍ أخرى. كان يظنّ أنّ فيث ستصبح راشدةً بما يكفي لتحلّ مكان والدتها قريبًا وحتّى ذلك الوقت، عليه أن يبذل قصارى جهده بمفرده. تنهّد ثانيةً واتّجه إلى غرفته حيث كان السّرير ما زال غير مرتّبًا، فقد نسيت الخالة مارثا أن تقوم بترتيبه ولم تجرؤ ماري على

ترتيبه لأنّ الخالة مارثا قد نهتها عن التدّخل بكلّ ما يخصّ غرفة الكاهن. غير أنّ السيّد ميريديث لم يلحظ أنّ السّرير كان غير مرتّب وكانت آخر أفكاره تخصّ القدّيسة "أوجستين".

***

10
فتيات الدّير ينظّفن المنزل



نهضت فيث من الفراش وقالت مرتجفة: "آخ إنّها تمطر. أنا فعلًا أكره أن تمطر يوم الأحد. وكأنّ أيّام الأحد ليست كئيبةً بما يكفي في الأيّام الصّافية."

حاولت أونا أن تهدّئ نفسها متيقّنةً أنّهما قد غرقتا في النّوم وقالت والنّعاس بادٍ في صوتها: "لا ينبغي لنا أن نجد أيّام الأحد كئيبة."

قالت فيث بصراحة: "ولكنّها الحقيقة كما تعلمين وتقول ماري فانس أنّ معظم أيّام الأحد كئيبةٌ لدرجة أنّها ترغب بشنق نفسها."

قالت أونا بندم: "ينبغي لنا أن نحبّ أيّام الأحد أكثر من ماري فانس فنحن أطفال الكاهن."

احتجّت فيث وقالت بغضب: "أتمنّى لو كنّا أطفال حدّاد، حينها لما توقّع النّاس أن نكون أفضل من الأطفال الآخرين. فلتنظري وحسب إلى الثّقوب في جواربي، لقد قامت ماري برتقها جميعها قبل مغادرتها ولكنّها باتت في حالٍ يرثى لها الآن. انهضي يا أونا فأنا لا أستطيع تحضير الفطور بمفردي. آه، أتمنّى لو أنّ والدنا وجيري كانا في المنزل.

من كان يظنّ أنّنا سنفتقد والدنا إلى هذا الحدّ، فنحن بالكاد نراه حين يكون في المنزل وبالرّغم من ذلك، يبدو كأنّ كلّ شيءٍ انتهى. عليّ أن أسرع وأتفقّد حالة الخالة مارثا."

حين عادت فيث، سألتها أونا: "هل تحسّنت حالها؟"

"كلّا، ما زالت تئنّ من ألمها. ربّما يستحسن أن نخبر الطّبيب بلايث ولكنّها ترفض ذلك فهي لم تستدع طبيبًا في حياتها وذلك لن يتغيّر الآن. فهي تقول أنّ الأطّباء يجنون قوت يومهم عبر تسميم النّاس. أتعتقدين أنّ ذلك صحيح؟"

قالت أونا بغير رضا: "لا، بالطّبع لا. أنا متأكّدةٌ من أنّ الطّبيب بلايث لا يقوم بتسميم أيّ أحد."

"على أيّة حال، سوف يتوجّب علينا أن نفرك ظهر الخالة مارثا مجدّدًا بعد الفطور ويستحسن ألّا نسخّن الكمّادات بقدر ما فعلنا بالأمس."

قهقهت فيث مستذكرةً ما حدث، فقد كانتا على وشك سلخ الجلد عن ظهر الخالة مارثا المسكينة. تنهّدت أونا، لا بدّ من أنّ ماري فانس كانت لتعلم تمامًا ما هي الحرارة المناسبة لكمّاداتٍ من أجل آلام الظّهر. كانت ماري تعلم كلّ شيء. أمّا هما فكانتا تجهلان كلّ شيء. وكيف لهما أن تتعلّما وتتجنّبا مثل الحادثة المريرة التي دفعت الخالة مارثا ثمنها؟

غادر السيّد ميريديث يوم الإثنين الفائت إلى "نوفا سكوشا" لتمضية إجازته القصيرة واصطحب جيري معه. وأصيبت الخالة مارثا يوم الأربعاء بوعكتها الغامضة المتكرّرة التي كانت تطلق عليها دائمًا اسم "المأساة"، والتي كانت أكثر ما تصيبها في الأوقات غير المؤاتية. لم تتمكّن من النّهوض من سريرها، إذ كانت كلّ حركةٍ تنمّ عن الالتياع ورفضت استقبال الطّبيب. فقامت كلٌّ من فيث وأونا بطهي الوجبات

والاعتناء بها. ومن الأفضل عدم التطرّق للحديث عن الطّهي رغم أنّه لم يكن أكثر سوءًا من طهي الخالة مارثا. ثمّة العديد من النّساء اللّواتي قد يتطوّعن لمدّ يد العون بكلّ سرور ولكنّ الخالةِ مارثا أبت أن يعلم أيّ شخصٍ بمأساتها.

وتأوّهت قائلة: "عليكما أن تصمدا حتّى أتمكّن من النّهوض، حمدًا للّه أنّ "جون" ليس هنا. ثمّة الكثير من اللّحم المسلوق البارد والخبز وفي وسعكما أن تحاولا صنع العصيدة."

وبالفعل حاولت الفتاتان ولكن باءت محاولاتهما بالفشل. كانت العصيدة سائلةً جدًّا في اليوم الأوّل وقاسيةً جدًّا في اليوم التّالي حتّى أنّها كانت تصلح لتقطّع على شكل شرائح وكانت محترقةً في كلا اليومين.

قالت فيث بضراوة: "لا أطيق العصيدة. حين أملك منزلي الخاصّ، سوف لن أدخل إليه ذرّة عصيدة."

سألتها أونا: "وماذا سيحلّ بأطفالك؟ على الأطفال تناول العصيدة وإلّا فلن ينمو. هذا ما يقوله الجميع."

ردّت فيث: "سوف يكون عليهم تدبّر أمورهم بدونها أو أن يبقوا ضعفاء. هاك يا أونا قومي بتقليبها بينما أحضّر المائدة، فسوف يحترق هذا الشّيء الكريه لو تركته دقيقةً واحدة. إنّها السّاعة التّاسعة والنّصف، سنتأخّر عن مدرسة الأحد."

قالت أونا: "لم أر أيّ شخصٍ مرّ من هنا بعد وعلى الأرجح أن لن يحضر كثيرون فالأمطار تنهمر بشدّة. ولن يأتي الكبار من مسافات بعيدة لإحضار الأطفال."

قالت فيث: "اذهبي ونادي كارل."

على ما يبدو كان كارل يعاني من ألمٍ في حلقه بسبب تبلّله في مستنقع وادي قوس المطر عند ملاحقته لحشرات اليعسوب مساء

أمس. وكان قد عاد إلى المنزل بحذاء وجوربين مبتلّين وأمضى الأمسية بهما. لم يتمكّن من تناول أيّ شيءٍ لذا أرغمته فيث على ملازمة الفراش وتركت وأونا الطاولة على حالها وغادرتا إلى مدرسة الأحد. كانت المدرسة خالية عند وصولهما ولم يحضر أيّ أحد. انتظرت الفتاتان حتّى السّاعة الحادية عشر ثمّ عادتا إلى المنزل.

قالت أونا: "لا يبدو أنّ هنالك من حضر إلى مدرسة الأحد لدى الميثوديّين أيضًا."

قالت فيث: "يسرّني ذلك. لا أحبّذ فكرة أن يكون الميثوديّون أفضل من المشيخيّين في ذهابهم إلى مدرسة الأحد في أيّام الأحد الماطرة. ولكن لا خطابة دينيّة في كنيستهم اليوم كذلك لذا على الأرجح أنّ مدرسة الأحد لديهم ستكون بعد الظّهيرة."

قامت أونا بغسل الصّحون على أتمّ وجه إذ تعلّمت الكثير من ماري فانس في حين قامت فيث بكنس الأرضيّة وتقشير البطاطا للعشاء وجُرح إصبعها خلال ذلك.

تنهّدت أونا قائلة: "أتمنّى لو كان لدينا ما نأكله للعشاء عوضًا عن "الدّيتو" فلقد سئمت تناوله. إنّ أطفال أسرة بلايث يجهلون ما هو "الدّيتو" ونحن لا نحظ بحلوى "البودينج" إطلاقًا. تقول نان أنّ سوزان قد تفقد الوعي إن لم يتناولوا "البودينج" أيّام الأحد. لم لسنا كالآخرين يا فيث؟"

ضحكت فيث بينما كانت تلفّ ضمادةً حول إصبعها النّازف قائلة: "أنا لا أريد أن أكون كالآخرين. أحبّ أن أكون نفسي فذلك أكثر إثارةً للاهتمام. إنّ "جيسي درو" ببراعة والدتها في كونها ربّة منزل ولكن أترغبين في أن تكوني بغبائها؟"

"ولكنّ منزلنا ليس جيّدًا، هذا ما تقوله ماري فانس. وتقول أيضًا أنّ النّاس يتكلّمون عن مدى فوضويته."

وهنا أُلهمت فيث بفكرة.

وصاحت قائلة: "سوف نقوم بتنظيفه كاملًا. سوف نشرع بالعمل ابتداءً من الغد. إنّها لفرصةٌ ذهبيّة بينما الخالة مارثا ملقاةٌ في فراشها ولا تستطيع التّدخّل بنا. سوف نجعل من هذا المنزل مكانًا رائعًا ومرتّبًا مع عودة والدنا، تمامًا كما كان عند مغادرة ماري فانس. يمكن لأيّ شخصٍ أن يكنس وينفض الغبار ويغسل النّوافذ. لن يتمكّن النّاس من أن يتكلّموا عنه بعد الآن. يقول "جيم بلايث" أنّ العجائز هم الوحيدون الّذين يتكلّمون ولكنّ كلامهم يجرح بقدر كلام أيّ شخص."

قالت أونا وقد اشتعلت حماسًا: "آمل أن تسير الأمور على خير ما يرام في الغد. آه يا فيث كم سيكون المنزل رائعًا إن أصبح نظيفًا كمنازل الآخرين."

قالت فيث: "أتمنّى أن تدوم مأساة الخالة مارثا طوال يوم غد وإلّا فلن نتمكّن من إنجاز أيّ شيء."

تحقّقت أمنية فيث المنشودة. ففي اليوم التّالي، كانت الخالة مارثا غير قادرةٍ على النّهوض، وكان كارل ما يزال مريضًا أيضًا واقتنع بالبقاء في سريره بسهولة. لم تملك فيث أو أونا أدنى فكرة عن شدّة مرض الفتى؛ لقامت أيّ والدةٍ متيقّظة باستدعاء الطّبيب على الفور دون تأخير ولكن لا والدة هنا وراح الصّغير كارل المسكين يتقلّب في فراشه بملابس نومه المتمعّجة يعاني بمفرده متألّم الحلق والرّأس ومحمرّ الوجنتين، وكانت تؤنسه رفقة سحليّة خضراء صغيرة في جيب ملابس نومه البالية.

غمرت أشعّة شمس الصّيف الكون عقب المطر وكان يومًا لا نظير له لتنظيف المنزل فبدأت أونا وفيث العمل بابتهاج.

قالت فيث: "سوف ننظّف حجرة الطّعام وصالة الاستقبال. لا منفعة تُرجى من التّدخل في قاعة الدّراسة ولا يهمّ الطّابق العلويّ. أوّل ما

يجب القيام به هو أن نخرج كلّ شيء."

وكما جرى التّخطيط، أُخرج كلّ شيءٍ إلى الخارج. وكُدّس الأثاث على الشّرفة وفي البستان وعُلّقت السّجادات على سياج مقبرة الميثوديّين. حاولت أونا نفض غبارها بوابلٍ من الضّربات العنيفة، في حين قامت فيث بغسل نوافذ حجرة الطّعام الأمر الذي نجم عن كسر إحدى الألواح الزّجاجيّة وتصدّع اثنين منها. راقبت أونا النّتيجة المقلقة بارتياب.

وقالت: "إنّها لا تبدو جيّدةً بطريقةٍ ما، فنوافذ كلّ من السيّدة إيليوت وسوزان تلمع وتتلألأ."

قالت فيث مبتهجة: "لا عليك، فنوافذنا تسمح بمرور أشعّة الشّمس كنوافذهما. لا بدّ من أنّها أضحت نظيفةً بعد كلّ الصّابون والمياه التي استعملتها وهذا أهمّ ما في الأمر. على أيّة حال، لقد تعدّت السّاعة الحادية عشر لذا سأقوم بمسح هذه الفوضى عن الأرضيّة ومن ثمّ سنذهب إلى الخارج. ستقومين بنفض غبار الأثاث، أمّا أنا فسأتولّى أمر السّجادات. سأقوم بفعل ذلك في المقبرة فأنا لا أريد أن أنثر الغبار فوق البستان.

استمتعت فيث بنفض السّجادات، إذ كان الوقوف على شاهد قبر "هيزيكيا بولوك" وضرب السّجادات ونفضها أمرًا مسليًّا للغاية. وممّا لا شكّ فيه أنّ الشّيخ "أبراهام كلو" وزوجته كانا يحدّقان بها باستنكار وتجهّم بينما كانا مارّين بعربتهما الفسيحة ذات المقعدين.

قال الشّيخ أبراهام مغلّظًا: "يا له من منظرٍ مريع."

وأضافت زوجته بمزيدٍ من الغلاظة قائلة: "ما كنت لأصدّق ذلك في حياتي لو لم أره بأمّ عيني."

لوّحت فيث للزّوجين بممسحة الأحذية بابتهاج. لم يساورها القلق حيال عدم ردّ الشّيخ وزوجته لتحيّتها، إذ كان الجميع يعلم أنّ الابتسامة

قد فارقت الشّيخ "أبراهام" منذ أن جرى تعيينه مديرًا تنفيذيًّا لمدرسة الأحد منذ أربعة عشر سنةٍ مضت. ولكن ما آلمها هو امتناع كلّ من"ميني" و"آديلا كلو" عن ذلك أيضًا. كانت فيث تحبّ "ميني" و"آديلا" فقد كانتا صديقتيها المفضّلتين في المدرسة إلى جانب أطفال أسرة بلايث وكانت دائمًا ما تمدّ يد العون لأديلا حين كانت تلك الأخيرة تحتاج لمساعدة في حلّ المسائل الحسابيّة. أهكذا تردّ الجميل؟ لقد قامت صديقتاها بمقاطعتها لأنّها كانت تنفض السّجادات في مقبرةٍ قديمة حيث لم يُدفن أيّ أحدٍ لأعوام كما قالت ماري فانس. جرت فيث إلى الشّرفة حيث وجدت أونا محبطةً لأنّ الفتاتين لم تلوّحا لها أيضًا.

قالت فيث: "أظنّ أنّهما غاضبتان بسبب أمرٍ ما. ربّما تشعران بالغيرة لأنّنا نمضي الكثير من الوقت في اللّهو مع أطفال أسرة بلايث في وادي قوس المطر. انتظري حتّى تفتح المدرسة أبوابها وتطلب منّي "أديلا" أن أريها كيف تحلّ مسائل الحساب، حينها سنردّ لهنّ الدّين. هيّا فلنعيد الأثاث إلى الدّاخل. أنا منهكة حدّ الموت ولا أظنّ أنّ الغرف ستبدو في حالٍ أفضل بكثير ممّا كانت عليه قبل أن نبدأ، لقد قمت بنفض مكاييل من الغبار في المقبرة. أنا أكره تنظيف المنزل."

كانت السّاعة الثّانية ظهرًا عندما انتهت الفتاتان المتعبتان من تنظيف الغرفتين وتوجّهتا بعد ذلك إلى المطبخ لتناول شيءٍ ما ونويتا أن تقوما بغسل الصّحون مباشرةً. غير أنّ فيث قد تناولت كتابًا قصصيًّا كانت "دي بلايث" قد أعارتها إياه واسترسلت في مطالعته حتّى مغيب الشّمس. أخذت أونا كأسًا من الشّاي لـكارل ولكنّها وجدته نائمًا فالتفّت على نفسها في سرير جيري وخلدت إلى النّوم. وفي تلك الأثناء، انتشرت قصّةٌ غريبة في أرجاء قرية "جلين سانت ماري" وتساءل النّاس ما الذي ينبغي فعله حيال صغار الدّير.

قالت الآنسة كورنيليا لزوجها مطلقةً تنهيدةُ عميقة: "لم يعد الأمر مزحةً صدّقني. أنا لم أصدّق ذلك في بادئ الأمر. أتت "ميرندا درو" بالخبر من مدرسة الأحد لدى الميثوديّين هذا المساء فتجاهلتها ببساطة ولكنّ زوجة الشيخ "أبراهام" قالت أنّها وزوجها قد شاهدا ذلك بأمّ أعينهم.

قال "مارشال": "وما الذي شاهداه؟"

قالت الآنسة كورنيليا مستيئسة: "أنّ فيث و"أونا ميريديث" تغيّبتا عن مدرسة الأحد وقامتا بتنظيف المنزل، لقد رآهما الشّيخ "أبراهام" وهما تنفضان غبار السّجادات في مقبرة الميثوديّين وهو في طريق عودته من الكنيسة فقد اضطرّ إلى أن يتأخّر هناك قليلًا لأنّه كان يرتّب الكتب في المكتبة. لن أتمكّن من النّظر إلى وجه أحد الميثوديّين بعد اليوم، فلتفكّر وحسب بالفضيحة التي سوف يسببها مثل هذا الخبر."

وبالفعل، تسبّب الخبر بفضيحةٍ ازدادت وطأتها حين بلغ الخبر مسامع النّاس من خارج الميناء أنّ فتاتيّ الدّير قامتا بأعمال التّنظيف المنزليّة يوم الأحد وليس ذلك وحسب بل انتهى بهما المطاف بالتّنزّه في المقبرة في حين كانت الدّروس في مدرسة الأحد لدى الميثوديّين قائمة. وبقي الدّير نفسه هو المنزل الوحيد الذي تنعّم أهله في جهلهم لهذا الأمر المريع. هطلت الأمطار مجدّدًا في يومٍ حسبته كلٌّ من فيث وأونا يوم الثّلاثاء؛ هطلت الأمطار لثلاثة أيّام متتالية؛ لم يقترب أحدٌ من الدّير ولم يخرج أطفال الدّير إلى أيّ مكان. لكانوا ذهبوا إلى وادي قوس المطر الضّبابي في إنجلسايد ولكنّ أسرة بلايث جميعهم، باستثناء سوزان والطّبيب قد غادروا لزيارة "أفونلي".

قالت فيث: "هذا آخر ما تبقّى لدينا من الخبز وقد نفذ "الدّيتو". ما الذي سنفعله إن لم تتحسّن حال الخالة مارثا؟"

أجابت أونا: "يمكننا شراء بعض الخبز في القرية وهناك أسماك

البكلاء التي قامت ماري بتجفيفها ولكنّنا لا نعلم كيف نطهوها."

ضحكت فيث قائلة: "آه هذا سهل، علينا أن نسلقها وحسب."

وهذا ما فعلتاه ولكنّها كانت مالحةً للغاية وغير سائغة للأكل ذلك أنّه لم يخطر لهما أن تنقعاها قبل ذلك. كانت الفتاتان تتضوّران جوعًا تلك الّليلة، ولكنّ اليوم التّالي بدّد همومهما، عادت أشعّة الشّمس تعانق الكون واسترجع كارل عافيته كما شفيت الخالة مارثا من مأساتها وجاء اللّحام بزيارةٍ إلى الدّير وطرد بذلك الجوع. ولتكتمل الفرحة، عادت أسرة بلايث إلى المنزل فالتقوا من جديد مع أطفال الدّير وماري فانس عند المغيب في وادي قوس المطر حيث تراقصت الأقحوانات فوق الأعشاب وكأنّها أرواح قطرات النّدى، وطنطنت أجراس "الشّجرتين العاشقتين" كأنغام الجنّيّات عند الغسق العطر.

***

11
اكتشافٌ مروّع



"لقد جنيتم على أنفسكم الآن يا رفاق."

كانت هذه تحيّة ماري بينما رافقتهم إلى الوادي. كانت الآنسة كورنيليا قد عقدت اجتماعًا سريًّا في إنجلسايد مع آن وسوزان وكانت ماري تأمل أن تدوم الجلسة طويلًا فقد مرّ أسبوعان كاملان منذ أن أُذن لها بالمرح مع أصحابها في وادي قوس المطر المحبّب.

تساءل الجميع باستثناء والتر الذي كان شارد الفكر كعادته: "وما الذي فعلناه؟"

قالت ماري: "أنا أعنيكم أنتم يا صغار الدّير. من الفظيع أن يصدر عنكم مثل هذا الفعل. حتّى أنا ما كنت لأقوم بأمرٍ كذلك ولو كانت نهاية العالم، وأنا لم أتلقّ التّربية في دير، أنا لم أتلقّى التّربية على الإطلاق في أيّ مكان بل نشأت بمفردي."

سألت فيث بانشداه: "وما الذي فعلناه نحن؟"

"ما الذي فعلتموه؟ أوتجرؤون على السّؤال؟ عليكم أن تسمعوا الأحاديث المروّعة التي يتداولها الجميع بهذا الشّأن، أتوقّع أنّكم قد شوّهتم سمعة والدكم بين رعايا الكنيسة. يا للرّجل المسكين! لا بدّ من

أنّه لن يتمكّن من تناسي الأمر طيلة حياته. الجميع يلقون اللّوم عليه وذلك ليس عادلًا، ولكن لا شيء عادلٌ في هذا العالم. عليكم أن تخجلوا من أنفسكم."

سألت أونا مجدّدًا بهلع: "ما الذي فعلناه؟" لم تنبس فيث ببنت شفة ولكنّها حدّقت بماري بازدراء.

قالت ماري منذهلة: "لا تدّعوا البراءة. يعلم الجميع بما فعلتم."

تدخّل جيم بلايث وقال بنقم: "أنا لا أعلم. إيّاك والتّسبّب في بكاء أونا على مرأى منّي يا ماري فانس. ما الذي تتحدّثين عنه؟"

قالت ماري وقد بدا الخضوع في صوتها: "أظنّ أنّكم تجهلون ما حدث بما أنّكم عدتم لتوّكم من زيارتكم. ولكنّ الآخرين يعلمون جميعًا. من الأفضل لكم أن تصدّقوا ذلك."

"ما الذي يعلمونه؟"

"أنّ فيث وأونا قد تغيّبتا عن مدرسة الأحد وقامتا بتنظيف المنزل."

صاحت كلٌّ من فيث وأونا بانفعال ناكرتين: "نحن لم نفعل."

نظرت إليهما ماري بتغطرسٍ ثمّ قالت: "لم أفترض أنّكما سوف تنكران الأمر بعد أن كنتما أنتما من تردعانني عن الكذب. ما الجدوى من قولكما أنّكما لم تفعلا؟ فالجميع يعلم أنّكما فعلتما. لقد رآكما الشّيخ "كلو" وزوجته، ويقول البعض أنّ ذلك قد يفسخ الكنيسة ولكنّني شخصيًّا ما كنت لأتمادى إلى هذا الحدّ فأنتم أشخاصٌ طيّبون بالفعل."

وقفت "نان بلايث" ووضعت ذراعيها حول الفتاتين المذهولتين.

"كانتا طيّبتان بما فيه الكفاية لاستقبالك في منزلهما وإطعامك وكسائك حين كنت تتضوّرين جوعًا في زريبة السيّد "تايلر". لا بدّ لي من القول أنّك ممتنّةٌ للغاية."

ردّت ماري: "أنا ممتنّةٌ بالفعل. ما كنت لتقولي هذا لو رأيت كيف

دافعت عن السيّد ميريديث في العسر وفي اليسر. لقد انبرى لساني وأنا أحاول أن أقنع الجميع، لقد أخبرتهم مرارًا وتكرارًا بأنّه ليس الملام إن كانت صغيرتيه قد قامتا حقًّا بتنظيف المنزل يوم الأحد، فقد كان متغيّبًا، أمّا هما فأكثر وعيًا من ذلك."

احتجّت أونا قائلة: "ولكنّنا لم نفعل. كان يوم الإثنين حين قمنا بتنظيف المنزل، أليس كذلك يا فيث؟"

قالت فيث بنظراتٍ متّقدة: "أجل بالطّبع كان كذلك. لقد ذهبنا إلى مدرسة الأحد على الرّغم من أنّ الجوّ كان ماطرًا ولم يحضر أيّ أحد ولا حتّى الشّيخ "أبراهام" رغم حديثه الدّائم عن المسيحيّين المنافقين."

قالت ماري: "هطلت الأمطار يوم السّبت أمّا يوم الأحد فقد كان الجوّ صافيًا. أنا لم أحضر إلى مدرسة الأحد لأنّني كنت أعاني من الضّراس ولكنّ الآخرين حضروا جميعًا ورأوا جميع أثاثكم في البستان. ورآكما الشّيخ "أبراهام" وزوجته تنفضان غبار السّجادات في المقبرة."

جلست أونا بين زهور الأقحوان وراحت تبكي.

قال جيم بعزم: "حسنًا ينبغي لنا أن نوضّح الأمور. لقد اقترف أحدهم خطأً ما. كان الجو صافيًا يوم الأحد بالفعل يا فيث. كيف لك أن تحسبي يوم السّبت هو يوم الأحد؟"

صاحت فيث: "حدث اجتماع الصّلاة ليلة الخميس. وارتطم "آدم" بقدر الحساء يوم الجمعة حين لاحقه قطّ الخالة مارثا وأفسد عشاءنا؛ أمّا يوم السّبت فكان هنالك أفعى في القبو فأخرجها كارل بواسطة عصًا متشعّبة وهطلت الأمطار يوم الأحد، وهاكم الأمر!"

قالت ماري: "حدث اجتماع الصّلاة ليلة الأربعاء. كان الشّيخ "باكستر" هو المسؤول هذه المرّة ولم يستطع أن يحضر يوم الخميس لذا عُقد الاجتماع يوم الأربعاء عوضًا عن ذلك. لقد أغفلت يومًا يا

"فيث ميريديث" لذا فقد عملتما حقًّا يوم الأحد"

وفجأةً انفجرت فيث ضاحكة.

"أعتقد أنّك محقّة. يا لها من دعابة!"

قالت ماري بتجهّم: "ولكنّها ليست دعابةً بالنّسبة لوالدكما."

قالت فيث: "سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام حين يكتشف النّاس أنّ الأمر كان خطأً ليس إلّا. سوف نوضّح لهم موقفنا."

قالت ماري: "في وسعكما أن توضّحا إلى أن تخور قواكما ولكن لا يمكنكما أن تجاريا السّرعة التي تنتشر بها مثل هذه الكذبة. أنا مطّلعةٌ بهذا العالم أكثر منكما وأعلم ما أقوله. ثمّ إنّ هنالك العديد من النّاس الذين لن يصدّقوا أنّ ما حدث كان مجرّد خطأ."

قالت فيث: "سوف يصدّقون إن أخبرتهم بنفسي."

قالت ماري: "لا يمكنك أن تخبري الجميع. أنا أؤكّد لك أنّكما جلبتما العار لوالدكما."

أُفسد هذا التّفكير الكئيب أمسية أونا غير أنّ فيث أبت أن تنزعج فقد كانت تملك خطّةً لإصلاح الأمور وإعادة المياه إلى مجاريها. لذا رمت الماضي بأخطائه وراء ظهرها وسلّمت نفسها للاستمتاع بالحاضر. غادر جيم للصّيد، أمّا والتر فقد أفاق من أحلامه وراح يصف أحراج الجنّة. صرّت ماري أذنيها وأصغت باحترام، فقد كانت تستمتع بحديث كتب والتر بالرّغم من رهبتها من الفتى. فقد كان دائمًا يمنحها شعورًا عذبًا. وكان والتر يقرأ إحدى أشعار "كولريدج" ذلك اليوم، فتخيّل جنّة

"حيث الحدائق المشمسة والسّواقي المتعرّجة
حيث تزهر الأشجار العابقة بطيب البخور
وحيث الغابات القديمة كالتّلال
تحتضن بقعًا خضراء مشمسة."

قالت ماري وقد تنفّست الصّعداء: "لم أكن أعلم أنّ هنالك أحراجٌ

في الجنّة. كنت أظنّ أنّها كانت لا تحتوي سوى على الشّوارع والشّوارع والشّوارع."

قالت نان: "بالطّبع هناك أحراجٌ في الجنّة. لا تستطيع والدتنا أن تعيش بلا أشجار والأمر نفسه ينطبق عليّ، ما نفع الذّهاب إلى الجنّة إن لم يكن هنالك أيّة أشجار؟"

قال الحالم الصّغير: "هنالك مدنٌ أيضًا. مدنٌ باهرةٌ تتلوّن بألوان المغيب، فيها أبراجٌ من الياقوت وقببٌ من أقواس المطر مبنيّةٌ من الذّهب والألماس، شوارعٌ كاملة من الألماس تتوهّج كالشّمس. وفي السّاحات ينابيع كريستاليّة يقبّلها النّور، وفي كلّ مكان تزهر أزهار البرواق، أزهار الجنّة."

قالت ماري: "كم هذا فاخر! لقد رأيت الشّارع الرّئيسي في "شارلوت تاون" ذات مرّة وظننته واسعًا حقًّا ولكنّني أعتقد أنّه لا يقارن بما في الجنّة. حسنًا، يبدو كلّ شيءٍ غايةً في الجمال كما وصفته ولكن ألا تعتقد أنّ ذلك قد يكون مملًّا بعض الشّيء أيضًا؟"

قالت فيث بارتياح: "آه، أظنّ أنّ في وسعنا أن نحظى ببعض المرح حين تدير الملائكة ظهورها."

قالت دي: "الجنّة مليئةٌ بالمرح."

صاحت ماري: "ولكنّ الكتاب المقدّس لا يقول ذلك." فقد كانت ماري قد قرأت الكتاب المقدّس كثيرًا بعد ظهيرة أيّام الأحد تحت رقابة الآنسة كورنيليا حتّى أصبحت تحسب نفسها مرجع ثقةٍ في هذه الأمور.

قالت نان: "تقول والدتنا أنّ لغة الكتاب المقدّس هي لغةٌ مجازيّة."

سألتها ماري متأمّلة: "أيعني ذلك أنّ هذا الكلام غير صحيح؟"

"لا، ليس تمامًا. ولكنّني أظنّ أنّ ذلك يعني أنّ الجنّة ستكون تمامًا كما ترغبينها في أن تكون."

قالت ماري: "أرغب في أن تكون تمامًا كوادي قوس المطر حيث

يمكنني أن ألهو وأمرح معكم جميعًا يا رفاق. هذا يكفيني. على أيّ حال، ليس في وسعنا الذّهاب إلى الجنّة إلى أن نقضي حتفنا وربّما لا نفعل حينها حتّى، لذا فما الدّاعي للقلق؟ ها قد عاد جيم مع خيطٍ من أسماك السّلمون المرقّط وحان دوري لقليها."

قالت أونا في طريق العودة إلى المنزل تلك اللّيلة: "ينبغي لنا أن نعلم عن الجنّة أكثر من والتر فنحن ننتمي إلى أسرة الكاهن."

قالت فيث: "نحن نعلم بقدر ما يعلمه ولكنّ والتر يتمتّع بخيالٍ خصب. تقول السيّدة إيليوت أنّه ورث ذلك عن والدته."

تنهّدت أونا قائلة: "ما زلت أتمنّى لو أنّنا لم نقترف ذلك الخطأ بشأن يوم الأحد."

قالت فيث: "لا تقلقي حيال هذا الأمر. لقد خطرت في بالي خطّة عظيمة لتوضيح موقفنا حتّى يعلم الجميع. انتظري حتّى ليلة الغد فحسب."

***

12
توضيحٌ وتحدٍّ



في المساء التّالي، ألقى القسّ الطّبيب "كوبر" خطابًا دينيًّا في "جلين سانت ماري" وكانت كنيسة المشيخيّين مكتظّةً بالنّاس من بعيدٍ وقريب. وكان يُذاع عن القسّ الطّبيب أنّه كان ذرب اللّسان، فألقى خطابًا تثقيفيًا مبهرًا، واضعًا نصب عينيه القول المأثور الذي يفيد بأنّه ينبغي على الكاهن أن يأخذ أفضل ملابسه إلى المدينة وأفضل عظاته إلى الرّيف. ولكن حين عاد النّاس إلى منازلهم تلك اللّيلة، لم يتطرّقوا في أحاديثهم إلى عظة الطّبيب "كوبر"، بل نسوا أمره تمامًا.

أنهى الطّبيب "كوبر" خطابه بنداءٍ حارّ، ثمّ مسح العرق عن جبينه الواسع وقال "هيّا بنا نصلّي"، وكان قد اشتهر بقوله هذا، ثمّ صلّى كما ينبغي. كانت كنيسة "جلين سانت ماري" تتّبع الطّريقة القديمة التي تقضي بتحصيل المال بعد الخطابة عوضًا عن قبلها، ذلك أنّ الميثوديّين كانوا السّبّاقين إلى اتّباع الطّريقة الجديدة أوّلًا وأبى الشّيخ "كلو" والآنسة كورنيليا أن يتّبعا مثال الميثوديّين. وكان كلٌّ من "تشارلز باكستر" و"توماس دوغلاس" المكلّفين بتمرير الأطباق على وشك النّهوض. كان عازف الأرغن قد جهّز موسيقى التّرانيم واستعدّت

الجوقة للتّرتيل وإذ بفيث ميريديث تنهض من مقعدها وتسير نحو المنبر وتواجه جمهور الحاضرين المذهولين.

أوشكت الآنسة كورنيليا على النّهوض من مقعدها ثمّ تراجعت عن ذلك موقنةً أنّه مهما كانت فيث تخطّط لفعله أو قوله فإنّها ستنجزه قبل وصولها إليها فقد كان مقعدها في الصّفوف الأخيرة. ولا جدوى من تأزيم الأمور أكثر ممّا ينبغي. ألقت الآنسة كورنيليا نظرةً خاطفةً إلى زوجة الطّبيب بلايث ونظرةً أخرى إلى "ديكون وارين" من كنيسة الميثوديّين وجهّزت نفسها لفضيحةٍ أخرى.

وتأوّهت في قرارة نفسها قائلة: "لو أنّ تلك الطّفلة كانت متأنّقةً وحسب."

كانت فيث قد ألقت الحبر على ثوبها الأنيق لذا ارتدت سرًّا ثوبًا قديمًا ذا لونٍورديٍّ باهت رُتق شقّ تنّورته بقطنٍ أحمر وتُرك طرفها متدليًّا حيث ظهر خيطٌ ورديٌّ لم يبهت لونه بعد. ولكنّ فيث لم تكن تكترث لملابسها على الإطلاق فقد أصابها التوتّر فجأة. فالأمور التي كانت تخالها سهلةً للغاية في ذهنها كانت صعبةً إلى حدٍّ ما في أرض الواقع.

كادت فيث تفقد رباطة جأشها حينما جابهت تساؤل كلّ تلك العيون المحدّقة. كانت الأنوار ساطعةً جدًّا وكان الصّمت رهيبًا. ظنّت لوهلةٍ أنّها لن تتمكّن من النّطق على الإطلاق. ولكنّها لم تملك الخيار في ذلك، ينبغي لها أن تحرّر والدها من الشّكوك المحيطة به، غير أنّ كلماتها كانت على وشك أن تخونها.

لاح لها وجه أونا الصّافي المنير والتي كانت تناشدها من مقعدها وكان أطفال أسرة بلايث قد قضوا العجب منها. رأت فيث رأفة الآنسة روزماري في أواخر صفوف الجمهور واستمتاع الآنسة إيلين. ولكن لم يسعفها أيٌّ من ذلك بل كان "بيرتي شكسبير درو" من أنقذ الوضع.

كان "بيرتي شكسبير" قد اتّخذ مقعدًا له في صفوف الجمهور الأماميّة وأبدى لـفيث ملامح وجهٍ تهكّميٍّ ساخرٍ فردّت الأخيرة بملامح مريعةٍ على الفور. وبينما كانت في أوجّ غضبها بسبب تجهّم "بيرتي شكسبير"، نسيت رهاب المسرح الذي أصابها، فوجدت صوتها الضائع وتحدّثت بشجاعةٍ ووضوح.

فقالت: "أودّ أن أوضّح أمرًا ما، وأودّ أن أقوم بذلك الآن لأنّ الجميع سوف يتمكّن من السّماع. يقول النّاس أنّني وأونا بقينا في المنزل يوم الأحد الفائت، وقمنا بتنظيف المنزل بدلًا من الذّهاب إلى مدرسة الأحد. في الواقع، لقد فعلنا ولكنّنا لم نتعمّد ذلك. لقد اختلطت علينا أيّام الأسبوع. والشّيخ "باكستر" هو الملام في ذلك لأنّه غيّر يوم اجتماع الصلاة إلى ليلة الأربعاء لذا حسبنا يوم الخميس هو يوم الجمعة وهكذا حتّى حسبنا أنّ يوم السّبت هو يوم الأحد. كان كارل مريضًا في سريره وكذلك الخالة مارثا لذا لم يتمكّنا من تصحيح تفكيرنا. لقد ذهبنا إلى مدرسة الأحد تحت تلك الأمطار يوم السّبت ولم يحضر أيّ أحد، وبعدها فكّرنا في تنظيف المنزل يوم الإثنين كي يقلع العجائز عن التّحدث عن مدى قذارة الدّير وهذا ما فعلناه. لقد قمت بنفض غبار السّجادات في مقبرة الميثوديّين، ليس لأنّني قصدت أن أقلّل من احترام الموتى بل لأنّني وجدتها مكانًا ملائمًا. ولم يكن الأموات هم من أثاروا الهرج والمرج حيال ذلك بل كان الأحياء. ولا يحقّ لأيٍّ منكم أن يلقي اللّوم على والدي فيما حدث، لأنّه كان متغيّبًا ولم يعلم بالأمر وكنّا نظنّ أنّه يوم الإثنين على أيّ حال. والدنا هو أفضل والدٍ في العالم بأسره ونحن نحبّه من كلّ قلوبنا."

انحسر تظاهر فيث بالشّجاعة بإجهاشها بالبكاء ثمّ نزلت السّلالم وغادرت بسرعة البرق من باب الكنيسة الجانبيّ. آنستها ليلة الصّيف المضاءة بالنّجوم فسكن الألم في عينيها وحلقها وشعرت بسعادةٍ

غامرة. انتهى التّوضيح المروّع وبات الجميع يعلم الآن أنّ والدها ليس الملام فيما حصل وأنّها وأونا لم تكونا آثمتين لدرجة أن تقوما بتنظيف المنزل يوم الأحد عن دراية.

راح النّاس يحدّقون ببعضهم البعض بانذهال في الكنيسة ولكنّ "توماس دوغلاس" نهض وسار نحو جناح الكنيسة بوجهٍ جادّ. كانت مهمّته واضحة وهي جباية المال ولو طبقت السّماء على الأرض. وهذا ما فعله. قامت الجوقة بإنشاد التّرانيم بكآبة استشعار الإثم ففشلت فشلًا ذريعًا وقام الطّبيب "كوبر" بإلقاء التّراتيل الختاميّة ومنح البركة باستمتاع شديد على غير عادته. كان القسّ الطّبيب يتمتّع بحسّ الفكاهة وقد أبهجه أداء فيث وعلى أيّة حال كان "جون ميريديث" بعيد الصّيت بين المشيخيّين.

عاد السيّد ميريديث إلى منزله بعد ظهيرة اليوم التّالي، غير أنّ فيث وجدت وسيلةً لخلق الفضيحة لجلين سانت ماري مجدّدًا فبعد الإجهاد والحماسة اللّذين إنتاباها مساء الأحد، غمرها يوم الإثنين شعورٌ كانت الآنسة كورنيليا لتسمّيه "سلوكًا شيطانيًّا". الأمر الذي أدّى بها إلى أن تتحدّى "والتر بلايث" أن يمتطي خنزيرًا ويسير به في الشّارع الرّئيس في حين امتطت هي الأخرى خنزيرًا آخر.

كان الخنزيران طويلين وهزيلين ومن المفترض أنّهما كانا ملكًا لوالد "بيرتي شكسبير درو" وكانا يلازمان قارعة الطّريق بجانب الدّير لبضعة أسابيع. لم يكن والتر يرغب في امتطاء خنزير بين شوارع "جلين سانت ماري" ولكنّه كان عازمًا على قبول جميع تحديّات فيث مهما كلّف الأمر. قاما بنزول التّلّة وسارعا عبر القرية، وانحنت فيث إلى الأمام ضاحكةً على جوادها المرتعب في حين احمرّ والتر خجلًا. مرّا من جانب الكاهن نفسه الذي كان مقبلًا لتوّه من المحطّة فلاحظهما، إذ كان أقلّ استسلامًا للأحلام وأقلّ شرودًا من عادته في تلك الآونة بفضل

حديثه مع الآنسة كورنيليا في القطار والذي كان دائمًا كفيلًا بإيقاظه مؤقّتًا، وفكّر في أنّه يجدر به حقًّا أن يتحدّث إلى فيث بشأن هذا الأمر ويخبرها أنّ سلوكًا كهذا ليس لائقًا. غير أنّه نسي الحادثة التّافهة تمامًا فور وصوله إلى المنزل. مرّ الطّفلان بالسيّدة "آلك دايفس" التي زعقت بارتياع، كما مرّا بالآنسة "روزماري ويست" التي ضحكت وتنهّدت. وأخيرًا وقبل أن ينقضّ الخنزيران على فناء "بيرتي شكسبير درو" الخلفي حيث سيبقيان إلى الأبد بعد العذاب الذي ذاقاه اليوم، نزل كلٌّ من فيث ووالتر عنهما في حين مرّ بجوارهما الطّبيب والسيّدة بلايث بعربتهما.

قال "جيلبيرت" بصرامةٍ زائفة: "إذًا هكذا تقومين بتربية أبنائك."

قالت آن آسفة: "ربّما أدلّلهم أكثر ممّا ينبغي ولكن آه يا "جيلبرت" حين أستذكر طفولتي قبل وصولي إلى "المرتفعات الخضراء"، لا يطاوعني قلبي أن أكون صارمةً جدًّا. كم كنت متعطّشةً إلى الحبّ والمرح، لقد كنت طفلةً تعمل بالسّخرة، تجهل طعم الحبّ ولم تسنح لي أيّ فرصةٍ كي ألهو! أطفالي يحظون بالكثير من المرح مع أطفال الدّير."

سأل جيلبرت: "وماذا عن الخنازير المسكينة؟"

حاولت آن أن تبدو رصينةً ولكنّ محاولتها باءت بالفشل.

فقالت: "أتظنّ حقًّا أنّها تأذّت؟ أنا لا أعتقد أنّ هنالك ما قد يلحق الأذيّة بتلك الحيوانات. لقد كانت مصدر الإزعاج للجيران طيلة هذا الصّيف ولم تقم أسرة "درو" بإسكاتها. ولكنّني سأتحدّث إلى والتر إن تمكّنت من الامتناع عن الضّحك حينها."

أتت الآنسة كورنيليا إلى إنجلسايد ذلك المساء لتنفّس عن مشاعرها بشأن ليلة الأحد. وتفاجأت بأنّ آن لم تر أداء فيث من المنظار نفسه.

إذ قالت: "أرى أنّه لأمرٌ مقدام ومؤثّر وقوفها هناك أمام كلّ حضور

الكنيسة كي تعترف. كان من الجليّ أنّها كانت مرتعبة ولكنّها كانت مصمّمةً على توضيح موقف والدها. لقد أعجبني ما فعلت."

تنهّدت الآنسة كورنيليا وقالت: "آه، بالطّبع كانت نيّة الطّفلة المسكينة صافية ولكنّ ما فعلته ما زال أمرًا فظيعًا كما أنّه أحدث جلبةً أكثر من حادثة تنظيف المنزل يوم الأحد. فذاك الخبر كانت نيرانه عل وشك الخماد أمّا ما حدث فقد أضمر النّار مجدّدًا. إنّ "روزماري ويست" مثلك، لقد قالت اللّيلة الفائتة بينما غادرت الكنيسة أنّها شعرت بالأسف على الطّفلة أيضًا. ورأت الآنسة إيلين أنّ ما حدث كان دعابةً طريفة وقالت أنّها لم تستمتع بوقتها في الكنيسة إلى هذا الحدّ منذ سنوات. بالطّبع هما لا تكترثان، فهما تنتميان إلى الأسقفيّة ولكنّنا نحن المشيخيّون نشعر بمرارة ما حصل. وكان هنالك الكثير من الميثوديّين تلك اللّيلة. راحت السيّدة "ليندر كراوفورد" تبكي إذ شعرت بالخزي الشّديد، أمّا السيّدة "آلك دايفس" فقالت أنّ تلك الصّغيرة الوقحة تستحقّ الصّفع."

قالت سوزان بازدراء: "إنّ السيّدة ليندر كراوفورد تبكي دائمًا في الكنيسة. إنّها تبكي بسبب كلّ ما يقوله الكاهن ومن شأنه إثارة العواطف. ولكن نادرًا ما يُرى اسمها على لائحة التّبرّعات يا زوجة الطّبيب العزيزة، أخال أنّها تجد الدّموع أرخص من ذلك. لقد حاولت أن تتحدّث معي ذات يوم عن كم أنّ الخالة مارثا مدبّرة منزلٍ قذرة؛ أردت أن أقول لها: الجميع يعلم أنّك تصنعين خليط الحلوى في مغسلة المطبخ يا سيّدة ليندر كراوفورد، ولكنّني لم أفعل يا عزيزتي زوجة الطّبيب لأنّني أكنّ الاحترام لنفسي، ولن أنحدر إلى هكذا مستوى وأتجادل مع أمثالها. إن في وسعي قول أمورٍ أكثر فظاعةً من ذلك عن السيّدة ليندر كراوفورد لو كنت منخرطةً في النّميمة. أمّا عن السيّدة "آلك دايفس"، أفتعلمين بما كنت سأردّ لو أنّها قالت ما قالته في وجهي يا زوجة الطّبيب العزيزة؟ كنت لأقول: أنا لا أشكّ في أنّك ترغبين في

صفع فيث بنفسك يا سيّدة "دايفس" ولكنّك لن تملكي فرصة صفع ابنة كاهن، لا في هذا العالم ولا في العالم الآخر."

قالت الآنسة "كورنيليا نادبةً حظّها مجدّدًا: "لو أنّ المسكينة فيث كانت متأنّقةً وحسب، لما كان الوضع بهذا السّوء. ولكنّ ذلك الثّوب بدا مريعًا حينما اعتلت المنبر."

قالت سوزان: "ولكنّه كان نظيفًا يا زوجة الطّبيب العزيزة. أولئك الأطفال نظيفون بالفعل، صحيحٌ أنّهم متهوّرون ومستهترون، وأنا لا أنكر هذا، ولكنّهم يعتنون بنظافة أجسادهم جيّدًا."

أصرّت الآنسة كورنيليا قائلة: "حقيقة أنّ فيث نسيت أيّ يوم هو الأحد... لا بدّ أنّها ستغدو متهاونةً وغير عمليّة كوالدها، صدّقيني. أظنّ أنّ كارل كان ليكون أكثر وعيًا لو لم يكن مريضًا. أنا لا أدري ما الذي أصابه ولكنّني أعتقد أنّه كان يتناول ذلك العنب البريّ الذي ينمو في المقبرة. لا عجب أنّه أصيب بالمرض. لو كنت ميثوديّة، لحاولت على الأقلّ أن أبقي مقبرتي نظيفة."

قالت سوزان مفعمةً بالأمل: "في رأيي أنّ كارل قد أكل من الحمضيّات التي تنمو على حاجز المقبرة. أنا لا أعتقد أنّ ابن أيّ كاهنٍ قد يأكل عنبًا بريًّا ينمو على قبور الموتى. ولكنّك تعلمين يا زوجة الطّبيب العزيزة أنّه لا ضير في تناول ما ينمو على الحاجز."

قالت الآنسة كورنيليا: "لعلّ أسوء ما في حادثة ليلة أمس هو تجهّم فيث في وجه أحد الرّعايا قبل بدئها. قال الشّيخ "كلو" أنّها كانت تقصده. وهل سمعتما أنّ هناك من رآها تمتطي خنزيرًا اليوم؟"

"لقد رأيتها، لقد كانت برفقة والتر. لقد أنّبته قليلًا بسبب ذلك، قليلًا وحسب. هو لم يخبرني الكثير ولكنّه أعطاني انطباعًا بأنّ تلك كانت فكرته وأنّ فيث ليست الملامة."

صاحت سوزان قائلة: "أنا لا أصدّق ذلك يا زوجة الطّبيب العزيزة،

تلك طريقة والتر لتحميل نفسه عبء اللّوم. ولكن كلانا يعلم يا زوجة الطّبيب العزيزة أنّ ذلك الطّفل المبارك ما كان ليفكّر في امتطاء خنزيرٍ ما حيا، حتّى وإن كان شاعرًا."

قالت الآنسة كورنيليا: "آه لا بدّ من أنّ فيث هي من دبّرت الفكرة. وأنا لا أقصد في قولي أنّني آسفة بشأن خنازير "آموس درو" فلقد نالت من القصاص ما تستحقّه. ولكن ماذا عن ابنة الكاهن؟!"

قالت آن مقلّدةً نبرة الآنسة كورنيليا: "وماذا عن ابن الطّبيب؟" ثمّ ضحكت وقالت: "عزيزتي الآنسة كورنيليا إنّهم مجرّد أطفالٍ صغار. وأنت تعلمين تمامًا أنّهم لم يقترفوا أيّ خطأٍ في حياتهم بعد، هم طائشون ومتهوّرون، تمامًا كما كنت في صغري. سوف يغدون رزينين ورصينين حين يكبرون، تمامًا كما فعلت."

ضحكت الآنسة كورنيليا بدورها، وقالت:

"أحيانًا، أرى في عينيك يا عزيزتي آن أنّ رزانتك مجرّد قناع وأنّك توّاقة لافتعال أمرٍ مجنونٍ وأهوج مجدّدًا. على أيّ حال، لقد تشجّعت. دائمًا ما يترك الحديث معك هذا الأثر في نفسي. أمّا حين أزور "باربارا سامسون" فهو العكس تمامًا، فهي تشعرني أنّ الأمور تعاكسني وأنّ هذا ما ستكون عليه الأحوال دائمًا. ولكنّني لا ألومها، فلا بدّ أن يكون للعيش مع رجلٍ مثل "جو سامسون" هذا الأثر المحبط."

أشارت سوزان: "إنّه أمرٌ غريب زواجها من "جو سامسون" بعد كلّ الفرص التي أتتها. فقد كانت محط أنظار الجميع في صباها. كما أنّها اعتادت أن تتبجّح أمامي أنّها كانت تملك واحدًا وعشرين عاشقًا إضافةً إلى السيّد بيثيك."

"وماذا كان السيّد "بيثيك" بالنّسبة إليها؟"

"حسنًا، كان مجرّد عالة يا زوجة الطّبيب العزيزة لذا لا يمكن أن تسمّيه عاشقًا بالتّحديد، فهو لم يكن يملك أيّ أهداف. واحدٌ وعشرون

عاشقًا وأنا لم أكن أملك واحدًا حتّى! ولكنّ "باربارا" قد اصطادت سمكةً ميتة في نهاية المطاف، وبالرّغم من ذلك، يقال أنّه أكثر براعةً منها في صنع البسكويت كما أنّها ترغمه على صنعها كلّما حضرت صديقاتها لاحتساء الشّاي."

قالت الآنسة كورنيليا: "وهذا يذكّرني بأنّني دعوت صديقاتي لاحتساء الشّاي غدًا، كما أنّه عليّ أن أعود إل المنزل وأريح عجين الخبز، قالت ماري أنّ في وسعها فعل ذلك وأنا لا أشكّ في الأمر ولكن طالما يمكنني الحراك فسوف أريح عجين خبزي بنفسي ما دمت على قيد الحياة، صدّقيني."

سألت آن: "كيف تبلي ماري؟"

أجابتها الآنسة كورنيليا مقطّبة الجبين: "أنا لا أملك مشكلةً مع ماري. لقد بدأ اللّحم يكسو عظامها كما أنّها فتاةٌ محترمة ونظيفة. رغم أنّني أعلم أنّها تخفي في أعماقها الكثير ممّا أجهله. فهي كالثّعلب الماكر. لن تتمكّني من الوصول إلى قعر ذهن تلك الطّفلة ولو حفرت فيه لألف عام، صدّقيني! أمّا بالنّسبة للعمل، فأنا لم أرى لها مثيلًا في حياتي، صحيحٌ أنّ السيّدة وايلي كانت تعاملها بوحشيّة ولكن لا يستطيع النّاس أن يدّعوا أنّها كانت تجبرها على العمل فماري عاملةٌ بالفطرة. أتساءل في بعض الأحيان أيّهما سينهك أوّلاً، لسانها أم ساقاها. إنّها لا تترك لي ما أقوم به كي أبعد نفسي عن الأذى. سأسرّ كثيرًا حين تفتح المدارس أبوابها، إذ سيصبح لديّ ما أملأ به وقتي مجدّدًا. إنّ ماري لا ترغب في الذّهاب إلى المدرسة ولكنّني كنت حازمةً واتّخذت التّدابير اللّازمة وأخبرتها أنّه عليها ذلك. لن أسمح للميثوديّين أن يقولوا أنّني أبقيتها خارج المدرسة لأتراخى وأتكاسل عن العمل."

***

13
منزل التلّة



كانت إحدى تجاوويف وادي قوس المطر المختفية بين أشجار البتولا في الزّاوية السّفليّة القريبة من المستنقع تحتضن ينبوعًا صغيرًا لا ينضب، صافيًا كالبلّور وباردًا كالثّلج. لم يعلم الكثيرون بوجوده، غير أنّ أطفال الدّير وأطفال إنجلسايد كانوا يعلمون بالطّبع، تمامًا كما كانوا يعلمون كلّ أسرار ذلك الوادي السّاحر. كانوا يقصدونه بين الفينة والفينة ليرتووا من مياهه، وكانوا يتّخذونه نافورة حبٍّ للقصص الرّومانسيّة القديمة في العديد من تمثيليّات لعبهم الخياليّة.

كانت آن تعلم بشأنه كذلك وكان قلبها معلّقًا به إذ كان يذكّرها إلى حدٍّ ما ببركة نبع الفقاعة في "المرتفعات الخضراء". وكانت "روزماري ويست" تعلم بوجوده ذلك أنّه كان نافورة الحبّ خاصّتها. كانت قد جلست خلفه قبل ثمانية عشر عامًا، عند غسق إحدى الأيّام الرّبيعيّة وسمعت "مارتن كراوفورد" يتلعثم بكلمات اعترافه بحبٍّ صبيانيٍّ متّقد. فهمست بدورها مفصحةً عن سرّها وتبادل الاثنان القبل وقطعا عهدًا عند ينبوع الحرج البريّ. ولم تشأ الأيّام أن يجتمعا عنده مرّةً

أخرى في حياتهما، ذلك أنّ "مارتن" قد أبحر، بعد ذلك بأيّام، مسافرًا على متن سفينةٍ نحو قدره المهلك المحتوم، ولكنّ المكان بقي بقعةً مقدّسةً في قلب روزماري تباركه تلك السّويعات الخالدة، سويعاتٌ من يرعان الشّباب والحبّ. وكانت تلتفت جانبًا متى ما مرّت فيه لتعقد ملتقىً سريًّا مع حلمٍ قديم، حلمٌ قد زال منه الألم منذ الأزل ولم يترك سوى الحلاوة التي لا تُفارق الذّاكرة.

كان الينبوع مكانًا مخبّأً. ولعلّ المرء يكون على بعد عشرة أميالٍ منه ولا يشكّ في وجوده. في منتصفه شجرة صنوبرٍ هامدة لم يبق منها سوى جذعها المتداعي، ونمت في داخلها حشائش الخنشار الكثيفة فباتت كسقفٍ أخضر وستارٍ مخرّمٍ للمياه. كما نمت إلى جواره شجرة قيقب ذات جذعٍ ملتوٍ ومعقّدٍ بغموض، تزحف بمحاذاة الأرض قليلًا قبل أن تنطلق فروعها نحو السّماء مشكّلةً بذلك مقعدًا عجيبًا؛ وألقى شهر أيلول حول التّجويف خمارًا من أزهار النّجمة ذات اللّون الأزرق الدّخانيّ الباهت.

ذات مساء، وبينما كان "جون ميريديث" مقبلًا من بضع زياراتٍ رعويّة من أرجاء رأس الميناء، سلك طريقًا قادوميّةً عبر وادي قوس المطر ثمّ انصرف لارتشاف الماء من الينبوع الصّغير. كان والتر قد أراه إيّاه قبل بضعة أيّام وحسب، كما جلسا على مقعد القيقب وتبادلا أطراف الحديث. كان "جون ميريديث" يخفي وراء كلّ حيائه وانطوائه قلبًا فتيًّا. وكان يلقّب بـ "جاك" في شبابه، على الرّغم من أنّ لا أحد في "جلين سانت ماري" قد يصدّق ذلك أبدًا. اعتاد الإثنان أحدهما على الآخر وراحا يتحدّثان دون أيّ تحفّظ. واستطاع السيّد ميريديث شقّ طريقه داخل بعض الأماكن المقفلة والمقدّسة في روح الفتى، أماكنٌ لم يطّلع عليها أيّ أحدٍ إطلاقًا ولا حتّى دي. ومنذ تلك السّاعة، أصبح الاثنان رفيقين وأدرك والتر أنّه لن يهاب الكاهن بعد اليوم.

وأخبر والدته تلك اللّيلة: "لم أخل يومًا أنّه من الممكن أن يتعرّف المرء حقًّا إلى كاهن."

ارتشف "جون ميريديث" الماء من يده البيضاء النّحيلة والتي كانت قبضتها الحديديّة دائمًا ما تدهش أولئك الّذين لا يعرفونه حقّ المعرفة، ثمّ جلس على مقعد القيقب. لم يكن على عجلةٍ من أمره للعودة إلى المنزل؛ كان هذا المكان خلّابًا وكان الرّجل قد أعيت فكره جولةٌ من المحادثات المملّة مع العديد من الأشخاص الطيّبين وغيرهم من الأغبياء. كان القمر على وشك البزوغ وكان وادي قوس المطر ملتاعًا من الرّياح، تحرسه النّجوم فقط حيث كان الرّجل. أمّا بعيدًا، في أقصى الوادي العلويّ، تصاعدت الموسيقى المبهجة من أصوات الأطفال وضحكاتهم.

نضارة أزهار النّجمة الأثيريّة تحت نور القمر، تألّق الينبوع الصّغير، تهويدة الجدول الهادئة ورونق أجمات السّرخس المتمايلة... جميعها أحاطت "جون ميريديث" بسحر أبيض، فنسي لوهلةٍ جميع بنات نفسه والهموم الدّينيّة والمشاكل الرّوحيّة؛ تسلّلت السّنون هاربةً من داخله، عاد تلميذًا شابًّا من جديد وتفتّحت براعم ورود حزيران في الظّلام، حمراء وعطرة تتوّج رأس عزيزته "سيسيليا". جلس في مكانه وراح يحلم كأيّ فتىً. وفي تلك اللّحظة المؤاتية، أطلّت "روزماري ويست" من الطّريق الجانبيّة ووقفت إلى جانبه في ذاك المكان الخطير المحاط بالفتون. وقف "جون ميريديث" بينما أقبلت وكانت تلك المرّة الأولى التي يراها فيها. كانت تلك المرّة الأولى التي يراها فيها بحقّ.

كان قد التقى بها في الكنيسة مرّةً أو اثنتين وصافحها بذهنٍ شاردٍ كما يفعل مع كلّ من يقابلهم عند نزوله من المنبر. ولم يقابلها في أيّ مكانٍ آخر، إذ كانت أسرة "ويست" من الأسقفيّة ولم تستدع الحاجة زيارتهم من قبل. لو سأل أيّ أحدٍ "جون ميريديث" قبل ليلة اليوم كيف

تبدو "روزماري ويست"، لما كان يملك أدنى فكرة. ولكنّه ما كان لينساها بعد اليوم بعدما تراءت له في رونق تلك اللّيلة القمراء بجانب الينبوع.

لم تكن تبدو كـ"سيسيليا" على الإطلاق والتي لطالما كانت أسوة في الحسن والجمال الأنثويّ في نظره. كانت "سيسيليا" قصيرة القامة، سمراء البشرة ومفعمةً بالحيويّة في حين كانت "روزماري ويست" طويلة القامة، شقراء وحليمة، غير أنّ "جون ميريديث" شعر بأنّه لم يسبق لعينيه أن رأتا امرأةً بجمالها.

كانت مكشوفة الرّأس وكانت خصلات شعرها الذّهبيّة النّاعمة بلون حلوى الدّبس كما وصفتها "دي بلايث"، تشكّل ضفائر ملساء فوق رأسها. كان لها عينان زرقاوان واسعتان وهادئتان تبدوان مليئتان بالمودّة دائمًا وجبينًا عريضًا أبيض ووجهًا بهيّ الملامح.

لطالما عُرفت "روزماري ويست" بطيبتها، كانت طيّبةً لدرجة أنّها لم تُمنح صيت "المتعجرفة" على الرّغم من تكلّفها المتعالي، الأمر الذي ما كان ليتجنّبه أيّ أحدٍ آخر في "جلين سانت ماري". علّمتها الحياة أن تتحلّى بالشّجاعة والصّبر، أن تكون محبّةً وصفوحة. كانت قد راقبت السّفينة التي أبحر حبيبها على متنها من ميناء فوروينذز عند المغيب، وبالرّغم من أنّها راقبتها طويلًا، غير أنّها لم ترها تبحر عائدةً أبدًا. اختطف السّهر الصبا من عينيها ولكنّها احتفظت بفتوّتها لدرجةٍ تدهش لها العقول. ولربّما يعود السّبب في ذلك إلى أنّها قد أبقت على نظرة تفاجئها المغتبطة للحياة، تلك النّظرة التي يتخلّى عنها معظمنا بعد مرحلة الطّفولة، تلك النّظرة التي لم تكتفي بمنح روزماري طابع الفتوّة وحسب بل كانت كفيلةً بإلقاء سرابٍ من الفتوّة في أحاسيس كلّ من تحدّث إليها.

بُهت "جون ميريديث" من حسنها وبهائها في حين بُهتت روزماري

من تواجده هنا فهي لم تتوقّع أن تلتقي بأيّ أحدٍ بالقرب من ذاك الينبوع المنعزل ولاسيّما متنسّك دير "جلين سانت ماري". أوشكت أن تسقط منها حفنة الكتب الثّقيلة التي كانت قد استعارتها من مكتبة جلين، لذا، ولتخفي ارتباكها، تفوّهت بإحدى تلك الأكاذيب التي تتذرّع بها حتّى أفضل النّساء أحيانًا.

فقالت متلعثمة بكلماتها: "لقد- لقد جئت قاصدةً شرب الماء." وكان ذلك ردّها على السيّد ميريديث الذي قال بوقار: "مساء الخير يا آنسة ويست."

شعرت بأنّها مغفّلةٌ لا يغفر لها وكانت تتوق للتخلّص من هذا الشّعور... ولكنّ "جون ميريديث" لم يكن رجلًا أنوفًا وأيقن أنّها كانت لتذهل بالقدر نفسه لو أنّها التقت بالشّيخ "كلو" العجوز على ذلك النّحو غير المتوقّع. أراحه ارتباكها وأنساه خجله، ثمّ إنّ أكثر الرّجال خجلًا يصبحون شهامًا تحت نور القمر.

قال مبتسمًا: "اسمحي لي أن آتيك بكوب." ولو أنّه فقط كان يعلم بوجود كوبٍ على مقربةٍ منه، كوبٍ أزرق مصدّعٍ مكسور المقبض كان قد خبّأه أطفال وادي قوس المطر تحت شجرة القيقب، ولكنّه لم يكن يعلم. لذا توجّه إلى إحدى شجرات البتولا وقام بنزع بعضٍ من قشرتها البيضاء وشكّلها على شكل كوبٍ مثلّث الأضلاع بمهارة ثمّ ملأه من ماء الينبوع وناوله إلى روزماري.

أخذته روزماري وراحت تشرب ما فيه حتّى آخر قطرة لمعاقبة نفسها على كذبتها إذ لم تكن عطشةً على الإطلاق، وشرب ملء كأسٍ من الماء حين لا يكون المرء عطشًا هو بمثابة محنةٍ قاسية، غير أنّ ذكرى تلك الجرعة كان لها أن تصبح محبّبةً جدًّا إلى روزماري. فقد بدا لها، بعد سنواتٍ من ذلك اليوم، أنّ هناك ما يدعو للسّخرية بشأن ما حدث، ولعلّ السّبب في ذلك هو ما فعله الكاهن حينما أعادت الكوب

إليه. إذ انحنى مجدّدًا وملأه وشرب منه بنفسه، وكان وضع شفتيه في المكان نفسه الذي وضعت عليه روزماري شفتيها حادثةً ليس إلّا وكانت روزماري تعلم ذلك، بيد أنّ الأمر كان له دلالةً طريفةً بالنّسبة إليها. لقد شرب كلاهما من الكوب نفسه. وتذكّرت بفتورٍ أنّ إحدى عمّاتها كانت قد أخبرتها أنّه حين يشرب شخصين من الكوب نفسه فإنّ ذلك يعني أنّهما سيتشاركان الآجلة نفسها بعد الموت، سواءً في السرّاء أو الضرّاء.

أمسك "جون ميريديث" الكوب محتارًا فهو لم يعلم ما يفعل به ولعلّ الأمر المنطقيّ كان أن يرميه بعيدًا ولكنّه بطريقةٍ ما كان راغبًا عن فعل ذلك. مدّت روزماري يدها للحصول عليه وقالت:

"هلّا سمحت لي بالحصول عليه؟ لقد صنعته ببراعةٍ ولم يسبق لي أن رأيت أيّ أحدٍ يصنع كوبًا من البتولا منذ أن كان أخي الأصغر يقوم بصناعتها منذ وقتٍ طويلٍ قبل وفاته."

قال السيّد ميريديث: "لقد تعلّمت كيف أصنعه حين كنت شابًا، قام صيّادٌ عجوزٌ بإطلاعي على الأمر في إحدى المخيّمات الصّيفية. اسمحي لي بحمل كتبك يا آنسة ويست."

بُغتت روزماري وزلّ لسانها في كذبةٍ أخرى، فقالت أنّ الكتب لم تكن ثقيلة ولكنّ الكاهن أخذها منها بإتقانٍ ثمّ غادرا المكان سويًّا. وكانت تلك المرّة الأولى التي تقف فيها روزماري بالقرب من ينبوع الوادي بدون أن تفكّر بمارتن كراوفورد. لقد كُسر الملتقى السّريّ.

كانت الطّريق الفرعيّة ملتفّةً حول المستنقع ثمّ تؤدي إلى التلّة الشّجراء حيث كانت تعيش روزماري، وعلى مدّ النّظر، تمكّنا من رؤية نور القمر يشعّ فوق حقول الصّيف. ولكنّ الطريق الفرعيّة كانت ضيّقةً وظليلة تحتشد الأشجار من فوقها، كما أنّ الأشجار وحين يخيّم الظّلام لا تكنّ للإنسان المودّة نفسها التي تكنّها له في وضح النّهار فهي

تحجب نفسها عنّا وتتهامس متآمرةً خلسةً، وإن مدّت أياديها إلينا فهي تلمسنا بمحاولة الإعتداء. ودائمًا ما يتقرّب الأشخاص الّذين يسيرون بين الأشجار في اللّيل من بعضهم الآخر بعفويّةٍ ولاإراديّة، يتّحدون فكريًّا وجسديًّا لمجابهة بعض القوى الغامضة من حولهم. لامس ثوب روزماري "جون ميريديث" بينما كانا يسيران. ولم يكن في استطاعة أيّ رجلٍ ولا حتّى كاهنٍ شارد الذّهن، والذي كان مايزال شابًّا في مقتبل العمر رغم أنّه كان يؤمن بأنّه قد فقد الرّومانسيّة، ألّا تهزّه المشاعر المرفقة لسحر اللّيل والطّريق والمرافقة.

ليس من الآمن أبدًا أن نعتقد بأنّنا طوينا آخر صفحةٍ في حياتنا. فحين يُخال إلينا أنّنا أنهينا قصّتنا، يراوغنا القدر بقلب الصّفحة وإظهار فصلٍ آخر. ظنّ كلٌّ من هذين الشّخصين أنّ قلبيهما ينتميان إلى الماضي من غير رجعة ولكنّ كلاهما وجدا في سيرهما عند تلك التّلّة سرورًا وهناءً. ورأت روزماري أنّ كاهن جلين لم يكن خجولًا أو معقود اللّسان كما عُرف عنه، إذ بدا أنّه لم يجد أيّ صعوبةٍ في التّكلّم بطلاقة وحريّة. ولابدّ من أنّ ربّات المنزل في جلين كنّ ليصعقن لو سمعن أحاديثه، غير أنّ ربّات المنزل في جلين لا يجدن سوى النّميمة والتحدّث في التّفاهات، ولم يكن "جون ميريديث" مهتمًّا بأيٍّ من الأمرين. تحدّث مع روزماري عن الكتب والموسيقى، كما أطلعها على أحداث ماضيه ووجد أنّها كانت تستطيع أن تتفهّمه وتتجاوب معه. وعلى ما يبدو، كانت روزماري تمتلك كتابًا لم يقرأه السيّد ميريديث بعد وتمنّى أن يفعل، لذا عرضت عليه أن تعيره إيّاه وحين وصلا إلى المنزل فوق التّلّة، ودخل للحصول عليه.

كان المنزل من الطّراز القديم، رماديًّا، تعانقه الكرمات التي يمرّ من خلالها نور غرفة الجلوس ويومض على نحوٍ مؤنس. كان المنزل يحرس جلين عند الميناء، زاهيًا بخيوط القمر الفضيّة، يرمق الكثبان

الرّمليّة والمحيط النّائح. سارا عبر حديقةٍ كانت تعبق بشذى الورد على الدّوام، حتّى في الأيّام التي لا تتبرعم فيها الورود. وكان هناك زنابق عند البوّابة وشريطًا من زهور النّجمة على جانبيّ الدّرب الرّحب وصفًّا من شجر التّنّوب على حافّة التلّة وراء المنزل.

قال جون ميريديث: "أنت تمتلكين العالم بأسره عند عتبة منزلك هنا. أيّه منظر! أيّه مطلّ! أحسّ في بعض الأحيان أنّني أختنق هناك في قرية جلين، أمّا هنا في وسع المرء أن يتنفّس."

قالت روزماري ضاحكة: "إنّ ليلة اليوم هادئة، لو كان هنالك رياح لخطفت أنفاسك. إنّ هذا المكان هنا تجسيدٌ لأغنية "يمكن للرّيح أن يلفح"، ينبغي له أن يُدعى فوروينذز بدلًا من الميناء."

فقال: "أحبّ الرّياح. تبدو الأيّام التي لا رياح فيها ميتةً بالنّسبة إليّ، في حين توقظني الأيّام المذرورة بالرّياح." ثمّ ضحك بخجلٍ وأردف قائلًا:

"أنا أغرق في أحلام اليقظة في الأيّام الهادئة. لا شكّ في أنّك تعلمين سمعتي يا آنسة "ويست". إن حدث وتجاهلتك في المرّة المقبلة التي نتقابل فيها، فلا ترجعي الأمر إلى فظاظة الخلق بل افهمي رجاءً أنّني شارد الذّهن واستميحيني عذرًا وتحدّثي إلي."

حين دخلا، وجدا "إيلين ويست" في غرفة الجلوس، فوضعت نظّارتها جانبًا على الكتاب الذي كانت تقرأه ونظرت إليهما بذهولٍ يخالطه شعورٌ آخر، ولكنّها صافحت السيّد ميريديث بمودّة كما جلس وتبادل أطراف الحديث معها ريثما راحت روزماري تبحث عن كتابه.

كانت "إيلين ويست" أكبر سنًّا من روزماري بعشر سنوات، وكانت مختلفةً جدًّا عن أختها حتّى أنّه كان يصعب التّصديق أنّهما أختين، فكانت سمراء البشرة وجسيمة البدن، كان لها شعر أسود سميك وحاجبان سوداوان وعينان من زرقة مياه المحيط الأردوازيّة. كانت

تتمتّع بنظرةٍ حادّةٍ وموحشة إلى حدٍّ ما، ولكنّها كانت في الحقيقة امرأةً مرحةً ضحوكة وكان صوتها ليّنًا محبّبًا ووديًّا يحمل شيئًا من صفات الرّجولة. لقد أشارت من قبل إلى روزماري أنّها تودّ التّحدّث إلى كاهن المشيخيّين في جلين كي تتأكّد ما إن كان في وسعه أن يجد الكلمات المناسبة لقولها لامرأةٍ تحشره في موقفٍ محرج. وكانت الفرصة سانحةً لها الآن، فقرّرت مواجهته في عالم السّياسة. وكانت الآنسة إيلين، وهي من عشّاق المطالعة، تثقف كتابًا عن إمبراطور ألمانيا فسألت السيّد ميريديث عن رأيه فيه.

فكانت إجابته: "إنّه رجلٌ خطير."

أومأت الآنسة إيلين ثمّ قالت: "أنا أصدّقك! سجّل كلماتي يا سيّد ميريديث، سوف يقاتل ذلك الرّجل أحدهم يومًا ما، إنّه يتحرّق شوقًا لذلك. سوف يضرم النار في العالم."

قال السيّد ميريديث: "إن كنت تؤمنين بأنّه سوف يندفع بعشوائيّة لإعلان حربٍ عظمى فأنا أشكّ في ذلك، لقد ولّت أيّام مثل هذه الأمور."

تمتمت إيلين قائلة: "باركك الرّب، ذلك ليس صحيحًا. لن تولّي الأيّام التي يقيّم فيها الرّجال والدّول أنفسهم ويتصارعون بقبضاتهم. ما زالت الألفيّة بعيدةً يا سيّد ميريديث وأنت تعلم أنّها كذلك أكثر منّي. أمّا بالنّسبة لهذا الامبراطور، فسوف يتسبّب بكمٍ هائلٍ من المشاكل، سجّل كلماتي." نخزت الآنسة إيلين كتابها بأناملها الطّويلة مؤكّدة ثمّ أردفت قائلة: "سوف يسبّب المصائب إن لم يردعه أحدهم قبل فوات الأوان. وسوف نحيا لنشهدها، سنحيا أنا وأنت كلانا لنشهدها يا سيّد ميريديث. من الذي سيقوم بردعه؟ يجدر ببريطانيا تولّي الأمر ولكنّها لن تفعل. من الذي سوف يردعه؟ أجبني يا سيّد ميريديث."

لم يتمكّن السيّد ميريديث من إجابتها، ولكنّهما استرسلا في حديثٍ

عن سياسة ألمانيا العسكريّة دام لوقتٍ طويل بعد أن وجدت روزماري الكتاب. لم تنطق روزماري ببنت شفة بل جلست في أرجوحةٍ صغيرة وراحت تداعب قطًّا أسود مهمًّا سارحةً في تأمّلها. كان "جون ميريديث" في خضمّ محادثته عن أوروبا مع إيلين غير أنّه كان ينظر إلى روزماري أكثر من نظره إليها، ولاحظت إيلين ذلك. وبعد أن رافقته روزماري إلى الباب وعادت، نهضت إيلين ورمقتها بنظرة الاتّهام.

"روزماري ويست، ذلك الرّجل يفكّر في إغوائك."

ارتعشت روزماري. كان كلام إيلين بمثابة قنبلةٍ صعقتها ومحت كلّ رونق تلك اللّيلة الهنيئة. ولكنّها لم تكن ستسمح لإيلين أن ترى أنّها جرحتها.

فقالت: "هراء." ثمّ قهقهت بفائضٍ من اللّامبالاة وأضافت قائلة: "أنت ترين عشيقًا لي في كلّ الرّجال يا إيلين. لقد أخبرني بكلّ شيءٍ عن زوجته هذه اللّيلة وكم كانت تعني له وكيف أنّ رحيلها ترك العالم فارغًا."

ردّت إيلين: "حسنًا، قد تكون هذه طريقته في المغازلة. يمتلك الرّجال كلّ أنواع الوسائل، أنا أفهم. ولكن لا تنسي وعدك يا روزماري."

قالت روزماري بشيءٍ من السّأم: "لا حاجة لي بنسيانه أو تذكّره، أنت من تنسين أنّني عانسٌ يا إيلين إنّ كونك أختي الكبرى هو ما يوهمك بأنّني ما زلت شابّةً وغويّة. لا يرغب السيّد ميريديث سوى أن نكون أصدقاء، هذا أقصى ما قد يريده. سوف ينسى أمرنا قبل أن يصل الدّير."

أقرّت إيلين: "أنا لا أمانع أن تكونا صديقين، ولكن تذكّري أنّ علاقتكما لا يجب أن تتجاوز حدود الصّداقة. دائمًا ما أشكّ في الأرامل. هم لا ينصاعون للأفكار العاطفيّة المتعلّقة بالصّداقة. ولكنّهم يميلون إلى أعمال الشّغب. أمّا بالنّسبة لذلك الرّجل المشيخي، فأنا لا

أرى لم يُذاع عنه أنّه خجول، إنّه ليس خجولًا البتّة، بالرّغم من أنّه شارد الذّهن، شارد الذّهن لدرجة أنّه نسي أن يتمنّى لي ليلةً سعيدة حين رحت ترافقينه إلى الباب. كما أنّه رجلٌ حاذق. ثمّة قليلٌ من الرّجال الذين يستطيعون أن يتحدّثوا بمنطقيّةٍ في هذه الأرجاء. لقد استمتعت اللّيلة ولا أمانع أن أقابله مجدّدًا. ولكن لا مغازلة يا روزماري، إيّاك والمغازلة."

كانت روزماري معتادةً على أن تحذّرها إيلين من المغازلة إن حصل وتحدّثت إلى أيّ رجلٍ قابلٍ للزّواج بين سنّ الثمانية عشر والثّمانين ولو لخمس دقائق، ولطالما سخرت من التّحذير بفكاهةٍ ووديّة. ولكنّ التّحذير لم يكن طريفًا هذه المرّة بل كان مزعجًا بعض الشّيء. من أراد أن يغازل؟

فقالت باختصارٍ على غير عادتها: "لا تكوني مغفّلةً يا إيلين." ثمّ أخذت مصباحها وصعدت السّلالم دون تمنّي ليلةٍ سعيدة لأختها.

طأطأت إيلين رأسها بارتياب ونظرت إلى القطّ الأسود.

فسألته: "ما الذي عكّر مزاجها أيّها القدّيس جورج؟ حين يئنّ المرء فهو يتألّم، هذا ما أسمعه دائمًا يا جورج. ولكنّها قطعت عهدًا أيّها القدّيس، لقد وعدت ونحن عائلة "ويست" نفي بعهودنا دائمًا. لذا لا يهمّ ما إن أرادت أن تغازل يا جورج، لقد وعدت. لن أقلق حيال الأمر."

جلست روزماري في غرفتها في الطّابق العلويّ طويلًا، تنظر عبر نافذتها إلى الحديقة المقمرة وإلى الميناء البعيد المشعّ. وكانت تشعر بانزعاجٍ وارتباكٍ غامضين، وفجأة، أعيتها الأحلام التي عفا عليها الزّمن. تناثرت بتلات آخر الورود الحمراء في الحديقة بفعل ريحٍ لطيفةٍ مراوغة. لقد ولّى الصّيف وها قد أقبل الخريف.

***

14
السيّدة آلك دايفس تتّخذ قرارًا



سار "جون ميريديث" إلى المنزل ببطء. شغلت روزماري تفكيره قليلًا في بادئ الأمر، ولكنّه كان قد نسي أمرها تمامًا مع وصوله إلى وادي قوس المطر وراح يتفكّر في موضوع لاهوتيّة ألمانيا الذي تطرّقت إليه إيلين.

مرّ في وادي قوس المطر دون أن يدرك ذلك، إذ أنّ سحر وادي قوس المطر يفقد فعاليته أمام لاهوتيّة ألمانيا. حين وصل إلى الدّير، توجّه نحو مكتبه وأخرج كتابًا ضخمًا كي يتحقّق ممّن كان على صواب، هو أم إيلين. واستغرق في دهاليز أفكاره حتّى بزوغ الفجر، تفاجأ بحبلٍ جديدٍ من النّظريّات وراح يطارده ككلاب التّحرّي على مدى الأسبوع التّالي، غائبًا عن هذا العالم وعن دائرة الكنيسة وعن أسرته. كان يقرأ ليل نهار، وينسى أن يحضر موائد الطّعام حين لا تكون أونا موجودةً لتجرّه إليها ولم يفكّر في إيلين أو روزماري ثانيةً. كانت السيّدة "مارشال" العجوز من الميناء مدنفةً فقامت باستدعائه غير أنّ رسالتها تُركت على مكتبه مهملةً تحت كومةٍ من الغبار، تعافت السيّدة "مارشال"

ولكنّها لم تسامحه في حياتها. أقبل ثنائيّ إلى الدّير لعقد القران وتولّى السيّد ميريديث، الذي حضر بشعره الأشعث وبخفّي المنزل مرتديًا منامته البالية، هذه المهمّة. فاستهلّ بقراءة خطاب التّأبين لهما ولم يشكّ في أنّه ثمّة خطبٌ ما إلى أن وصل إلى عبارة "رمادًا لرماد وغبارًا لغبار."

فقال بدهشة: "يا للعجب! إنّه أمرٌ غريب، غريبٌ للغاية."

أجهشت العروس التي كانت متوتّرةً بالفعل بالبكاء، أمّا عريسها فلم يكن مرتبكًا البتّة فراح يقهقه وقال: "عفوًا يا سيّدي، أعتقد أنّك تقوم بدفننا بدلًا من أن تزوّجنا."

أجابه السيّد ميريديث: "أعذرني." وكأنّ ما حدث ليس بالأمر الجلل. ثمّ تناول خطاب الزّواج وراح يقرأه، غير أنّ العروس لم تشعر أنّها متزوّجةٌ بحقّ لبقيّة حياتها.

أغفل اجتماع الصّلاة مرّةً أخرى ولكنّ ذلك لم يكن مهمًّا، إذ كانت اللّيلة ماطرةً ولم يحضر أحد. كما أنّه كان لينسى خدمة يوم الأحد لولا السيّدة "آلك دايفس". جاءت الخالة مارثا ظهيرة يوم الأحد وأخبرته أنّ السيّدة "دايفس" تودّ مقابلته وأنّها تنتظره في صالة الاستقبال. تنهّد السيّد ميريديث، فقد كانت السيّدة "دايفس" الإمرأة الوحيدة التي يبغضها في كنيسة "جلين سانت ماري". ولكن لسوء الحظّ، كانت أيضًا أكثرهم ثراءً، وقد حذّرته هيئة المدراء من التعرّض لها ومؤاثمتها. قلّما يفكّر السيّد ميريديث بأمرٍ دنيويّ زائلٍ كراتبه، وبيد أنّ مدراءه كانوا أكثر واقعيّة ناهيك عن أنّهم كانوا ثاقبي الفكر. فتدبّروا لغرس فكرة عدم التعرّض للسيّدة "دايفس" في ذهن السيّد ميريديث بدون أن يذكروا المال. وإلّا، فعلى الأرجح أنّه كان لينسى أمرها بمجرّد مغادرة الخالة مارثا.

وهكذا، أغلق كتاب "إيوالد" ممتعضًا وتوجّه إلى صالة الإستقبال.

كانت السيّدة "دايفس" جالسةً على الأريكة تنظر من حولها باستهجانٍ متهكّم.

يا لها من غرفةٍ مخزية! لم يكن هنالك ستائرٌ على النّافدة، وكانت السيّدة "دايفس" تجهل أنّ فيث وأونا كانتا قد أخذتاها بالأمس لاستعمالها كأثوابٍ خلال لعبهم ونسيتا أن تعلّقاها مجدّدًا، ولكنّها ما كانت لتستطيع أن تنتقد تلك النّوافذ بشراسةٍ أكثر ولو علمت. كانت السّتائر ممزّقة، واللّوحات على الجدران مائلة والسّجادات منحرفة والمزهريّات تختنق من الأزهار الذّابلة وكان الغبار يشكّل أكوامًا، يشكّل أكوامًا حرفيًّا.

حدّثت السيّدة "دايفس" نفسها قائلة: "ما هذا المكان الذي جئنا إليه؟"

كان كلٌّ من جيري وكارل يصيحان ويتزحلقان على الدّرابزينات عندما مرّت في الرّدهة، لذا لم يلمحاها وتابعا صياحهما ولهوهما وكانت السيّدة "دايفس" مقتنعةً أنّهما كانا يفعلان ذلك عن قصد. كان ديك فيث الأليف يتخبّب في الرّدهة، ثمّ وقف عند عتبة صالة الاستقبال ونظر إليها فلم يعجبه منظرها ولكنّه لم يجازف. انتثرت السيّدة "دايفس" بأنفها بازدراء. إنّه ديرٌ جميلٌ بلا شكّ، ديرٌ جميلٌ حيث تتنزّه الدّيوك في الرّدهة وتحدّق بالنّاس برزانة.

وكزته بمظلّتها المنتفضة الحريريّة وقالت آمرة: "هشّ من هنا."

تنحّى "آدم" فقد كان ديكًا ذكيًّا كما أنّ السيّدة "دايفس" قد قضت على العديد من الدّيوك بيديها هاتين على مدى السّنوات الخمسين من عمرها حتّى أنّها كانت تبدو كالسّفّاحين. انطلق "آدم" في الرّدهة حين أقبل الكاهن.

كان السيّد ميريديث ما يزال مرتديًا خفيّ المنزل ومنامته وكان شعره الأسود يغطّي جبينه العريض بخصلاتٍ مهملة ولكنّه كان لا يزال يبدو

كالرّجل دمث الأخلاق الذي كان عليه. أمّا السيّدة "آلك دايفس"، بثوبها الحريريّ وقفّازيها وقلادات الذّهب، فقد كانت تبدو كالإمرأة الجلفة الفظّة التي كانت عليها. وأحسّ كلٌّ منهما بتضارب شخصيّته مع الآخر. تقهقر السيّد ميريديث ولكنّ السيّدة "دايفس" شمّرت عن ساعد الجدّ. لقد جاءت إلى الدّير لتعرض أمرًا على الكاهن ولم تكن تنوي إضاعة الوقت في ذلك. كانت ستقدّم له معروفًا، معروفًا عظيمًا، وكلّما أسرعت في إعلامه كان ذلك أفضل. كانت تفكّر في الأمر طيلة الصّيف إلى أن توصّلت إلى قرارٍ أخيرًا وكان ذلك كلّ ما يهمّ، هذا ما تظنّه السيّدة "دايفس". كانت قراراتها حاسمة ولا شأن لرأي أيّ أحدٍ فيها. لطالما كانت تلك عقليّتها، فحين عزمت على الزّواج من "آلك دايفس" فعلت ذلك وانتهى الأمر. لم يعلم "آلك" كيف حصل ذلك أبدًا. لذا وفي هذه الحالة، كانت السيّدة "دايفس" قد رتّبت كلّ شيءٍ كما يرضيها ولم يتبقّ أمامها الآن سوى أن تخبر السيّد ميريديث.

قالت السيّدة "دايفس" بفظاظة: "هلّا أغلقت ذلك الباب من فضلك؟ لديّ ما أقوله وهو أمرٌ مهم ولا يسعني التّحدّث مع كلّ تلك الجلبة في الخارج."

بادر السيّد ميريديث إلى إغلاق الباب، ثمّ جلس أمام السيّدة "دايفس". لم يكن مدركًا لوجودها تمامًا حتّى اللّحظة بعد. كان فكره ما يزال يصارع حجج "إيوالد" واستشعرت السيّدة "دايفس" انسلاخه عن العالم وأغاظها ذلك.

فقالت بعدوانيّة: "أتيت لأخبرك يا سيّد ميريديث أنّني قرّرت تبنّي أونا."

حدّق إليها السيّد ميريديث بذهول غير قادرٍ على فهم كلامها: "تبنّي أونا؟"

"أجل. كنت أفكّر في الأمر لبعض الوقت. لطالما فكّرت في تبنّي

طفلٍ منذ وفاة زوجي. ولكنّه كان من الصّعب إيجاد طفلٍ ملائم، فهناك قلّة من الأطفال الّذين قد أرغب بإيوائهم في منزلي. وما كنت لأفكّر في إيواء طفلٍ مشرّدٍ أو نفايةٍ من الحثالة على الإطلاق. لقد توفّي أحد الصّيّادين من الميناء الخريف الفائت تاركًا وراءه ستّة أطفال. فحاول النّاس أن يجعلوني أتبنّى أحدهم، ولكنّني سارعت في إفهامهم أنّني لن أفكّر في تبنّي قمامةٍ كهؤلاء. لقد قام جدّهم بسرقة حصان، ثمّ إنّهم كانوا جميعهم صبية، أمّا أنا فأرغب في فتاة، فتاة هادئة ومطيعة يسعني تدريبها كي تغدو آنسة. ستناسبني أونا تمامًا. سوف تغدو رائعةً إن تلقّت الرّعاية المناسبة. كم هي مختلفة عن فيث. ما كنت لأحلم في تبنّي فيث أبدًا ولكنّني سوف أتبنّى أونا وسوف أمنحها المأوى والتّنشئة الجيّدة يا سيّد ميريديث، وإن أحسنت التّصرّف فسوف أترك لها جميع أملاكي بعد موتي، ولن أسمح لأحدٍ من أقاربي بلمس فلسٍ واحد مهما كلّف الأمر وأنا مصمّمةٌ على ذلك. فقد كانت فكرة إغضابهم هي الدّافع لتفكيري بتبنّي طفلٍ في المقام الأوّل. سوف تصبح أونا فتاةً أنيقة ومتعلّمة يا سيّد ميريديث وسوف أمنحها دروسًا في الموسيقى والرّسم وأعاملها كأنّها ابنتي."

في تلك الأثناء، كان السيّد ميريديث قد أفاق كليًّا. تورّد وجهه الشّاحب وشعّ نورٌ خطيرٌ في عينيه السّوداوتين. أكانت تلك المرأة التي ينضح كلّ مسامٍ في جسدها بحبّ المال والقذع تطلب منه حقًّا أن يتخلّى عن ابنته أونا لأجلها؟ أونا، فلذة كبده الصّغيرة الكئيبة التي تمتلك عيني "سيسيليا" الطّفلة التي احتضنتها والدتها الرّاحلة وضمّتها إلى فؤادها بعد أن أُخرج الأطفال الآخرون من الغرفة وهم ينتحبون. كانت "سيسيليا" قد تشبّثت بطفلتها إلى أن فرّقت بينهما بوّابة الهلاك ونظرت إلى زوجها من فوق رأسها الصّغير وناشدته قائلة: "إعتنِ بها جيّدًا يا "جون"، فهي صغيرةٌ جدًّا ومرهفة الحسّ. في وسع الآخرين أن

يناضلو ليصلوا إلى مبتغاهم ولكنّ العالم سيجحف بها. آهٍ يا "جون"، لا أدري ما الذي سيحلّ بكما، فكلاكما في أمسّ الحاجة إليّ. ولكن عدني أن تبقيها قريبةً منك يا جون. فلتبقها قريبةً منك."

وكانت تلك آخر كلماتها باستثناء بعض الكلمات الأخرى التي لن ينساها هو وحده. وكانت هذه الطّفلة نفسها التي أعلنت السيّدة "دايفس" عن رغبتها في انتزاعها منه بكلّ برودة أعصاب. اعتدل في جلوسه ونظر إلى السيّدة "دايفس"، وبالرّغم من منامته البالية المهترئة وخفّيه الأجردين ثمّة ما أشعر السيّدة "دايفس" بقليلٍ من الوقار والهيبة التي كانت تشعر بهما إزاء رجال الدّين الذين تربّت في كنفهم. ففي آخر المطاف، ثمّة ألوهيّة غامضة تحيط بالكهنة حتّى الفقراء والرّوحانيّين وشاردي الأذهان منهم.

قال السيّد ميريديث بكياسةٍ ودماثة: "أشكر حسن نيّتك يا سيّدة "دايفس" ولكنّني لا أستطيع إعطاءك ابنتي."

نظرت إليه السيّدة "دايفس" بذهول، فهي لم تتوقّع رفضه البتّة.

ثمّ قالت بانشداه: "لم يا سيّد ميريديث لا بدّ أنّك فقدت صـ... لا بدّ أنّك لا تعني ما تقوله. ينبغي لك أن تعيد النّظر في الأمر. فكّر مليًّا في جميع المرغّبات التي في وسعي منحها إيّاها."

"لا داعي لإعادة النّظر في الأمر يا سيّدة دايفس، محالٌ أن أوافق. لن تفلح جميع المرغّبات الدّنيويّة التي في وسعك أن تهبيها إيّاها في تعويضها فقدان حنان الأب وعطفه. أشكرك مجدّدًا ولكنّ الأمر لا يستحقّ التّفكير."

أثارت خيبة الأمل السّخط في نفس السيّدة "دايفس" بشكلٍ يفوق قدرة تحمّلها المعتادة، فانقلب وجهها المحمرّ البغيّ بنفسجيًّا وارتعش صوتها وقالت مستهزئة: "حسبتك ستسرّ وتنفرج أساريرك بالسّماح لي بأخذها."

سأل السيّد ميريديث بهدوء: "ولم ظننت ذلك؟"

ردّت السيّدة "دايفس" بازدراء: "لأنّه لم يحسب أيّ أحدٍ أنّك تلقي بالًا لأيّ من أطفالك على الإطلاق. فأنت تهملهم بشكلٍ مخزٍ، هذا ما يقوله الجميع. أولئك الأطفال لا يحصلون على كفايتهم من الطّعام وليسوا متأنّقين كما أنّهم غير مثقّفين بتاتًا. تكاد مجموعةٌ من الهنود الهمجيّة تتمتّع بحسن الأخلاق أكثر ممّا يفعلون. أنت لا تنو القيام بواجبك كوالد، فقد سمحت لطفلةٍ مشرّدة أن تحضر إلى هنا وتقيم بينهم لأسبوعين ولم تلحظ وجودها حتّى، طفلةٌ تفرط في الشّتائم كما سمعت. كما أنّك ما كنت لتعبأ بالأمر لو أنّ أطفالك أصيبوا بعدوى الجدريّ بسببها. ثمّ إنّ فيث قدّمت ذلك العرض حيث راحت تلقي المواعظ في ذلك الخطاب! كما أنّها امتطت خنزيرًا في الشّارع أمام عينيك حسبما فهمت. إنّ طريقة تصرّفهم تفوق الخيال وأنت لا تحرّك ساكنًا أبدًا في سبيل ردعهم أو محاولة تعليمهم الصّواب من الخطأ. والآن حين أعرض عليك أن أمنح أحدهم المأوى المناسب والآفاق الملائمة، ترفض وتقوم بإهانتي. يا لك من والدٍ صالح لتحدّثك عن حبّك لأطفالك واهتمامك بهم!"

قال السيّد ميريديث: "طفح الكيل يا امرأة!" ثمّ نهض ونظر إلى السيّدة "دايفس" بعينين أضعفتا قلبها وردّد قائلًا:

"طفح الكيل. لا أودّ أن أسمع أيّ كلمةٍ أخرى يا سيّدة "دايفس"، لقد تفوّهت بما يكفي. قد أكون توانيت في واجبي كوالدٍ في بعض النّواحي، ولكنّك لست مخوّلةً لتذكيري بذلك لا سيّما بتلك الألفاظ التي استخدمتها. أتمنّى لك نهارًا سعيدًا."

لم تبادله السيّدة دايفس بتمنّيها له نهارًا سعيدًا أو بأيّ شيءٍ من هذا القبيل، ولكنّها انصرفت. وبينما هي تمرّ من جانب الكاهن، إذ بعلجومٍ ربلٍ كبيرٍ، كان كارل قد أخفاه تحت الأريكة، يثب تحت قدميها.

صاحت السيّدة "دايفس" وفي محاولتها تجنّب الدّوس على المخلوق الشّنيع، فقدت توازنها ومظلّتها ولكنّها لم تقع تمامًا بل ترنّحت وتهادت في الغرفة بطريقةٍ مهينة وارتطمت بالباب فانخضّت من رأسها إلى أخمص قدميها. شكّ السيّد ميريديث، والذي لم يكن قد لمح العلجوم، بأنّها أصيبت بنوبةٍ شلليّة أو سكتيّة فهرع لإسعافها. ولكنّ السيّدة "دايفس" أبعدته بينما كانت تغطّي قدميها.

وبالكاد صرخت قائلة: "لا تجرؤ على لمسي. أظنّ إنّها إحدى أفعال أطفالك مجدّدًا. هذا المكان لا يناسب امرأةً موقّرةً مثلي. هات مظلّتي وآلك عنّي. أنا لن أطأ عتبة ديرك أو كنيستك بعد الآن."

انتشل السيّد ميريديث المظلّة الباهرة بوداعةٍ كافية وأعطاها إيّاه. التقفتها السيّدة "دايفس" وسارت إلى الخارج. كان جيري وكارل قد عدلا عن التّزحلق على الدّرابزين، وكانا الآن جالسين على حافّة الشّرفة برفقة فيث. ومن المؤسف أنّ ثلاثتهم كانوا يغنّون ملء حناجرهم اليافعة أغنية "ستقع مصيبةٌ في البلدة القديمة هذه اللّيلة" ظنّت السيّدة دايفس أنّ الأطفال كانوا يقصدونها بالأغنية لا غير، فلوّحت بمظلّتها إليهم وقالت:

"والدكم أحمق وثلاثتكم مجموعةٌ من الأوغاد وتستحقّون الجلد لمدى الحياة."

صاحت فيث: "هو ليس كذلك."

وصاح الفتيان: "ونحن لسنا كذلك." ولكنّ السيّدة "دايفس" كانت قد رحلت بالفعل.

قال جيري: "يا للهول، تبدو غاضبة! وماذا تعني بقولها "أوغاد" على أيّة حال؟"

تمشّى السيّد ميريديث ذهابًا وإيابًا في صالة الاستقبال لبضعة دقائق ثمّ عاد إلى مكتبه وابترك فيها ولكنّه لم يعد إلى تفكيره بألوهيّة ألمانيا إذ

كان ملتاثًا جدًّا لذلك. كانت السيّدة دايفس قد أيقظته إلى أقصى الحدود. أكان حقًّا والدًا متوانيًا ومهملًا كما اتّهمته؟ أكان حقًّا قد أغفل بكلّ خزيٍ الرّخاء الجسديّ والرّوحي لأطفاله اليتامى الأربعة الّذين لا يملكون سواه؟ أكان النّاس يتحدّثون بهذا الشّأن بتلك القسوة كما أكّدت السيّدة "دايفس"؟ لا بدّ من ذلك إذ أنّ السيّدة "دايفس" قد جاءت لتطلب أونا بكامل ثقةٍ واقتناع بأنّه سيسلّمها الطّفلة بصدر رحب وعدم اكتراث كما قد يسلّم المرء قطّة شاردة غير مرحّبٍ بها. وإن كانت هذه هي الحال، فما العمل إذًا؟

تأوّه "جون ميريديث" وتابع سيره ذهابًا وإيابًا في الغرفة المعفّرة الفوضويّة. ما الذي في وسعه أن يفعله؟ كان يحبّ أطفاله حبًّا جمًّا كما يحبّ جميع الآباء أطفالهم وكان واثقًا بأنّ أطفاله، وبالرّغم من محاولة السيّدة "دايفس" أو أيّ من أمثالها لهزّ هذه الثّقة، أنّ أطفاله يتفانون في حبّهم له. ولكن أكان حقًّا مخوّلًا كي يكون مسؤولًا عنهم؟ كان مدركًا لنقاط ضعفه وحدوده أكثر من أيّ شخصٍ آخر. كانت الحالة تتطلّب وجود امرأةٍ طيّبةٍ وتأثيرها وحسن تمييزها ولكن ما السّبيل لتجهيز ذلك؟ حتّى وإن استطاع أن يستدعي مدبّرة منزلٍ بهذه الصّفات، فإنّ ذلك سيكون كفيلًا بتجاهل الخالة مارثا على الفور فهي كانت تؤمن بأنّها ما زالت قادرةً على القيام بكلّ ما هو ضروريّ وملائم، وما كان يستطيع أن يجرح تلك العجوز المسكينة أو أن يهينها، فلطالما أحسنت إليه ولأسرته، وكم كانت صالحةً ووفيّةً لسيسيليا! كما أنّ سيسيليا طلبت منه أن يراعي مشاعر الخالة مارثا. تذكّر فجأةً أنّ الخالة مارثا كانت قد لمّحت ذات مرّةٍ إلى أنّه يجب أن يتزوّج ثانيةً، فشعر أنّها لن تمتعض من زوجته كما قد تمتعض من مدبّرة منزلٍ أخرى ولكنّ ذلك كان من المحال. فهو لم يكن يرغب في الزّواج مجدّدًا ولم يكن مهتمًّا أو قادرًا على أن يحمل نفسه على الاهتمام بأي أحد. فما السّبيل إذًا؟

فجأةً، خطرت في باله فكرة الذّهاب إلى إنجلسايد والتّناقش في متاعبه مع السيّدة بلايث. كانت السيّدة بلايث من النّساء القليلات التي لا يشعر بجوارها أبدًا بأنّه خجولٌ أو معقود اللّسان فقد كانت دائمًا متفهّمةً ومنعشة، وعساها قادرة على اقتراح بعض الحلول لمشاكله وحتّى وإن لم تستطع فإنّ السيّد ميريديث كان يشعر بأنّه في حاجةٍ إلى رفقة شخصٍ موقّرٍ بعد جرعة الفظاظة التي تلقّاها من السيّدة دايفس، شيءٍ يزيل أثرها على روحه.

إرتدى ملابسه على عجل وتناول عشاءه بيقظةٍ أكثر من العادة، فأدرك أنّ الوجبة كانت غثّةً ثمّ نظر إلى أطفاله؛ كانوا يبدون زاهرين وأنّهم يتمتّعون بصحّةٍ جيّدةٍ بما يكفي، جميعهم باستثناء أونا التي لم تكن صحيحة البدن بتاتًا حتّى عندما كانت والدتها ما تزال على قيد الحياة. كانوا جميعهم يتضاحكون ويتحادثون، كانوا يبدون سعداء بلا ريب ولا سيّما كارل، ذلك أنّ أجمل عنكبوتين لديه كانا يدبّان حول طبق عشائه. كانت أصواتهم سارّةً ولم تبد آداب سلوكهم سيّئة، فقد كانوا لطفاء ومراعين لمشاعر بعضهم البعض، غير أنّ السيّدة "دايفس" قد ذكرت أنّ سلوكهم كان حديث رعايا الكنيسة.

حين خرج السيّد ميريديث من البوّابة، مرّ الطّبيب بلايث وزوجته بعربتهم عند الطّريق المؤدية إلى "لوبريدج" فوهنت عزيمة الكاهن. لا جدوى من الذّهاب إلى إنجلسايد إن لم تكن السيّدة بلايث هناك، وكان يتوق إلى صحبة أحدهم أكثر من أيّ وقتٍ آخر. وبينما حدّق بالمنظر الطّبيعيّ أمامه بشيءٍ من القنوط، عكست أشعّة الشّمس على نافذة منزل أسرة "ويست" القديم فوق التلّة. كان المنزل يتوهّج بتفاؤلٍ كأنّه بصيص أمل. وفجأةً تذكّر روزماري و"إيلين ويست"، وشعر أنّه قد يستسيغ بعضًا من أحاديث إيلين اللّاذعة، شعر أنّه قد يستمتع برؤية ابتسامة روزماري العذبة وعينيها الزّرقاوين الملكيتين والهادئتين

مجدّدًا. ما كانت كلمات الشّاعر السيّد "فيليب سيدني"؟ "سلوانٌ دائمٌ في محيّا" أجل تلك العبارة تليق بها تمامًا وكان في حاجةٍ إلى السّلوان. وفكّر في زيارتها إذ كان يذكر أنّ إيلين طلبت إليه أن يزورهما بين الفينة والفينة، كما أنّه ما زال عليه أن يعيد إلى روزماري كتابها قبل أن ينسى. وانتابه شكٌّ مريبٌ بأنّه هناك العديد من الكتب في مكتبته التي كان قد استعارها في شتّى الأوقات والأماكن ولكنّه نسي إعادتها. وكانت مهمّته هي أن يمنع حصول ذلك في تلك الحالة. لذا عاد إلى مكتبه وأحضر الكتاب ثمّ نزل وادي قوس المطر.



15
مزيدٌ من النّميمة



مساء اليوم التّالي الذي دُفنت فيه السيّدة "ميراموراي" من الميناء، حضرت كلٌّ من الآنسة كورنيليا وماري فانس إلى إنجلسايد. ثمّة بعض الأمور التي أرادت الآنسة كورنيليا أن تزيحها عن صدرها وبالطّبع جرى الحديث عن المأتم برمّته. تجادلت كلٌّ من سوزان والآنسة كورنيليا بهذا الشّأن بين بعضهما البعض. لم تكن آن تشارك بمثل تلك الأحاديث الشّنيعة أو تستمتع بها، فجلست بعيدًا تتأمّل شعلة أزهار الدّهليّة الخريفيّة في الحديقة والميناء الحالم المتألّق تحت سماء مغيب شهر أيلول وجلست ماري إلى جانبها، تحيك بوداعة ولكنّ قلبها كان في وادي قوس المطر حيث تصاعدت أصوات ضحكات الأطفال، ولكنّ أناملها كانت محطّ نظر الآنسة كورنيليا. كان عليها أن تحبك خيوط جواربها للعديد من الجولات قبل أن يتسنّى لها أن تذهب إلى الوادي. استمرّت ماري بالحياكة بصمت ولكنّها صرّت أذنيها.

قالت الآنسة كورنيليا وكأنّها تطلق حكمًا قضائيًا: "أنا لم أر جثمانًا بهذا الجمال في حياتي. لطالما كانت "ميرا موراي" امرأةً حسناء، فقد كانت تنتمي لأسرة "كوري" في "لوبريدج" ولطالما عُرفت أسرة

"كوري" بجمال مظهرهم."

تنهّدت سوزان وقالت: "قلت للجثمان حين مرّ بقربي: "أيتّها المسكينة، آمل أنّك سعيدةٌ كما يبدو عليك." هي لم تتغيّر كثيرًا. إنّ الفستان الذي كانت ترتديه هو نفسه الفستان ذو النّسيج الحريريّ الذي ابتاعته لزفاف ابنتها منذ أربعة عشر عامًا. غير أنّ عمّتها أخبرتها لاحقًا أن تبقيه لجنازتها ولكنّ "ميرا" ضحكت وقالت: "قد ألبسه في جنازتي يا عمّتي ولكنّني أودّ أن أتهنّأ به قبل ذلك." وحريٌّ بي أن أقول أنّها فعلت. لم تكن "ميرا موراي" امرأةً تفكّر بجنازتها قبل موتها. حين رأيتها بعد ذلك للعديد من المرّات تستمتع بصحبة الآخرين قلت في نفسي: "أنت امرأةٌ حسناء يا "ميرا موراي" وذلك الفستان يليق بك ولكنّه سيصبح كفنك على الأرجح في آخر المطاف." وحدث ما قلته كما ترين يا سيّدة مارشال إيليوت."

تنهّدت سوزان بشدّة مجدّدًا، كانت مستمتعةً بوقتها إلى أقصى حدّ. كانت الجنازات موضوع حديثٍ مبهجٍ حقًّا.

قالت الآنسة كورنيليا: "لطالما رغبت في التعرّف على ميرا. لقد كانت جذلةً وبشوشةً على الدّوام وتبعث السّعادة في نفس المرء بمجرّد مصافحته."

أكّدت سوزان قولها قائلة: "هذا صحيح. أخبرتني زوجة أخيها، أنها حين أخبرها الطّبيب أنّه ليس في وسعه أن يفعل أيّ شيءٍ لها، قالت بسرور "حسنًا، إن كانت تلك هي الحال فأنا ممتنّةٌ أنّ الوقاية قد انتهت وأنّه لن يكون عليّ مواجهة تنظيف المنزل الخريفيّ. لطالما راق لي تنظيف المنزل في الرّبيع ولكنّني بغضت ذلك في الخريف. سوف أتحرّر من ذلك هذه السّنة، حمدًا للّه." هناك من قد يسمّي ذلك فكاهةً يا سيّدة مارشال إيليوت وأظنّ أنّ زوجة أخيها شعرت ببعض الخجل من ذلك، فقد قالت أنّ مرض ميرا قد أصابها بدوار بعض الشّيء،

ولكنّني قلت: "كلّا يا سيّدة موراي، تلك هي طريقة ميرا في النّظر إلى الجانب المشرق."

قالت الآنسة كورنيليا: "كانت أختها لويلا عكسها تمامًا. لم تكن تؤمن بالجانب المشرق، كان العالم بالنّسبة إليها مظلمًا، عالمٌ من السّواد ودرجات الرّماديّ. وكانت دائمًا تعلن أنّها ستموت في غضون أسبوعٍ أو ما شابه لسنوات. وكانت تخبر أسرتها وهي تئنّ: "لن أكون عبئًا عليكم طويلًا." وإن جازف أيّ منهم في التطرّق إلى التّحدّث عن خططهم المستقبليّة البسيطة، كانت تئنّ كذلك وتقول "آهٍ أنا لن أكون هنا حينها.". حين كنت أذهب لزيارتها، كنت أوافقها الرّأي دائمًا وكانت دائمًا ما تشعر بالامتعاض لتحسّن حالها لعدّة أيّامٍ لاحقة. باتت صحّتها أفضل الآن ولكنّها ما زالت قنوطة. كانت ميرا مختلفةً عنها كلّ الاختلاف، كانت دائمًا تقول أو تفعل ما في وسعها لتحسّن مزاج أحدهم. ولربّما يكون لزوجيهما علاقةٌ بذلك. كان زوج لويلا متوحّشًا، صدّقيني، في حين كان جيم موراي شخصًا خلوقًا، بالنّسبة لرجل. لقد بدا منفطر الفؤاد اليوم. أنا لا أشعر بالأسف على الرّجال عادةً في مآتم زوجاتهم ولكنّني شعرت بالأسف على جيم موراي."

قالت سوزان: "لا عجب في أنّه بدا حزينًا. فهو لن يجد زوجةً كميرا ثانيةً في أيّ وقتٍ قريب. قد لا يحاول ذلك، فأطفاله لم يعودوا صغارًا وفي وسع ميرابيل تدبّر شؤون المنزل، ولكن لا أحد يعلم ما قد ينوي رجلٌ أرمل أن يفعل ولكنّني عن نفسي لن أحاول."

قالت الآنسة كورنيليا: "سنفتقد وجودها في الكنيسة، لقد كانت دؤوبةً في عملها. لم يقف شيءٌ في وجهها أبدًا. إن عجزت عن تخطّي المصاعب، كانت تراوغها. وإن عجزت عن مراوغتها، كانت تتظاهر بأنّها غير موجودة. "سأبقى موطّدة العزم وقويّة الإرادة في وجه الشّدائد حتّى نهاية رحلتي." هذا ما أخبرتني به ذات مرّةٍ. وها هي الآن قد أنهت رحلتها."

كانت آن قد عادت لتوّها من عالم الأحلام، فسألت فجأةً: "أتظنّين ذلك؟ لا يسعني تصوّر أنّ رحلتها قد انتهت. أفي وسعك أنت أن تتصوّريها جالسةً مكتوفة اليدين؟ تلك الرّوح التوّاقة اللّهوفة ذات الطّابع الغماريّ؟ لا، أظنّ أنّها بالموت قد افتتحت بوّابةً وحسب وعبرت من خلالها إلى مغامراتٍ جديدة."

ردّت الآنسة كورنيليا: "ربّما، ربّما. أتعلمين يا عزيزتي آن، أنا لم أقتنع أبدًا بمعتقد الرّاحة الأبديّة، ولكنّني آمل ألّا يكون قولي هذا مروق عن الدّين. أرغب في أن أهمّ بالعمل في الجنّة كما أفعل هنا. وآمل أنّه ثمّة بديلٌ إلهي للفطائر والكعك، شيءٌ يجب صنعه. بالطّبع، لا بدّ أن يرهق المرء في بعض الأحيان، وكلّما تقدّم المرء في السنّ زاد إرهاقه ولكن قد يظنّ المرء أنّ أكثر النّاس إرهاقًا يرتاحون في وقتٍ وجيزٍ في عالم الخلد، باستثناء الرّجال الكسالى."

قالت آن: "حين أقابل ميرا موراي من جديد، أرغب في أن تقبل إليّ بخفّةٍ ورشاقة ضاحكة تمامًا كما كانت تفعل هنا دائمًا."

قالت سوزان مصعوقة: "آهٍ يا زوجة الطّبيب العزيزة، أنت لا تظنّين حقًّا أنّ ميرا ستكون ضاحكةً في العالم الآخر، أليس كذلك؟"

"ولم لا يا سوزان؟ أتعتقدين أنّنا سنكون باكين هناك؟"

"لا لا يا زوجة الطّبيب العزيزة. لا تسيئي فهمي. أنا لا أظنّ أنّنا سنكون ضاحكين أو باكين."

"ماذا إذًا؟"

قالت سوزان مرغمة: "في الواقع، في رأيي أنّنا يجب أن نبدو مهيبين ووقورين فحسب."

قالت آن محاولةً أن تبدو مهيبةً بما يكفي: "أوتظنّين فعلًا يا سوزان أنّني أو ميرا موراي في وسعنا أن نبدو مهيبتين ووقورتين طيلة الوقت، طيلة الوقت يا سوزان؟"

اعترفت سوزان رغم أنفها وقالت: "حسنًا، أبعد ما قد أصل إليه هو قولي أنّ على كليكما الابتسام من وقتٍ لآخر ولكنّني لا أستطيع أبدًا أن أعترف أنّنا سنضحك في الجنّة. تبدو الفكرة وقحةً للغاية يا زوجة الطّبيب العزيزة."

قالت الآنسة كورنيليا: "حسنًا فلنعد إلى أرض الواقع، من تظنّان أنّنا يجب أن نعيّن لاستلام صفّ ميرا في مدرسة الأحد؟ كانت "جوليا كلو" تعلّم فيه منذ أن أصيبت ميرا بالمرض ولكنّها ستعود للبلدة مع إقبال فصل الشّتاء وسوف ينبغي لنا تعيين أحدٍ آخر مكانها."

قالت آن: "سمعت أنّ السيّدة "لوري جاميسون" أرادت هذا المنصب. لقد تردّدت أسرة جاميسون إلى الكنيسة كثيرًا منذ أن انتقلوا من "لوبريدج" للعيش في جلين."

قالت الآنسة كورنيليا بارتياب: "وفّادٌ جدد! انتظري حتّى يبدأون بالتردّد إليها لمدّة سنة!"

قالت سوزان بجديّة: "لا يمكن الاعتماد على السيّدة جاميسون ولو قليلًا يا زوجة الطّبيب العزيزة. لقد فارقت الحياة ذات مرّة وحين كانوا يأخذون مقاساتها لأجل نعشها بعد أن بسطوا جثمانها، وإذ بها تعود إلى الحياة! أنت تعلمين يا زوجة الطّبيب العزيزة أنّه من المحال الاعتماد على امرأةٍ كهذه."

قالت الآنسة كورنيليا: "قد تصبح ميثوديّة في أيّ لحظة. سمعت أنّهم يتردّدون إلى كنيسة الميثوديّين في "لوبريدج" بقدر تردّدهم إلى كنيسة المشيخيّين. أنا لم أقبض عليهم بالجرم المشهود هنا بعد، ولكنّني لا أوافق تعيين السيّدة جاميسون في مدرسة الأحد، وبالرّغم من ذلك لا يجدر بنا مضايقتهم فنحن نخسر الكثير من أعضائنا سواءً بسبب الموت أو حالات الغضب. لقد اعتزلت السيّدة "آلك دايفس" الكنيسة ولا أحد يدري ما السّبب. لقد أخبرت المدراء أنّها لن تنفق

فلسًا واحدًا لراتب السيّد ميريديث. وبطبيعة الحال، يقول معظم النّاس أنّ الأطفال هم من أساؤوا إليها ولكنّني، ولسببٍ ما، أشكّ في ذلك. لقد حاولت استدراج فيث للكلام ولكن كلّ ما قالته هو أنّ السيّدة "دايفس" قد حضرت لمقابلة والدها وأنّها كانت تبدو صافية المزاج ثمّ غادرت وقد فار فائرها ناعتةً إيّاهم جميعًا بالأوغاد!"

قالت سوزان بشراسة: "أوغاد؟ أتنسى السيّدة "دايفس" أنّ خالها كان متّهمًا بتسميم زوجته؟ أعلم أنّ التّهمة لم تثبت عليه يا زوجة الطّبيب العزيزة وأنّه لا يجدر بالمرء تصديق كلّ ما يسمعه. ولكنّني لو كنت أملك خالًا توفيّت زوجته دون أيّ سببٍ مقنع، ما كنت لأنعت أطفالًا أبرياء بالأوغاد."

قالت الآنسة كورنيليا: "الفكرة هي أنّ السيّدة "آلك دايفس" تسهم كثيرًا في التّبرعات وأنّ تعويض خسارتها سيشكّل معضلة. وإن قامت بتحريض آل "دوجلاس" الآخرين ضدّ السيّد ميريديث، وممّا لا شكّ فيه أنّها ستحاول فعل ذلك، فسيتوجّب عليه أن يرحل."

قالت سوزان: "لا أظنّ أنّ السيّدة "آلك دايفس" محبوبةٌ بين باقي أفراد العشيرة، لذا على الأرجح أنّها لن تكون قادرةً على التّأثير فيهم."

"ولكنّ آل دوجلاس هؤلاء، يتكاتفون مع بعضهم البعض وإن آذى المرء أحدهم فقد آذاهم جميعًا. لا يمكننا التّخلّي عنهم وهذا أمرٌ بديهي، فهم يسدّدون نصف الرّاتب. هم ليسوا أشخاص لئيمين. لقد اعتاد "نورمان دوجلاس" أن يدفع مئة دولارٍ في السّنة قبل رحيله."

سألت آن: "ولم رحل؟"

"زعم أنّ أحد أعضاء المجلس قد احتال عليه في صفقةٍ ضخمة، هو لم يحضر إلى الكنيسة منذ عشرين عامًا. اعتادت زوجته أن تحضر بانتظامٍ حين كانت ما تزال على قيد الحياة، يا للمسكينة، ولكنّه لم يكن يسمح لها بدفع فلسٍ واحدٍ باستثناء سنت كلّ يوم أحد فكانت تشعر

بالإذلال الشّديد. لم يكن زوجًا صالحًا لها حسب علمي على الرّغم من أنّها لم تكن تتذمّر البتّة. ولكنّها كانت تبدو مجبرةً على الإذعان دائمًا. لم يحصل "نورمان دوجلاس" على الامرأة التي كان يمنّي النّفس بها منذ ثلاثين عامًا ولم يحبّ آل "دوجلاس" أن يرضوا بأقلّ من النّخبة."

"ومن كانت الامرأة التي كان يتمنّاها؟"

"إيلين ويست، لا أظنّ أنّهما كانا مخطوبين بالتّحديد ولكنّهما ظلّا على علاقةٍ لمدّة عامين غير أنّهما انفصلا بعد ذلك ولا أحد يدري ما السّبب. أفترض أنّهما تخاصما لسببٍ تافهٍ وحسب. وبعدها، تزوّج "نورمان" من "هيستير ريس" قبل أن تخمد نيران غضبه، لقد تزوّجها لإغاظة إيلين ليس إلّا ولا شكّ في ذلك. تمامًا كالرّجال! كانت "هيستير" امرأةً طيّبة ولكنّها لم تكن تتمتّع بروحٍ متفائلة أبدًا، وقد قضى ذلك الرّجل على آخر بصيص أملٍ لديها. لقد كانت محسنةً جدًّا إلى "نورمان" ولكنّه كان في حاجةٍ إلى امرأةٍ يمكنها الوقوف في وجهه، لعلّ إيلين كانت قادرةً على جعله يعرف حدوده ولعلّه كان ليزداد حبًّا لها بسبب ذلك. فقد كان يحتقر "هيستير"، تلك هي الحقيقة، فقط لأنّها كانت تستسلم أمامه دائمًا. لقد سمعته مرّاتٍ عديدة، حين كان شابًّا قبل وقتٍ طويل، يقول: هات امرأةً جريئة، تواجهني في كلّ مرّة. ثمّ راح وتزوّج فتاةً لا تجرؤ على التّفوّه بكلمةٍ أمام رجلٍ مغفّلٍ من أمثاله. إنّ آل "ريس" هؤلاء كانوا مجرّد نباتات، صحيحٌ أنّهم مرّوا بمراحل الحياة ولكنّهم لم يعيشوها."

قالت سوزان مستذكرة: "تزوّج "روسيل ريس" من امرأته الثّانية بخاتم الأولى. وأرى أنّ ذلك كان أكثر اقتصادًا ممّا ينبغي يا زوجة الطّبيب العزيزة. كما أنّ لأخيه شاهد قبره الخاصّ في مقبرة الميناء ولكنّه يفتقد تاريخ الوفاة وهو يذهب وينظر إليه كلّ يوم أحد. قد لا

يعتبر معظم النّاس ذلك ممتعًا ولكن من الواضح أنّه يخالفهم الرّأي. للنّاس آراءٌ مختلفة عن الاستمتاع بالوقت. أمّا عن "نورمان دوجلاس"، فهو وثنيٌّ بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى، فحين سأله الكاهن السّالف عن سبب عدم مجيئه للكنيسة أجاب: ثمّة الكثير من النّساء الدّميمات هنا، أكثر ممّا ينبغي! أرغب في الذّهاب إلى رجلٍ من أمثاله يا زوجة الطّبيب العزيزة وأن أخبره بكلّ هيبة: "الجحيم في انتظارك!"

قالت الآنسة كورنيليا: "آه، "إنّ "نورمان" لا يؤمن بوجود مكانٍ كهذا. آمل أن يكتشف أنّه مخطئ حين يلقى حتفه. حسنًا يا ماري، لقد قمت بحياكة ثلاث بوصاتٍ ويمكنك الآن أن تنصرفي للّعب مع الأطفال لنصف ساعة."

لم تحتج ماري إلى المزيد من التّعليمات، فهرعت إلى وادي قوس المطر بسرعةٍ توازي سعادتها الغامرة. وحدث أن أخبرت فيث في مجرى الحديث بكلّ ما يخصّ السيّدة "آلك دايفس."

ختمت ماري قائلة: وسوف تقوم السيّدة "دايفس" بتحريض جميع آل "دوجلاس" ضدّ والدك وسيتوجّب عليه حينها أن يغادر قرية جلين لأنّهم لن يتمكّنوا من تسديد راتبه، هذا ما تقوله السيّدة إيليوت. أقسم لك أنّني أجهل ما الحلّ. لو أنّ العجوز "نورمان دوجلاس" يعود إلى الكنيسة ويدفع المال، لما كانت الأمور بهذا السّوء. ولكنّه لن يفعل وسيغادر آل "دوجلاس" وسيتوجّب عليكم أن ترحلوا."

اصطحبت فيث أشجانها إلى الفراش في تلك اللّيلة. كانت فكرة الرّحيل عن قرية جلين لا تُطاق، فهي لن تجد أترابًا كأطفال أسرة بلايث في كلّ بقاع الأرض. لقد خُلع فؤادها الصّغير حين غادرت وأسرتها "ماي ووتر" وذرفت الدّموع المريرة حين افترقت عن أترابها هناك وعن الدّير حيث عاشت والدتها، وحيث لفظت أنفاسها الأخيرة. لم يكن في وسعها أن تستغرق في التّفكير بعيش العذاب من جديد وبقسوةٍ

أكبر. لم يكن في وسعها مغادرة "جلين سانت ماري" ووادي قوس المطر المحبّب وتلك المقبرة الثّمينة.

تأوّهت فيث غارسةً رأسها في وسادتها وقالت: "إنّه لأمرٌ مريعٌ أن ينتمي المرء إلى أسرة الكاهن، فالكأس تنتزع من بين يديه بمجرّد أن يضع شفتيه عليها. أنا لن أتزوّج من كاهنٍ مطلقًا مهما كان لطيفًا."

جلست فيث في سريرها ونظرت عبر النّافذة التي تحتضنها أوراق الكرمة. كانت اللّيلة هادئةً والصّمت مخيّمًا باستثناء صوت أنفاس أونا الهادئة. أحسّت فيث بوحدةٍ موحشةٍ في العالم. كان في وسعها رؤية "جلين سانت ماري" ترقد تحت سماء ليلةٍ خريفيّةٍ مرصّعة بالنّجوم. كان هناك نورٌ يشعّ فوق الوادي قادمٌ من غرفة الفتيات في إنجلسايد ونورٌ آخر من غرفة والتر وتساءلت فيث ما إن كان الفتى يعاني من الضّراس مجدّدًا، ثمّ أطلقت تنهيدةً تنمّ عن شيءٍ من الغبطة إزاء كلٍّ من نان ودي، إذ كانت الفتاتان تملكان والدةً ومنزلًا مستقرًّا ولم تكونا تعيشان تحت رحمة أناسٍ يستشيطون غضبًا بلا سبب، وينعتونهما بالأوغاد. بعيدًا عن قرية جلين وبين الحقول الرّاقدة بسكينة، كان نورٌ آخر يتوهّج، وأدركت فيث أنّه كان يشعّ في منزل "نورمان دوجلاس"، إذ شاع عنه أنّه كان يسهر اللّيالي مستغرقًا في المطالعة. كانت ماري قد ذكرت أنّه إن عاد إلى الكنيسة فستعود المياه إلى مجاريها، ولم لا؟ نظرت فيث إلى نجمةٍ كبيرةٍ قريبة تتدلّى فوق شجرة التّنّوب الباسقة عند بوّابة كنيسة الميثوديّين فأُلهمت بفكرة. كانت تعلم ما الذي ينبغي فعله وكانت هي، "فيث ميريديث" عازمةً على القيام به. سوف تقوم بتصحيح كلّ شيء. ثمّ تنهّدت برضا وعادت من العالم المظلم الموحش واحتضنت أونا في الفراش.

***

16
العين بالعين



بالنّسبة لفيث، كان اتّخاذ القرارات يعني الإقدام على تنفيذها. لم تكن تضيع الوقت في التفكير. في اليوم التّالي، غادرت الدّير بمجرّد عودتها من المدرسة واتّجهت صوب جلين وانضمّ إليها والتر حين مرّت بالقرب من مكتب البريد.

فقال: "أرسلتني والدتي في مهمّةٍ لإيصال رسالةٍ إلى السيّدة إيليوت، إلى أين أنت ذاهبةٌ يا فيث؟"

أجابت فيث بتعالٍ: "أنا في طريقي لإتمام بعض الأعمال الكنيسيّة." ولم تفصح عن المزيد من المعلومات وشعر والتر أنّها كانت تزجره إلى حدٍّ ما. تبادل الإثنان أطراف الحديث بهدوءٍ لبعض الوقت. كان الجوّ دافئًا، وكان المساء عابقًا بريح الرّاتنجيّة العذب. كان جدول جلين يهدر حاملًا شحنةً من الأوراق الذّهبيّة والقرمزيّة كأنّها قوارب للجنيّات. وعُقد برلمانٌ للغربان في حقل قمح السيّد "جيمس ريس" حيث كانت تدور مشاورات بشأن رخاء أرض الغربان. اقتحمت فيث مؤتمر شهر آب بتسلّقها السّياج وإلقاء قضيبٍ حديديٍّ متصدّعٍ عليها، فاكتظّت السّماء بأجنحةٍ سوداء مرفرفة وأصوات نعيقٍ ناقمة.

نهرها والتر سائلًا: "لم فعلت ذلك؟ كانت تحظى بوقتٍ ممتع."

أجابت فيث بعبث: "آه أنا أكره الغربان فهي سوداء ومواربة وأنا متأكّدةٌ من أنّها منافقة. وهي تسرق بيوض الطّيور الصّغيرة كما تعلم، لقد رأيتها تقوم بذلك في بستاننا الرّبيع الفائت. لم أنت شاحبٌ للغاية اليوم يا والتر. هل عانيت من الضّراس مرّةً أخرى ليلة أمس؟"

ارتعش والتر.

"أجل. كـ... كان الألم شديدًا. ولم تغمض لي عينٌ، لذا رحت أسير ذهابًا وإيابًا وأتخيّل أنّني شهيدٌ مسيحيّ يرزح تحت وطأة العذاب بأوامرٍ من الإمبراطور "نيرو". لقد ساعدني ذلك كثيرًا غير أنّ الألم اشتدّ بعد ذلك فعجزت عن تخيّل أيّ شيء."

سألته فيث وقد ساورها القلق: "هل بكيت؟"

اعترف والتر قائلًا: "كلّا ولكنّني استلقيت على الأرض ورحت أئنّ. ثمّ جاءت أختاي ووضعت نان الفلفل الحرّيف في موضع الألم فزاد الطّين بلّة، ثمّ أرغمتني دي على إبقاء جرعةٍ من الماء البارد في فمي فلم أقدر على التّحمّل، لذا استدعيتا سوزان التي قالت أنّني أستحقّ ذلك لجلوسي في العليّة الباردة ونظم الشّعر السّاقط. ولكنّها أضرمت النّار في المطبخ وأتتني بقنّينة من الماء السّاخن فسكن الألم. وبمجرّد شعوري بحالٍ أفضل، أخبرت سوزان أنّ شعري ليس ساقط وأنّها ليست مخوّلةً للحكم عليها. فأجابت بأنّها حمدًا لله ليست مخوّلةً لذلك، وأنّها لا تعرف عن الأشعار سوى أنّها مجموعةٌ من الأكاذيب. أنت تعلمين يا فيث أنّ ذلك ليس صحيحًا، وذلك هو أحد الأسباب التي تجعلني شغوفًا بنظم الشّعر، إذ يمكن للمرء التّفوّه بالعديد من الأمور التي تكون صحيحةً في الشّعر بيد أنّها غير حقيقيّة في الواقع. هذا ما قلته لـسوزان ولكنّها أمرتني بالتوقّف عن الثّرثرة والعودة إلى الفراش قبل أن يبرد الماء وإلّا ستتركني لأتحقّق إن كان نظم القوافي

يشفي الضّراس وأملت أن يلقّنني ذلك درسًا."

"لم لا تذهب إلى طبيب الأسنان في لوبريدج لاقتلاع سنّك؟"

ارتعش والتر ثانيةً.

"هذا ما يريده والديّ ولكنّني لا أستطيع. ذلك سيكون مؤلمًا."

سألت فيث باستهزاء: "أتهاب ألمًا طفيفًا؟"

احمرّ والتر خجلًا.

"سيكون ألمًا عظيمًا. أنا أكره أن أتألّم، قال والدي أنّه لن يصرّ على ذهابي وأنّه سوف ينتظر إلى أن أتّخذ قرار الذّهاب بنفسي."

علّلت فيث قائلة: "ولكنّ الألم لن يدوم بقدر الضّراس. لقد أصبت بخمس نوباتٍ من الضّراس. لو أنّك تذهب إلى الطّبيب لاقتلاعها، فلن تعاني لمزيدٍ من اللّيالي. لقد اقتلعت سنّي لدى الطّبيب ذات مرّة. صحيحٌ أنّني صرخت لبرهة ولكنّ الأمر انتهى بعد ذلك ولم يتبقّ سوى النّزيف."

صاح والتر: "إنّ النّزيف هو أسوأ ما في الأمر، فهو قبيحٌ للغاية. لقد شعرت بالغثيان حين جرحت قدم جيم الصّيف الماضي. حتّى أنّ سوزان قالت أنّني كنت أبدو وكأنّني على وشك فقدان الوعي أكثر من جيم نفسه. ولكنّني لم أطق رؤية جيم متأذٍ كذلك. هناك دائمًا من يتأذّى يا فيث وذلك مريع. كلّ ما في الأمر أنّني لا أطيق أن أرى الأشياء تتأذّى، فذلك يجعلني أرغب في الفرار بعيدًا إلى مكانٍ حيث لا يمكنني سماعها أو رؤيتها."

قالت فيث مفلتةً ضفائرها: "لا جدوى من إقامة الدّنيا وإقعادها بشأن تأذّي أيّ شخص. لا شكّ في أنّك ستضطرّ إلى الصّراخ إن آذيت نفسك بشدّة، والدّماء تحدث الفوضى بالفعل وأنا مثلك لا أحبّ رؤية الآخرين يتألّمون، ولكنّني لا أرغب في الهرب، بل أرغب في الإسراع لنجدتهم. على والدك أن يسبّب الألم للنّاس عديدًا من المرّات في

سبيل علاجهم. ماذا سيحلّ بهم إن لاذ بالفرار؟"

"أنا لم أقل أنّني سوف أهرب. قلت أنّني أرغب في الهرب وهذا أمرٌ مختلف. أودّ مساعدة النّاس أيضًا. ولكنّني أتمنّى لو لم يكن في العالم أمورٌ قبيحةٌ ومهوّلة، أتمنّى لو كان كلّ شيءٍ مبهج وزاه."

قالت فيث: " حسنًا، فلنفكّر في الأمور المبهجة إذًا. ففي آخر المطاف، ثمّة العديد من الجوانب المرحة في الحياة. ما كنت لتصاب بالضّراس لو كنت بين عداد الموتى ولكن على الرّغم من ذلك، ألا تفضّل أن تكون حيًّا على أن تكون ميتًا؟ سأختار الحياة ألف مرّة. آه، ها هو "دان ريس"، لقد نزل إلى الميناء لاصطياد الأسماك."

قال والتر: "أنا أمقت دان ريس."

"وأنا كذلك وذلك ينطبق علينا جميعًا نحن الفتيات. سوف أمرّ من جانبه دون أن أعيره البال. راقبني وحسب!"

وهكذا مرّت فيث من جانب "دان" متبخترة ورافعةً أنفها وقد علت سيماها تعابير الازدراء، فألجمت في نفس الفتى الذي استدار وصاح مهاترًا إيّاها تصاعديًّا: "فتاة الخنزير! فتاة الخنزير! فتاة الخنزير!"

تابعت فيث سيرها ورغم أنّها بدت لامباليةً غير أنّ شفتها ارتجفت قليلًا إرب فداحة الإهانة. كانت تعلم أنّها لم تكن ندًّا لدان ريس حين يتعلّق الأمر بتبادل الإهانات وتمنّت لو كان جيم بلايث برفقتها عوضًا عن والتر. لو أنّ دان ريس تجرّأ على نعتها بفتاة الخنزير على مسمعٍ من جيم، لمسح جيم الأرض به، ولكن لم يخطر في بال فيث أن تتوقّع من والتر القيام بالمثل أو أن تلومه على عدم القيام بذلك. كانت تعلم أنّ والتر لم يتشاجر مع الصّبية الآخرين قطّ، والأمر نفسه ينطبق على "تشارلي كلو" من الطّريق الشّمالي. والغريب في الأمر أنّ فيث كانت تبغض تشارلي باعتباره ندلًا لكن بيد أنّها لم تفكّر في احتقار والتر قطّ. والأمر ببساطة هو أنّها كانت تؤمن أنّ والتر ينتمي لعالمٍ آخر، عالم

تسوده عاداتٌ مختلفة. في تلك اللّحظة، كانت فيث تتوقّع أن يقوم ملاكٌ حالمٌ صغير على هيئة والتر بلايث بلكم القذر الأنمش دان ريس، وما كانت لتلوم الملاك ولم تكن تلوم والتر بلايث ولكنّها كانت تتمنّى لو أنّ ذويّ العزم والثّبات جيم أو جيري كانا متواجدين هناك بينما استمرّت قذيعة "دان"بالتوقّد في نفسها.

لم يعد والتر شاحبًا، لقد احمرّ وجهه وغشيت عيناه بالعار والغضب. كان يعلم أنّه كان يجدر به الثّأر لـفيث. لو كان جيم مكانه، لانقضّ على "دان" وأرغمه على سحب كلامه رغم أنفه وكان "ريتشي وورين" ليذلّل "دان" بإهاناتٍ أوخم من التي قالها ذاك الأخير لـفيث. ولكنّ والتر كان، وبكلّ بساطةٍ، عاجزًا عن شتم الآخرين. كان يعلم أنّه سيُهزم في تلك المواجهة، فمن المحال أن يتصوّر القذائع السّفيهة والبذيئة التي كان "دان ريس" ضليعًا بها دون قيود أو أن يتفوّه بها. أمّا بالنّسبة إلى المحاولة بقبضته فـوالتر كان عاجزًا عن التّعارك، كان يكره ذلك المفهوم، فالتّعارك قاسٍ ومفجع، والأسوأ من ذلك كلّه أنّه قبيح. لم يكن والتر قادرًا أبدًا على فهم اغتباط جيم في المعارك الطّارئة ولكنّه كان يتمنّى لو في استطاعته معاركة "دان ريس". كان يشعر بالعار الشّديد لأنّ "فيث ميريديث" أُهينت في حضوره ولأنّه لم يحاول معاقبة الفاعل وكان متأكّدًا أنّها لا بدّ من أنّها تحتقره الآن فهي لم تتحدّث إليه منذ أن ناداها "دان" بفتاة الخنزير وكان مسرورًا حين وصلا إلى مفترق دربيهما.

شعرت فيث بالرّاحة أيضًا، ولكن لسببٍ مختلف. كانت تريد أن تكون وحيدةً لأنّها أحسّت فجأةً بالقلق إزاء مهمّتها. كان اندفاعها قد هدأ لا سيّما بعد أن جرح "دان" كبرياءها. كان عليها تأدية مهمّتها ولكنّها فقدت الحماس الذي كان يؤازرها. كانت ذاهبةً كي تقابل "نورمان دوجلاس" وتطلب إليه العودة إلى الكنيسة وكان الخوف قد

بدأ يتسلّل إلى نفسها. الأمور التي كانت تبدو سهلةً وبسيطةً في جلين كانت في الواقع مختلفةً للغاية هنا. وقد سبق أن سمعت الكثير عن "نورمان دوجلاس" وكانت تعلم أنّ حتّى أكبر الصّبية في المدرسة كانوا يهابونه. وافترضت أنّه سيشتمها فقد سمعت أنّه يميل لذلك. لم تكن فيث قادرةً على تحمّل الشّتائم إذ كانت تقهرها أكثر من الضّربات الجسديّة بدرجات ولكنّها ستناضل، "فيث ميريديث" تناضل دائمًا. قد يضطرّ والدها إلى ترك قرية جلين إن لم تفعل.

وصلت فيث عند نهاية الطّريق إلى منزلٍ كبير من الطّراز القديم يسير أمامه صفٌّ من الجنود. كان "نورمان دوجلاس" جالسًا على الشّرفة الخلفيّة يقرأ صحيفة وكان كلبه الضّخم بجواره. وكانت مدبّرة منزله، السيّدة "ويلسن"، تحضّر العشاء في المطبخ حيث تصاعدت أصوات طرطقة الأطباق، أصواتٌ غاضبة. إذ كان "نورمان دوجلاس" قد تشاجر مع السيّدة "ويلسن" للتوّ وكان كلاهما في حالة غضبٍ شديدٍ بسبب ذلك. ونتيجةً لهذا، حين وطأت فيث الشّرفة وأخفض "نورمان دوجلاس" صحيفته، وجدت نفسها تحدّق في عينيّ رجلٍ ثائر.

كان "نورمان دوجلاس" حسن المظهر بطريقته الخاصّة. كان يملك لحيةً طويلةً تجتاح صدره العريض وشعرًا متلبّدًا أحمر. وكان جبينه النّاصع العريض خاليًا من التّجاعيد وكان ما يزال في وسع عينيه الزّرقاوين أن تتقّدا بنار الشّباب الهائج. كان في استطاعته أن يكون طيّب الخلق متى ما راق له وكان في استطاعته أن يكون مريعًا. ولسوء حظّ المسكينة فيث، والتي كانت مصمّمةً على إعادة الأمور إلى ما كانت عليه في أسرع وقت، فقد حظيت به وهو في مزاجٍ مريع.

لم يكن يعلم من تكون فنظر إليها بازدراء. كان "نورمان دوجلاس" يحبّ الفتيات الشّجاعات الضّحوكات، أمّا فيث فقد كانت شاحبةً جدًّا في تلك اللّحظة. وقد كانت من الأشخاص الذين تعني الألوان لهم كلّ

شيء. وبافتقادها لوجنتيها الحمراوتين، كانت تبدو خنوعةً وتافهةً حتّى، كانت تبدو آسفةً ومذعورة. الأمر الذي أجّج المتنّمر الخامد في قلب "دوجلاس".

فقطّب جبينه ونظر إليها بشراسةٍ ثمّ قال بصوته المدوّي: "من تكونين بحقّ السّماء؟ وما الذي تفعلينه هنا؟"

كانت تلك المرّة الأولى في حياة فيث التي تخونها فيها كلماتها. هي لم تتوقّع أبدًا أن يكون "نورمان دوجلاس" على هذه الشّاكلة وارتعدت فرائصها لمنظره. لاحظ الرّجل ذلك، ممّا زاد الطّين بلّة.

دوّى صوته مجدّدًا وقال: "ما مشكلتك؟ تبدين وكأنّك أردت أن تقولي شيئًا قبل أن يتملّكك الخوف. ما الذي يزعجك؟ تبًّا! تكلّمي، ألا تستطيعين؟"

لا. لم يكن في استطاعة فيث أن تتكلّم. أبت الكلمات أن تسعفها. ولكنّ شفتيها بدأتا بالارتعاش.

صاح نورمان: "آه لا تشرعي بالبكاء، بحقّ السّماء! أنا لا أطيق البكاء. إن كان لديك ما تقولينه، فافعلي وضعي حدًّا لهذا الأمر. لا ترمقيني بهذه النّظرات! أنا إنسان! أنا لا أملك ذيلًا! من تكونين؟ أنا أسألك، من تكونين يا فتاة؟"

لعلّ صوت "نورمان" قد وصل إلى الميناء. عُلّقت الأعمال في المطبخ وكانت السيّدة "ويلسن" الآن تصغي وتراقب كلّ ما يحدث. وضع "نورمان" يديه الضّخمتين السّمراوين على ركبتيه ثمّ انحنى إلى الأمام وراح يحدّق بوجه فيث الفزع الشّاحب. لاح فوقها كعملاقٍ شرّيرٍ قادمٍ من إحدى الحكايا الخرافيّة. أحسّت فيث أنّه كان سيلتهمها بلا ملح في أيّة لحظة.

فقالت بصوتٍ يكاد لا يتجاوز الهمس: "أنا "فيث ميريديث."

"ميريديث، ها؟ إحدى أبناء الكاهن، ها؟ لقد سمعت بك! الفتاة

التي تمتطي الخنازير وتنتهك حرمة السّبت! كم هذا جميل! ما الذي تفعلينه هنا، ها؟ ما الذي تريدينه من هذا الوثنيّ العجوز، ها؟ أنا لا أطلب المعروف من الكهنة ولا أقدّم لهم شيئًا. ما الذي تريدينه؟"

تمنّت فيث لو كانت على بعد آلاف الأميال من ذلك المكان ثمّ تمتمت ما أرادت قوله بكلّ بساطة.

"أتيت لأطلب منك أن تذهب إلى الكنيسة وتساهم في الدّفع للرّاتب."

حدّق "نورمان" بها بغضب. ثمّ انحنى للأمام ثانيةً وقال:

"أيّتها الوقحة! من الذي دفعك لذلك أيّتها الوضيعة؟ من الذي أرسلك إليّ؟"

أجابت المسكينة فيث: "لا أحد."

"أنت تكذبين. لا تكذبي عليّ! من الذي أرسلك إلى هنا؟ مستحيلٌ أن يكون والدك، صحيحٌ أنّ البراغيث أكثر نشاطًا منه ولكنّه ما كان ليرسلك للقيام بما لا يقوم به بنفسه. أعتقد أنّ جواري جلين العجائز هنّ من أرسلنك. هل أنا محقّ؟ هل أنا محقّ، ها؟"

"كلّا... لقد... لقد حضرت من تلقاء نفسي."

صاح "نورمان" قائلًا: "أتحسبينني أحمقًا؟"

قالت فيث بتحيّر وبدون أيّ نيّة في السّخرية: "لا، حسبتك رجلًا طيّبًا وحسب."

اعتدل "نورمان" في جلوسه.

"اهتمّي بشؤونك. أنا لا أريد أن أسمع منك كلمةً أخرى. لو لم تكوني ابنة الكاهن للقّنتك درسًا لتعليمك كيف تتدخّلين بما لا يعنيك. حين أحتاج الكهنة أو الأطبّاء فسأستدعيهم. حتّى ذلك الوقت، فلا شأن لي بهم. أتفهمين؟ والآن، فلتغربي عن وجهي يا وجه الجبن."

خرجت فيث وسارعت في نزول السّلالم بتهوّر ثمّ عبرت بوّابة

الفناء وصولًا إلى الممرّ. وفي منتصف الطّريق، إنجلى خوفها وحلّ مكانه شعورٌ من الوجوم الثّائر تملّكها ومع وصولها إلى نهاية الممرّ، وغر صدرها واحتدمت غيظًا وكان الشّعور لا يشبه أيّ شيءٍ قاسته في حياتها من قبل. لقد أضرمت شتائم "نورمان دوجلاس" في نفسها نيرانًا لوّاحةً متأجّجة. أن تعود إلى المنزل؟ هي؟ لا لن تفعل بل ستعود أدراجها لتخبر ذلك البعبع العجوز برأيها الصّريح فيه. سوف تريه! آه ستفعل! ستريه من يكون وجه الجبن!

استدارت فيث بلا تردّدٍ وسارت في طريق العودة. كانت الشّرفة مقفرة وكان باب المطبخ مغلقًا. ففتحت الباب دون قرعه ودخلت الغرفة. كان "نورمان دوجلاس" قد جلس لتوّه إلى مائدة العشاء ولكنّه كان ما يزال يحمل صحيفته. مشت فيث بعنادٍ عبر الغرفة وانتزعت الصّحيفة من يده ورمتها أرضًا وداست عليها، ثمّ نظرت في وجهه بعينيها المتّقدتين وخدّيها الحمراوين. كانت تبدو ككتلةٍ من الغضب الثّائر الأغرّ لدرجة أنّ "نورمان دوجلاس" بالكاد عرفها.

فدمدم بدهشةٍ أكثر من الغضب قائلًا: "ما الذي أتى بك مجدّدًا؟"

حدّقت فيث بجسارة بعينيه الغاضبتين التي لم يستطع الكثيرون مجابهتها.

قالت فيث بنبرةٍ صدّاحةٍ واضحة: "لقد عدت لأخبرك برأيي فيك بكلّ صراحة. أنا لا أخافك. أنت عجوزٌ وقحٌ وظالمٌ وطاغٍ وبغيض. تقول سوزان أنّك ستذهب إلى الجحيم بلا ريب وكنت أشعر بالأسف عليك ولكن ليس بعد الآن. أنت لم تأت امرأتك بقبّعةٍ جديدةٍ لعشر سنوات! لا عجب في أنّها ماتت. سأعبس في وجهك بتهكّمٍ متى ما أراك من الآن فصاعدًا. سوف تعلم ما الذي يحصل حين أكون خلفك في كلّ مرّة. يملك والدي كتابًا فيه صورةٌ للشّيطان في مكتبه وأنوي أن أعود إلى المنزل وأكتب اسمك تحتها. أنت مصّاص دماءٍ عجوز وآمل

أن تصاب بداء السّيلان!"

لم تكن فيث تعلم من هم مصّاصو الدّماء، تمامًا كما لم تكن تعلم ما هو داء السّيلان. كانت قد سمعت سوزان تستخدم تلك العبارتين واستنبطت من نبرتها أنّ كلاهما شيئان مريعان. ولكنّ "نورمان دوجلاس" كان يعلم على الأقلّ ما يعنيه ذلك الأخير وأصغى إلى شتيمة فيث بصمتٍ مطبق وحين توقّفت الفتاة لالتقاط أنفاسها ضاربةً قدمها بالأرض، انفجر بالضّحك فجأةً ثمّ ضرب بكفّه على ركبته بقوّةٍ وهتف قائلًا: "أقسم أنّك تتمتّعين بالجرأة، وأنا أحبّ الجرأة. تعالي، اجلسي اجلسي!"

أجابت: "لن أفعل."

اتّقدت عينيّ فيث بمزيدٍ من الانفعال فقد ظنّت أنّ الرّجل يهزأ بها، أنّه يعاملها بازدراء. وكانت لترحبّ بقنبلة غضبٍ أخرى عوضًا عن ذلك ولكنّ هذا الجرح كان عميقًا. ثمّ أردفت قائلة: "أنا لن أجلس في منزلك. سوف أعود إلى المنزل. ولكنّني مسرورةٌ لعودتي إلى هنا وإخبارك ما هو رأيي فيك بحذافيره."

قهقه "نورمان" قائلًا: "وأنا كذلك، وأنا كذلك. أنت تروقين لي. أنت مدهشة. أنت عظيمة. يا للحماس يا للحيويّة! أنعتّها بوجه الجبن؟ لم؟ لم تشبه رائحتها رائحة الجبن أبدًا. اجلسي. لو أنّك كنت تبدين هكذا منذ البداية يا فتاة! أقلت أنّك ستكتبين اسمي تحت صورة الشّيطان؟ أستفعلين؟ ولكنّ شعره أسود يا فتاة أمّا أنا فأصهب. لن ينفع ذلك، لن ينفع! أقلت أنّك تأملين أن أُصاب بداء السّيلان، أصحيح؟ إنّ الرّب يحبّك يا فتاة، فقد أُصبت به حين كنت شابًّا. لا تتمنّي ذلك لي ثانيةً. اجلسي، اجلسي ولنشرب كأسًا من الإحسان."

قالت فيث بغطرسة: "لا، شكرًا لك."

"بلى ستفعلين. هيّا هيّا تعالي، أنا أعتذر يا فتاة، أنا أعتذر. لقد

تصرّفت بحماقة وأنا آسفٌ على ذلك. لن تحصلي على صفقةٍ أفضل. انسي واصفحي. فلنتصافح يا فتاة فلنتصافح. هي لن تفعل، لا لن تفعل! ولكن عليها أن تفعل. اسمعي يا فتاة، إن صافحتني وجلست إلى مائدتي فسأدفع للكنيسة ما كنت أدفعه للرّاتب في السّابق وسأحضر إلى الكنيسة في أوّل أحدٍ من كلّ شهر وسأجعل العجوز "دايفس" تفقد صوابها. إنّني الوحيد في العشيرة الذي يمكنه فعل ذلك. هل اتّفقنا يا فتاة؟"

بدا الأمر كصفقة إذ وجدت فيث نفسها تصافح البعبع ثمّ جلست إلى مائدته. هدأ غضبها، لم يكن غضب فيث يدوم لوقتٍ طويلٍ أبدًا، ولكنّ الإثارة النّاجمة عنه ما انفكّت تتلألأ في عينيها وتمنح وجنتيها لونًا أحمر، فرمقها "نورمان دوجلاس" بنظرات الإعجاب.

ثمّ قال آمرًا: "اذهبي وأحضري أفضل الأطعمة المحفوظة لدينا يا "ويلسن" وكفّي عن العبوس يا امرأة، كفّي عن العبوس. ماذا وإن تشاجرنا يا امرأة؟ إنّ الشّجار يصفي المزاج وينعش الأجواء. ولكن لا للبكاء والنّواح بعد ذلك، لا للبكاء والنّواح يا امرأة. أنا لا أطيق ذلك. أحبّ الغضب في النّساء ولكن لا للدّموع. هاك يا فتاة، بعض اللّحم والبطاطا المهروسة، فلتبدئي بالأكل. تملك "ويلسن" اسمًا فاخرًا لهذا الطّبق ولكنّني أسمّيه "مكنكادي". أنا أدعو أيّ شيءٍ لا أستطيع تحليله في الطّعام بـ"مكنكادي" وكلّ الأشياء السّائلة التي تربكني أدعوها بـ "شالاماجوسلم". إنّ الشّاي الذي تعدّه "ويلسن" هو "شالاماجوسلم"، أقسم أنّها تعدّه من نبات الأرقطيون لا تشربي من هذا السّائل الأسود الآثم، هاك بعض الحليب. ذكّريني باسمك مجدّدًا."

"فيث."

"ما هذا الاسم؟ ما هذا الاسم؟! لا يمكنني تقبّل اسمٍ كهذا. ألديك غيره؟"

"كلّا يا سيّدي."

"هذا الاسم لا يروق لي. إنّه لا يروق لي. ثمّ إنّه يذّكرني بعمّتي "جيني". لقد أسمت فتياتها الثّلاث فيث وهوب وتشاريتي. لم تكن فيث تؤمن بأيّ شيء ووُلدت "هوب" متشائمة أمّا "تشاريتي" فكانت شحيحة. ينبغي أن يكون اسمك "الوردة الحمراء" فأنت تشبهينها حين تكونين غاضبة. سوف أناديك بـ "الوردة الحمراء". لقد استدرجتني لأعدك بالذّهاب إلى الكنيسة، صحيح؟ ولكنّني سأذهب مرّةً واحدةً في الشّهر فقط. تذكّري ذلك، مرّةً واحدة في الشّهر. بربّك هلّا أعفيتني يا فتاة؟ كنت أدفع مئة دولارًا للرّاتب كلّ سنة وأحضر إلى الكنيسة، إن وعدتك بدفع مئتي دولارًا في السّنة هل ستعفينني من الحضور إلى الكنيسة؟ بربّك!"

غمّزت فيث بخبثٍ وقالت: "لا لا يا سيّدي. أودّ منك الحضور إلى الكنيسة أيضًا."

"حسنًا. الاتّفاق اتّفاق. أعتقد أنّ في وسعي تحمّل ذلك اثنتي عشرة مرّةً في السّنة. يا للجلبة التي سيثيرها أوّل حضورٍ لي يوم الأحد! أقلت أنّ تلك العجوز "سوزان بيكر" تقول أنّني سأذهب إلى الجحيم؟ أتصدّقين أنّني سأذهب إلى هناك ها؟ بربّك يا فتاة، أتصدّقين؟"

ارتبكت فيث وتأتأت قائلة: "لا آمل ذلك يا سيّدي."

"لم لا تأملين ذلك؟ أخبريني لماذا لا تأملين ذلك؟ أعطني سببًا يا فتاة، أعطني سببًا."

"لا بدّ... لا بدّ من أنّ ذلك المكان غير مريحٍ البتّة يا سيّدي."

"غير مريح؟ يعتمد الأمر برمّته على رأيك فيما هو المريح يا فتاة. سوف أسأم من الملائكة على الحال، تخيّلي وحسب العجوز سوزان بهالةٍ فوق رأسها."

تخيّلتها فيث بالفعل ودغدغها الأمر إلى أن اضطرّت إلى الضّحك.

نظر "نورمان" إليها باستحسان.

"أرأيت كم هذا مضحك ها؟ آه أنت تعجبينني، أنت مدهشة. والآن بالنّسبة للأمور الكنيسيّة، أخبريني، أيستطيع والدك إلقاء المواعظ؟"

قالت فيث موالية لوالدها: "إنّه واعظٌ مدهش."

"إنّه كذلك ها؟ سأرى، سأنتبه لأيّ خطأ يقترفه. من الأفضل له أن يتأنّى فيما يقوله أمامي لأنّني سوف أمسك به، سوف أوقعه بالأخطاء وسوف أراقب حججه. سوف أحظى ببعض المرح في مسائل الكنيسة هذه. ألا يلقي والدك المواعظ عن الجحيم كذلك؟"

"لا، لا أظنّ ذلك."

"يا للخسارة. تعجبني العظات عن هذا الموضوع. أخبريه أنّه إن أراد أن يبقيني بمزاجٍ جيّد، فعليه أن يلقي العظات الصّاخبة عن الجحيم مرّةً كلّ ستّة أشهر وكلّما كان هنالك كلامٌ أكثر عن العقاب الإلهي، كان ذلك أفضل فأنا أحبّ العظات المحتدمة. فكّري في الرّضا الذي سيبعثه ذلك في نفوس الجواري العجائز أيضًا، سوف يستمررن بالتّحديق في العجوز "نورمان دوجلاس" ويقلن في قرارة أنفسهنّ: هذا مصيرك أيّها العجوز الفاسق. هذا ما ينتظرك" سوف أدفع عشرة دولاراتٍ إضافيّة في كلّ مرّةٍ تجعلين والدك يلقي المواعظ عن الجحيم. ها قد عادت "ويلسن" مع المربّى. أنت تحبّينه ها؟ إنّه ليس "مكاكندي" تذوّقي!"

ابتلعت فيث اللّقمة التي أطعمها إيّاها "نورمان" ولحسن الحظّ، كانت لذيذة.

راح "نورمان" يملأ صحنًا كبيرًا بالمربّى ووضعه أمامها قائلًا: "إنّه أفضل مربّى إجاصٍ في العالم. سعيدٌ أنّه أعجبك. سوف أعطيك بعض الجرار كي تأخذيها معك إلى المنزل. أنا لست رجلًا لئيمًا إطلاقًا، أنا لم أكن كذلك في حياتي. لا يستطيع الشّيطان أن يؤثّر فيّ في هذا المجال على أيّة حال. لم يكن ذنبي أنّ "هيستر" لم تشتر قبّعة جديدة

لمدّة عشر سنوات، بل ذنبها هي، فقد كانت تبخل في شراء القبّعات لتدّخر المال كي تعطيه لأصحاب البشرة الصّفراء في الصّين. أنا لم أنفق سنتًا واحدًا في سبيل البعثات التّبشيريّة الكنيسيّة في حياتي، ولن أفعل ذلك أبدًا ولا تحاولي أن تخدعيني كي أقوم بذلك!

سوف أدفع مئة دولارًا للرّاتب وسوف أحضر إلى الكنيسة مرّةً كلّ شهر ولكنّني لن أقوم بإفساد الوثنة الجيّدين ليصبحوا مسيحيّين سيّئين! لم يا فتاة؟ لأنّهم لن يليقوا بالجنّة أو الجحيم. ألم تبتسمي بعد يا "ويلسن"؟ لا أفهم كيف يمكنكنّ أن تعبسن هكذا يا معشر النّساء! أنا لم أعبس في حياتي، أنا أنفجر مرّةً واحدةً وحسب وبعدها ينتهي الشّجار وتشرق الشّمس ويمكن للمرء أن ينفّذ لي أيّ طلبٍ للطفي."

بعد العشاء، أصرّ "نورمان" على إيصال فيث إلى المنزل وملأ العربة بالتّفاح والملفوف والبطاطا واليقطين وجرار المربّى.

"هناك القطيط "توم" في الزّريبة. يمكنني أن أعطيك إيّاه أيضًا إن أردت، أخبريني وحسب."

أجابت فيث بلا تردّد: "لا شكرًا. أنا لا أحبّ القطط، ثمّ إنّني أملك ديكًا."

"اسمعوا ما تقوله. لا يمكنك أن تحتضني ديكًا كما يمكنك احتضان القطط. أسبق أن سمعت بأحدٍ يداعب ديكًا؟ من الأفضل لك أن تأخذي الصّغير "توم" فأنا أودّ أن أجد له مأوىً ملائمًا."

"لا، فالخالة مارثا تملك قطًّا وقد يقتل قطيطةً غريبة."

أذعن "نورمان" لما قالته بشيءٍ من التردّد. وكانت نزهة فيث وصولًا إلى منزلها ممتعة. وبعد أن سمح لها بالترجّل من العربة أمام باب مطبخ الدّير وأفرغ حمولته في الشّرفة الخلفيّة، قاد عربته في طريق العودة وصرخ قائلًا:

"مرّةً واحدة في الشّهر وحسب. مرّةً واحدة فقط، تذكّري!"

توجّهت فيث إلى فراشها وكانت تشعر بقليلٍ من الدّوار وقد انقطعت أنفاسها وكأّنها قد تحرّرت لتوّها من قبضة زوبعةٍ عظيمة، كانت سعيدةً وممتنّة. لاخوف من أنّهم سيضطرّوا إلى ترك جلين والمقبرة ووادي قوس المطر. ولكنّها غفت منزعجةً لأنّ "دان ريس" نعتها بفتاة الخنزير وبما أنّه توصّل إلى صفقةٍ ملائمة فعلى الأرجح أنّه سوف يستمرّ في مناداتها بهذا الاسم متى ما سنحت له الفرصة لذلك.

***

17
انتصارٌ مزدوج





حضر "نورمان دوجلاس" إلى الكنيسة في يوم الأحد الأوّل من شهر أيلول وأحدث كلّ البلبلة التي كان يتمنّاها. صافحه السيّد ميريديث بذهولٍ عند مدرّجات الكنيسة وسأله بذهنٍ شارد عن صحّة السيّدة "دوجلاس".

صاح "نورمان" قائلًا: "لم تكن صحّتها جيّدةً حين قمت بدفنها منذ عشرة سنوات ولكنّني أعتقد أنّها بصحّةٍ أفضل الآن."

الأمر الذي أضحك الجميع وأذهلهم باستثناء السيّد ميريديث الذي كان غارقًا في تساؤله ما إذا كان قد أوضح الفقرة الأخيرة من خطابه كما يجدر به أن يفعل، ولم يكن يملك أدنى فكرةً عمّا قاله لنورمان أو ما قاله نورمان له.

اعترض "نورمان" فيث عند البوّابة.

"لقد وفيت بوعدي كما ترين. وفيت بوعدي أيّتها الوردة الحمراء. والآن، أنا حرٌّ طليقٌ حتّى يوم الأحد الأوّل من شهر كانون الأوّل. كانت تلك عظةً جيّدة يا فتاة، كانت تلك عظةً جيّدةً. يملك والدكم في عقله أكثر ممّا يبدو على وجهه ولكنّه ناقض نفسه ذات مرّة، أخبريه أنّه ناقض

نفسه. وأخبريه أنّني أرغب في سماع تلك العظة عن العقوبة الإلهيّة في كانون الأوّل، سيكون من الرّائع ختام السّنة بطعمٍ من الجحيم، أتفهمين؟

وما الخطب في إلقاء خطابٍ جيّدٍ عن الجنّة بمناسبة رأس السّنة؟ رغم أنّ ذلك لن يكون مثيرًا للاهتمام بقدر الجحيم يا فتاة، ولا حتّى بنصف القدر. ولكنّني أرغب وحسب في أن أعرف ما رأي والدك في الجنّة، فهو رجلٌ متفكّر وذلك أكثر الأمور ندرةً في العالم، شخصٌ متفكّر. ولكنّه ناقض نفسه بالفعل، ها ها! إليك سؤالٌ تطرحينه عليه حين يكون متيقّظًا يا فتاة: أيمكن للرّب أن يخلق صخرةً ضخمةً لدرجة أن لا يقو هو نفسه على حملها؟ لا تنسي ذلك فأنا أودّ سماع رأيه في هذا. لقد أوقعت العديد من الكهنة بسؤالي هذا يا فتاة."

انشرح صدر فيث للهرب من الرّجل والهرع إلى المنزل. "دان ريس"، والذي كان واقفًا بين حشدٍ من الصّبية عند البوّابة، نظر إليها وشكّل شفتيه على شكل عبارة "فتاة الخنزير" ولكنّه لم يتجرّأ على التّفوّه بها في تلك الأرجاء. في اليوم التّالي، كانت الأمور في المدرسة مختلفة. عند استراحة الظّهيرة، التقت فيث بدان في مغرسٍ صغيرٍ لشجر التّنّوب خلف المدرسة فصاح دان مجدّدًا:

"فتاة الخنزير! فتاة الخنزير! فتاة الدّيك!"

وفجأةً، نهض "والتر بلايث" من فراشٍ مطحلب خلف أجمة تنّوبٍ صغيرة حيث كان يقرأ. كان شاحبًا للغاية ولكنّ عيناه كانتا تتوهّجان.

فقال: "فلتصمت يا دان ريس."

ردّ دان قائلًا:

"آه مرحبًا يا آنسة والتر." ثمّ قفز إلى أعلى السّياج وراح يغنّي مهاترًا:

"جبانٌ، جبانٌ مغفّل
سرق إناء خردل
جبان جبانٌ مغفّل!"

قال والتر باحتقار بينما ازداد شحوب وجهه: "أنت لست إلّا مصادفة!" لم يكن الفتى يملك سوى فكرةٍ مبهمة عن معنى تلك الكلمة غير أنّ "دان" والذي لم يكن يملك أدنى فكرةٍ على الإطلاق، حسبها تعني شيئًا حقيرًا من نوعٍ آخر.

فصرخ مجدّدًا: "أجل! أيّها الجبان! والدتك تكتب الكذبات-الكذبات-الكذبات! و"فيث ميريديث" فتاة خنزير-فتاة خنزير-فتاة خنزير! وهي فتاة ديك-فتاة ديك-فتاة ديك! أجل! جبانٌ جبانٌ مغفّـ..."

لم يتمادى "دان" أكثر، إذ أنّ والتر قد ألقى نفسه معترضًا المكان وقام بدفع دان عن السّياج بضربةٍ واحدةٍ صوّبت نحوه. احتفى الجميع بسقوط دان المخزي بانفجارٍ من الضّحك وتصفيق الأيادي من فيث. نهض دان مستشيطًا من الغضب وراح يتسلّق السّياج وإذ بجرس المدرسة يُقرع، وكان دان يدرك مصير الصّبية الّذين يتأخّرون عن صفّ السيّد هازارد."

فناح قائلًا: "فلنحسم الأمر بالعراك. أيّها الجبان!"

قال والتر: "متى أردت."

احتجّت فيث قائلة: "آه لا لا يا والتر. لا تقاتله. لا يهّمني ما يقوله. ما كنت لأنزل إلى مستوى أمثاله وأعيرهم الاهتمام."

قال والتر بهدوئه المهلك المعتاد: "لقد أهانك وأهان والدتي. موعدنا اللّيلة بعد المدرسة يا دان."

أجاب "دان" عابسًا: "أخبرني والدي أنّه عليّ أن أعود من المدرسة إلى المنزل مباشرةً كي أساعده في زرع البطاطا ولكنّ ليلة الغد ستفي بالغرض."

قال والتر موافقًا: "حسنًا، ليلة الغد. لك هذا."

توعّده دان قائلًا: "وسوف أبرح وجهك المخنّث ضربًا."

ارتعد والتر، ليس من الخوف بقدر ما كان من الاشمئزاز إزاء قباحة

الوعد وبذاءته، ولكنّه بقي شامخ الرّأس ودخل المدرسة. تبعته فيث وقد تنافرت المشاعر في نفسها. كانت تكره أن تفكّر في أنّ والتر سيتعارك مع ذلك الوغد، ولكن آه كم بدا رائعًا! كما أنّه سوف يقاتل لأجلها هي، "فيث ميريديث"، كي يعاقب من أهانها! سوف ينتصر بلا ريب، فعينان كتلك كانتا تبشّران بالانتصار.

غير أنّ ثقة فيث ببطلها خمدت قليلًا مع حلول المساء، إذ أنّ والتر كان يبدو هادئًا وخاملًا جدًّا لبقيّة النّهار في المدرسة.

وبينما كانتا جالستان على شاهدة قبر "هيزيكيا بولوك" في المقبرة، تنهّدت فيث لأونا قائلة: "ليت جيم هو من كان مكانه. فهو مقاتلٌ مذهل وسوف يقضي على "دان" بلمح البصر. ولكنّ والتر لا يعرف شيئًا عن التّعارك."

تنهّدت أونا، وقد كانت تبغض التّعارك ولا تفهم السّعادة السّريّة الغامضة، التي تكهّنتها في فيث، حيال هذا الأمر وقالت: "أخشى أن يتأذّى."

قالت فيث بانزعاج: "ليس من المفترض أن يتأذّى فهو بحجم دان تمامًا."

قالت أونا: "ولكنّ دان أكبر منه سنًّا، يكاد يكبره بسنةٍ تقريبًا."

قالت فيث: "لا تتجاوز المعارك التي انخرط فيها دان عدد الأصابع إن عددتها. أنا واثقةٌ من أنّه جبانٌ بحقّ، هو لم يحسب أنّ والتر سوف يتعارك معه وإلّا لما تفوّه بالإهانات أمامه. آه ليتك رأيت وجه والتر حين نظر إليه يا أونا! لقد سارت قشعريرةٌ في جسدي، قشعريرةٌ لطيفة. كان يبدو تمامًا كالسيّد "جالاهاد" من تلك القصيدة التي يقرأها لنا والدنا يوم السّبت."

قالت أونا: "لا تروق لي فكرة تشاجرهما وأتمنّى لو يعرضا عن ذلك."

صاحت فيث: "على هذا الأمر أن يحسم، إنّها مسألة شرف. إيّاك أن تخبري أيّ أحد يا أونا، إن فعلت فلن أخبرك بأيّ سرًّ بعد اليوم."

قالت أونا موافقة: "لن أشي بسرّك ولكنّني لن أبقى غدًا لمشاهدة القتال. سوف أعود مباشرةً إلى المنزل."

"آه حسنًا، سيكون عليّ أن أتواجد هناك، سيكون من اللّئيم ألّا أفعل، ذلك أن والتر يقاتل من أجلي. سوف أربط حزامًا بألوانٍ تمثّلني على ذراعه، هذا ما يجدر بي فعله كونه فارسي. يا لحظّي أنّ السيّدة بلايث قد أهدتني شريط الشّعر الأزرق الجميل ذاك بمناسبة عيد ميلادي! أنا لم ألبسه سوى مرّتين، لذا فهو جديدٌ تقريبًا. ولكنّني أتمنّى لو كنت متأكّدةً من انتصار والتر، سأوضع في موقفٍ مذلٍّ لا أُحسد عليه إن لم يفعل."

كانت فيث لتشكّ أكثر في فوز بطلها لو أنّها تمكّنت من رؤيته في تلك اللّحظة. كان والتر قد عاد من المدرسة إلى المنزل وقد اضمحّل غضبه الحقّانيّ واستُبدل بإحساسٍ قذرٍ للغاية. كان ينبغي له مقاتلة "دان ريس" في ليلة الغد ولم يكن يرغب في ذلك، كانت تلك الفكرة منفرة ولم يستطع الفرار من التّفكير في الأمر ولا حتّى لدقيقةٍ واحدة. هل كان سيتأذّى؟ كان والتر خائفًا كثيرًا من أن يتأذّى. وهل كان سيُهزم ويلحق العار بنفسه؟

لم يتمكّن والتر من تناول ما يُذكر على العشاء. كانت سوزان قد حضّرت دفعةً كبيرةً من الكعك على شكل وجوه قردة، المفضّلة لدى والتر، ولكنّه لم يتمكّن من ابتلاع سوى قطعةٍ واحدةٍ فقط. تناول جيم أربعةً منها وتساءل والتر كيف أمكنه ذلك. كيف أمكن لأيّ شخصٍ أن يتناول طعامه؟ وكيف أمكن لهم جميعًا أن يتسامروا ببهجةٍ كما كانوا يفعلون؟ ها هي والدته، بعينيها البرّاقتين ووجنتيها الورديّتين، كانت تجهل أنّ ابنها كان مضطرًّا للقتال ليلة الغد. تساءل والتر بكآبة، أكانت

ستكون مبتهجةً هكذا لو علمت. كان جيم قد التقط صورةً لسوزان بالكاميرا الجديدة خاصّته وراح يمرّرها على الجالسين وكانت سوزان تشعر ببالغ السّخط حيال هذا الأمر.

فقالت بنبرةٍ مغبونة: "أنا لست امرأةً حسناء يا زوجة الطّبيب العزيزة وأنا أعلم ذلك تمام العلم، لطالما علمت ذلك. ولكنّني لا لن أصدّق أبدًا أنّني بهذه الدّمامة التي تظهرني بها هذه الصّورة. لا لن أصدّق ذلك أبدًا."

ضحك جيم بسبب قولها وضحكت آن معه مجدّدًا ولم يقو والتر على تحمّل ذلك، فنهض وفرّ إلى غرفته.

قالت سوزان: "ذلك الطّفل يفكّر بأمرٍ ما يا زوجة الطّبيب العزيزة. أتظنّين أنّه يجهّز شعرًا آخر؟"

كان المسكين والتر، في تلك الأثناء، مشتّتًا وبعيدًا كلّ البعد عن عوالم الشّعر الوهميّة. أسند مرفقيه على عتبة نافذته المفتوحة وأحنى رأسه متكئًا على يديه بكآبة.

اقتحم جيم المكان وصاح قائلًا: "فلتنزل إلى الشّاطئ يا والتر، سوف يقوم الصّبية بحرق العشب على الأكمة الرّمليّة اللّيلة. قال والدنا أنّه يسمح لنا بالذّهاب. هيّا بنا."

كان والتر ليسرّ في أيّ وقتٍ آخر، إذ كان حرق عشب الأكمة الرّمليّة يبعث البهجة في نفسه ولكنّه رفض الذّهاب قطعًا ولم يكن في وسع أيّ حججٍ أو التماس أن يحرّكانه. إرتدّ جيم، وقد خاب أمله وهو غير العابئ بالسّير طويلًا إلى نقطة فوروويندز، إلى متحفه في الأتيكيّة واستغرق في قراءة كتاب فنسي تثبيطه مستمتعًا بأبطال القصص الرّومانسيّة القديمة ومتوقّفًا بين تارّةٍ وأخرى ليتصوّر نفسه جنرالًا ذائع الصّيت يقود قوّاته نحو النّصر في إحدى ميادين المعارك العظيمة.

جلس والتر إلى نافذته حتّى موعد النّوم. تسلّلت دي إلى الغرفة،

على أمل أن يبوح لها والتر ببنات نفسه، ولكنّ والتر لم يكن يستطيع التّحدّث في هذا الأمر ولا حتّى إلى دي، فالتّحدّث في الأمر يمنحه واقعيّةً تجعل صدره ينقبض. كان التّفكير في الأمر عذابًا بما فيه الكفاية. كانت الأوراق الذّابلة الهشّة تصدر حفيفًا في أشجار القيقب في الخارج. إنجلت ألوان التوهّج واللّهب من السّماء الجوفاء وكان القمر المكتمل يرسل خيوطه الفضيّة متألّقًا فوق وادي قوس المطر. بعيدًا، رسمت النّيران الحمراء المتأجّجة صفحةً مجيدةً على الأفق خلف التّلال. كانت العشيّة مرهفةً وساكنة وإذ بأصواتٍ بعيدةٍ تعلو بوضوح. ثعلبٌ يضبح عند البركة، محرّكٌ يلهث عند محطّة جلين، طائر الزّرياب الأزرق يصيح بجنونٍ في بستان القيقب وتصاعدت الضّحكات من بستان الدّير. كيف أمكن للنّاس أن يضحكوا؟ كيف أمكن للثّعالب وطيور الزّرياب أن تتصرّف وكأنّ لا شيء سيحدث في الغد؟

قال والتر متذمّرًا: "آه أتمنّى لو ينتهي الأمر."

لم ينم والتر تلك اللّيلة سوى لسويعاتٍ قليلة وواجه صعوبةً في تناول عصيدته في الصّباح، كانت سوزان تبذخ في ملء الصّحون إلى حدٍّ ما. رأى السيّد "هازارد" أنّ أداءه لم يكن مرضيًّا ذلك اليوم وأنّ "فيث ميريديث" بدت شاردة الذّهن كذلك. استمرّ "دان ريس" برسم صورٍ لفتيات برؤوس خنازير أو ديوك على سبّورته سرًّا ثمّ رفعها عاليًا كي يراها الجميع. تسرّبت أخبار المعركة القادمة، فكان معظم الصّبية وبعض الفتيات في مغرس شجر التّنوب حين توجّه إليه كلٌّ من "دان" ووالتر بعد المدرسة. كانت أونا قد عادت إلى المنزل ولكنّ فيث كانت هناك وكانت قد ربطت شريطها الأزرق حول ذراع والتر. كان والتر ممتنًّا لأنّ كلًّا من جيم ونان ودي لم يكونوا بين حشد الحضور. فهم، بطريقةٍ أو بأخرى، لم يسمعوا بالحادثة وعادوا إلى المنزل. كان والتر يواجه "دان" بإقدامٍ الآن، لقد اندثر ذهره في اللّحظة الأخيرة. وتبيّن أنّ

"دان" كان يخفي تحت نمشه شحوبًا أكثر من والتر نفسه. أعلن أحد الصّبية بدأ المعركة فوجّه دان ضربةً إلى وجه والتر.

تميّح والتر قليلًا. أرسل ألم الصّدمة اللّاذع تخدّرًا سار في جسده الحسّاس لبرهة، ثمّ سكن الألم وغمره شعورٌ لم يسبق له أن مرّ بمثله واجتاحه كالفيضان. تورّد وجهه سخطًا وتأجّجت عيناه كالشّعل. لم يتخيّل أيّ تلميذٍ في مدرسة "جلين سانت ماري" أنّ في وسع الآنسة والتر أن تبدو هكذا. انطلق الفتى إلى الأمام وأوصد "دان" كأرعنٍ صغير.

لم تكن معارك الصّبية في مدرسة جلين تخضع لأيّة قوانين محدّدة، بل كانت جميع الأساليب مسموحة لتوجيه الضّربات بأيّ وسيلة. قاتل والتر بضراوةٍ همجيّة وباستمتاعٍ في كفاحه الذي لم يستطع "دان" مجابهته. انتهى الأمر بلمح البصر. لم يكن والتر يعي ما يفعله إلى أن انجلى السّديم الأحمر من بصره ووجد نفسه جاثيًا فوق جسد "دان" المفترش أرضًا والذي كان أنفه... آه للهول! ينزف دماءً.

سأله والتر عبر أسنانه المطبقة: "هل اكتفيت؟"

اعترف "دان" بعبوسٍ أنّه اكتفى.

"هل تكتب والدتي الأكاذيب؟"

"كلّا."

"هل فيث ميريديث فتاة خنزير؟"

"كلّا."

"أو فتاة ديك؟"

"كلّا."

"هل أنا جبان؟"

"كلّا."

كان والتر ينوي أن يسأله "وهل أنت كاذب؟" ولكنّ الشّفقة تدخّلت

ولم يقم بإذلال "دان" أكثر من ذلك، ثمّ إنّ منظر الدّماء كان مريعًا.

فقال بازدراء: "لك أن تذهب إذًا."

تعالت أصوات التّصفيق من الصّبية الذين كانوا جاثمين على السّياج، ولكنّ بعض الفتيات كنّ يبكين، كنّ مذعورات. لقد سبق وأن شاهدن معارك التّلامذة من قبل ولكن لم تشبه أيٌّ منها نزاع والتر و"دان". كان والتر محاطًا بشيءٍ يبعث الرّعب في النّفوس، ظنّت الفتيات أنّه قد يقتل "دان". والآن بما أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى هممن بالنّحيب بهستيريّة، باستثناء فيث التي كانت ما تزال متسمّرةً مكانها محمرّة الخدّين.

لم يبق والتر ليظفر بجائزة المنتصر بل قفز من فوق السّياج وهرع نزولًا من التلّة المخضوضرة بشجر التنّوب وصولًا إلى وادي قوس المطر. لم يشعر بأيّ من بهجة المنتصر بيد أنّه أحسّ ببعض الرّضا لإتمام الواجب والثّأر للشّرف مُزج بتأنيب ضميرٍ مغثٍ حين فكّر بأنف "دان" الدّامي، فقد كان منظره قبيحًا وكان والتر يبغض القبح.

كما أنّه بدأ يلحظ أنّه كان هو الآخر متألّمًا وموجوعًا إلى حدٍّ ما. كانت شفته مجروحة ومتورّمة وكانت إحدى عينيه تشعره بشعورٍ غريبٍ للغاية. في وادي قوس المطر، صادف والتر السيّد ميريديث الذي كان عائدًا إلى منزله من زيارةٍ للآنستين "ويست"، فرمقه ذلك القسّ الطيّب بنظراتٍ حادّة.

"يبدو لي أنّك كنت تتعارك مع أحدهم، أصحيحٌ يا والتر؟"

قال والتر متوقّعًا أن يُجزر: "أجل يا سيّدي."

"وما كان التّسبب؟"

أجاب والتر بصراحة: "قال "دان ريس" أنّ والدتي تكتب الأكاذيب وأنّ فيث فتاة خنزير."

"آه! إذًا فأنت معذورٌ بلا ريبٍ يا والتر."

سأله والتر وقد انتابه الفضول: "أتظنّ أنّه من الصّواب أن يتعارك البشر يا سيّدي؟"

قال جون ميريديث: "ليس دائمًا وليس في أغلب الأوقات ولكن أحيانًا أجل، أحيانًا. كحين تُهان النّساء على سبيل المثال، كما في حالتك. إنّ شعاري يا والتر هو: لا تقاتل إلّا حين تتأكّد أنّك مضطرٌّ إلى ذلك، وحين تفعل فلتبذل أقصى ما في وسعك. أخمّن أنّك ظفرت بالمعركة رغم شتّى الكدمات."

"أجل. لقد أرغمته على سحب كلّ كلامه."

"جيدٌ جدًّا، جيّدٌ جدًّا. لم أحسبك مقاتلًا فذًّا يا والتر."

قال والتر مصمّمًا على الاعتراف بالحقيقة كاملة: "أنا لم أقاتل في حياتي من قبل، ولم أكن أرغب في ذلك حتّى اللّحظة الأخيرة ولكنّ الأمر راق لي حين كنت في خضمّ المعركة."

تلألأت عينيّ القسّ "جون".

"كنت مرتاعًا قليلًا في بادئ الأمر؟"

قال والتر بصدق: "بل كنت مرتاعًا إلى حدٍّ بعيد ولكنّني لن أهاب شيئًا بعد اليوم يا سيّدي. إنّ الخوف من الأشياء أسوأ من الأشياء نفسها. سوف أطلب إلى والدي أن يصطحبني إلى "لوبريدج" غدًا لاقتلاع سنّي."

"أنت محقٌّ هذه المرّة أيضًا. "إنّ الخوف أكثر إيلامًا من الألم نفسه" أتعلم من صاحب هذه المقولة يا والتر؟ إنّه شيكسبير. أثمّة أيّ شعورٍ يستشعره القلب البشريّ أو إحساسٍ يختلجه أو تجربةٍ يقاسيها لم يطّلع عليها ذاك الرّجل العظيم؟ أخبر والدتك أنّني فخورٌ بك حين تعود إلى المنزل."

لم يخبرها والتر بذلك، ولكنّه أخبرها بكلّ الباقي فتعاطفت معه وأخبرته أنّها مسرورةٌ لدفاعه عنها وعن فيث، ومسّدت مواضع ألمه

وفركت رأسه المتألّم بعطر الكولونيا.

سألها والتر معانقًا إيّاها: "وهل جميع الأمّهات بلطفك؟ أنت تستحقّين أن يُدافع المرء عنك."

كانت كلٌّ من الآنسة كورنيليا وسوزان في غرفة المعيشة حين نزلت آن السّلالم من الطّابق العلويّ وتلذّذتا بالإصغاء إلى القصّة ولا سيّما سوزان التي غمرتها سعادةٌ عارمة.

"أنا حقًّا مسرورةٌ لأنّه خاض معركةً جيّدة يا زوجة الطّبيب العزيزة، عسى أن يطرد ذلك سفاسف الشّعر تلك من نفسه. ولن يمكنني أبدًا أن أتحمّل ذاك الثّعبان دان ريس، لا، مطلقًا. هلّا جلست أقرب من النّار يا سيّدة مارشال إيليوت؟ فليالي أيلول هذه باردةٌ جدًّا."

"أشكرك يا سوزان ولكنّني لا أشعر بالبرد، كنت في زيارةٍ للدّير قبل مجيئي إلى هنا وتدفّأت جيّدًا، على الرّغم من أنّني اضطّررت إلى الذّهاب إلى المطبخ لفعل ذلك، إذ لم تُضرم النّار في أيّ غرفةٍ أخرى. كان المطبخ منقلبًا رأسًا على عقب، صدّقيني. ولم يكن السيّد ميريديث هناك ولم أتمكّن من اكتشاف أين كان ولكنّني أظنّ أنّه كان يزور آل ويست. أتعلمين يا عزيزتي آن أنّ النّاس يقولون أنّه كان يتردّد إلى هناك كثيرًا طيلة فصل الخريف وهم بدأوا يعتقدون أنّه يذهب لمقابلة روزماري."

قالت آن بينما كانت تكوّم الأخشاب المجروفة في النّار: "سوف تكون روزماري زوجةً رائعةً له فهي من أكثر النّساء اللواتي أعرفهنّ ابتهاجًا، إنّها حقًّا من سلالة يوسف."

قالت الآنسة كورنيليا بارتياب: "أجل، غير أنّها من الأسقفيّة. وممّا لا شكّ فيه أنّ ذلك أفضل من كونها ميثوديّة ولكنّني ما زلت أظنّ أنّ في وسع السيّد ميريديث إيجاد زوجة جيّدة من طائفته نفسها. بأيّة حال، على الأرجح أنّ لا شيء يدعو للقلق إذ لم يمض سوى شهر واحد منذ

أن قلت له: ينبغي لك أن تتزوّج يا سيّد ميريديث فنظر إليّ بدهشةٍ وكأنّني اقترحت أمرًا غير لائق فأجابني بأسلوبه الدّمث القدسيّ ذاك: إنّ زوجتي ترقد في قبرها يا سيّدة إيليوت. فأجبته: هذا ما أظنّه وإلّا لما نصحتك بالزّواج مجدّدًا، ثمّ نظر إليّ بمزيدٍ من الدّهشة. لذلك فأنا أشكّ في أنّ هناك أمرًا يحيط بقصّة روزماري هذه، فإن قام كاهنٌ عازب بزيارة منزل امرأةٍ عزباء مرّتين، فسيفهم جميع محبّي النّميمة على أنّه يتودّد إليها."

قالت سوزان بجديّة: "يبدو لي، وإن سمح لي بقول ذلك، أنّ السيّد ميريديث أكثر خجلًا من أن يتودّد لامرأةٍ بهدف الزّواج."

ردّت الآنسة كورنيليا: "هو ليس خجولًا، صدّقيني. صحيحٌ أنّه شارد الذّهن ولكنّه لا ليس خجولًا. وبالرّغم من أنّه روحانيٌّ وشارد الذّهن إلا أنّه واثقٌ من نفسه، كأيّ رجل. وحين يكون يقظًا حقًّا، فهو لن يستخسر أن يتقدّم إلى امرأةٍ بالزّواج. كلّا، إنّ المشكلة تكمن في أنّه يضلّل نفسه للإيمان بأنّ قلبه مدفون بينما الحقيقة هي أنّ قلبه ينبض طيلة الوقت بعيدًا في أعماقه كأيّ شخصٍ آخر. قد يكون مهتمًّا بـروزماري وقد لا يكون. إن كان كذلك، فعلينا الاستفادة من الأمر، فهي فتاةٌ لطيفة ومدبّرة منزلٍ جيّدة." وختمت الآنسة كورنيليا قائلة: "ثمّ إنّ جدّتي كانت من الأسقفيّة."

***

18
ماري تأتي بأنباءٍ سيّئة



أقبلت ماري فانس، والتي كانت السيّدة إيليوت قد أرسلتها إلى الدّير في مهمّة، إلى وادي قوس المطر في طريقها إلى إنجلسايد حيث كانت ستقضي المساء مع نان ودي كمكافأة في يوم السّبت. كانت كلٌّ من نان ودي تقطفان لبّان الرّاتنجيّة مع فيث وأونا في أحراج الدّير وكانت أربعتهنّ جالساتٌ على شجرة صنوبرٍ هامدة بالقرب من الجدول، يمضغن العلك بقوّة. لم يكن مسموحًا لأطفال إنجلسايد بمضغ لبّان الرّاتنجيّة في أيّ مكانٍ باستثناء وادي قوس المطر، غير أنّ فيث وأونا لم تكونا مقيّدتين بقواعد الأدب تلك، فكنّ يمضغنها بابتهاجٍ في أيّ مكان، داخل المنزل وخارجه، الأمر الذي كان يصعق أهل قرية جلين. ذات يوم، كانت فيث تمضغ العلكة في الكنيسة، ولكنّ جيري أدرك هول ذلك ووبّخها بصفته أخيها الأكبر فلم تتجرّأ على القيام بذلك ثانيةً.

احتجّت قائلة: "كنت جائعةً جدًّا فشعرت أنّه عليّ أن أقوم بمضغ شيءٍ ما. أنت تعلم تمامًا كيف كان الفطور يا "جيري ميريديث"، أنا لم أتمكّن من تناول العصيدة المحترقة فأحسست بشعورٍ غريبٍ في معدتي الفارغة. ساعدني اللّبان للغاية، ثمّ إنّني لم أمضغه بتلك القوّة،

لم أصدر أيّ صوتٍ ولم أطقطق العلكة ولا مرّةً واحدة."

أصرّ جيري قائلًا: "يجب ألّا تمضغي العلكة في الكنيسة بأيّ حال، إيّاك أن تفعلي ذلك مجدّدًا."

صاحت فيث: "ولكنّك أنت أيضًا قمت بمضغ العلكة في اجتماع الصّلاة الأسبوع الفائت."

قال جيري بتعالٍ: "الأمر مختلف، فاجتماع الصّلاة لا يُعقد يوم الأحد، ثمّ إنّ مقعدي يقبع في الصّفوف الخلفيّة ولم يرني أحد، أمّا أنت فكنت جالسةً في المقدّمة حيث رآك الجميع. كما أنّني قمت بإخراج العلكة من فمي قبل التّرتيلة الأخيرة وألصقتها أسفل المقعد الذي كان أمامي ثمّ خرجت ونسيت أمرها. عدت لاستعادتها في الصّباح التّالي ولكنّني لم أجدها. أظنّ أنّ "رود وارين" أزالها."

نزلت ماري فانس إلى الوادي شامخة الرّأس. كانت تلبس قلنسوةً مخمليّةً زرقاء جديدة، عليها وردة حمراء، وسترةً من القماش الكحليّ، وكميمةً من فرو السّناجب وكانت يقظةً جدًّا بشأن ملابسها ومعجبةً جدًّا بنفسها. كان شعرها مجعّدًا بإتقان، وجهها ممتلئًا، ووجنتاها متورّدتين وكانت عيناها البيضاوان تتلألآن. لم تكن حقًّا تشبه المتشرّدة البائسة المهملة التي وجدها أطفال ميريديث في حظيرة العجوز "تايلر". حاولت أونا ألّا تشعر بالحسد، ها هي ماري بقلنسوتها المخمليّة الجديدة، ولكنّها وفيث ما زالتا مضطرّتين إلى ارتداء قلنسوتيهما الصّوفيّتين المهلهلتين هذا الشّتاء أيضًا. لم يفكّر أيّ أحدٍ قطّ في أن يشتري لهنّ قلنسواتٍ جديدة وكانتا تخشيان أن تطلبا ذلك من والدهما خوفًا على مشاعره في حال لم يكن يملك المال الكافي. لقد أخبرتهم ماري من قبل أنّ الكهنة يواجهون وقتًا عصيبًا في جني قوت يومهم. منذ ذلك اليوم، باتت فيث وأونا تفضّلان لبس المرقعات على طلب أيّ شيءٍ من والدهما إن أمكنهما. لم تكونا تعبآن برثاثة

هيئتهما ولكنّ رؤية ماري فانس بتلك الأناقة وتعاليها هكذا كان مضنيًا. كانت كميمة فرو السّنجاب الجديدة بمثابة القشّة التي قسمت ظهر البعير، ذلك أن أونا وفيث لم تملكا كميمةً في حياتهما وكانتا تحسبان نفسيهما محظوظتين إن استطاعتا الحصول على قفّازاتٍ خاليةٍ من الثّقوب. كانت الخالة مارثا عاجزة عن رتق الثّقوب بسبب ضعف بصرها وعلى الرّغم من أنّ أونا حاولت تدبّر الأمر بنفسها غير أنّ ترقيعها كان سيّئًا. لم تتمكّن الفتاتان من التّرحيب بـماري بحرارة، ولكنّ تلك الأخيرة لم تكترث للأمر أو تلحظه فهي لم تكن بالغة الحساسيّة. قفزت بخفّة للجلوس على شجرة الصّنوبر وألقت الكميمة المغيظة على إحدى الأغصان. لاحظت أونا أنّها كانت مبطّنة بقماش السّاتان المدرّز الأحمر وأنّ لها شراريب حمراء ثمّ نظرت إلى يديها الصّغيرتين المتشقّقتين المزرقّتين وتساءلت إن كان سيتسنّى لها وضعهما في كميمةٍ كتلك في حياتها.

قالت ماري برفق: "أعطونا علكة." فبادرت نان ودي وفيث إلى إخراج كعبرةٍ أو اثنتين بلون العنبر من جيوبهنّ وناولنها إلى ماري. جلست أونا ساكنة، كانت تملك أربع كعبراتٍ كبيرة رائعة في جيب معطفها الصّغير الضيّق ذي الخيوط الجرداء ولكنّها لم تكن ستعطيها لـماري فانس ولا أيّ واحدة. فلتقطف ماري اللّبان بنفسها! لم يجدر بأصحاب كميمات فرو السّناجب بالحصول على كلّ شيءٍ في العالم.

قالت ماري مؤرجحةً ساقيها: "أليس يومًا رائعًا؟" ربّما كانت تفعل ذلك لتظهر حذاءها الجديد. دسّت أونا قدميها تحت نفسها، فقد كان حذاؤها يحوي ثقبًا وكانت أربطته معقّدة ولكنّ ذلك كان أفضل زوج أحذيةٍ لديها. آهٍ من ماري فانس تلك! لم لم يتركوها في الزّريبة القديمة؟

لم تشعر أونا بالاستياء أبدًا بسبب تأنّق توأم إنجلسايد أكثر منها ومن فيث. فهما كانتا ترتديان ملابسهما الجميلة بنيافةٍ لا مبالية ولا يبدو

أنّهما كانتا تفكّران بها على الإطلاق ولم تكونا تشعران الآخرين بأنّهم رثيثون. أمّا حين كانت ماري فانس متأنّقة، فكانت تبدو وكأنّها تنضح بالأناقة، تجعل الجميع يستشعرون الأزياء ويفكّرون فيها. في الواقع كانت أونا، والتي كانت جالسةً تحت نور الشّمس المصبوغ بلون العسل في أمسية كانون الثّاني الفاتنة، يقظةً بشكلٍ مثيرٍ للشّفقة بشأن كلّ ما كانت تلبسه: قلنسوتها الصّيفية والتي كانت أفضل قلنسواتها، معطفها الشّحيح الذي كانت قد ارتده لثلاثة فصول شتاء متتالية، الثّقوب في تنّورتها وحذائها وشحّ ملابسها التّحتيّة البسيطة التي تدعو إلى الارتعاش. كانت مدركةً بالطّبع أنّ ماري كانت ذاهبةً في زيارة أمّا هي فلا. ولكنّها حتّى لو كانت كذلك، فهي لم تكن تملك ملابس أفضل لترتديها وهنا تكمن الحسرة.

قالت ماري: "أليس هذا اللّبان رائعًا؟ اسمعوا الصّوت الذي تصدره حين أطقطقها. ليس هناك أيّ لبّان في فوروينذز ويحدث أن أشتهي العلكة في بعض الأحيان. لا تسمح لي السيّدة إيليوت بمضغ العلكة على مرأى منها، فهي تقول أنّ ذلك لا يليق بالسيّدات، إنّ مسألة السيّدات هذه تربكني، لا أستطيع فهم كلّ تعقيداتها. أخبريني يا أونا ما خطبك؟ هل أكل القطّ لسانك؟"

قالت أونا والتي لم تتمكّن من إشاحة نظرها عن كميمة فرو السّنجاب تلك: "لا." انحنت ماري بقربها وانتشلتها ثمّ دفعتها في يديّ أونا.

أمرتها قائلة: "ضعي كفّيك في هذه لبعض الوقت فهما يبدوان باردين بعض الشّيء. أليست هذه الكميمة رائعة؟ لقد أهدتني إيّاها السيّدة إيليوت الأسبوع الفائت بمناسبة عيد ميلادي. وسوف أحصل على الطّوق في عيد الميلاد، لقد سمعتها تخبر السيّد إيليوت بذلك."

قالت فيث: "إنّ السيّدة إيليوت تحسن معاملتك حقًّا."

ردّت ماري: "أحسنت قولًا، وأنا أحسن معاملتها بدوري أيضًا. أنا

أعمل كالزّنوج كي أسهّل الأمور عليها ولأجعل كلّ شيءٍ كما تحبّ. نحن خلقنا لبعضنا البعض، ذلك أنّه لا يمكن لأيّ شخصٍ أن ينسجم معها كما فعلت. فهي مهووسةٌ بالتّرتيب ولكنّني كذلك أيضًا ولذا فنحن نتفّق جيّدًا."

"أخبرتك أنّها لن تضربك أبدًا."

"وكنت محقّة. فهي لم تحاول أن ترفع إصبعًا عليّ وأنا لم أخبرها بأيّة كذبة ولا حتّى واحدة، صدّقي أو لا تصدّقي. صحيحٌ أنّها توجّه إليّ الإهانات اللّاذعة في بعض الأحيان ولكنّ ذلك يمرّ عليّ مرور الكرام. أخبريني يا أونا، لم لم تدسّي يديك في الكميمة؟"

كانت أونا قد أعادتها إلى مكانها على الغصن.

فقالت بتصنّع: "يداي ليستا باردتين، شكرًا لك."

"حسنًا إن كنت راضيةً فأنا راضيةٌ أيضًا. اسمعن، لقد عادت العجوز السيّدة "آلك" إلى الكنيسة بوداعة موسى والجميع يجهل السّبب. ولكنّ الجميع يقول أنّ فيث هي من أتت بنورمان دوجلاس، وتقول مدبّرة منزله أنّك انتهرته بفظاظة، أفعلت؟"

قالت فيث متضايقة: "لقد ذهبت وطلبت منه أن يعود إلى الكنيسة."

قالت ماري بإعجاب: "يا لجرأتك! ما كنت لأجرؤ أنا على فعل ذلك وأنا لست بالمتوانية. قالت السيّدة "ويلسن" أنّكما تلاسنتما على نحوٍ مشين ولكنّك تفوقت عليه. أخبريني، هل سيلقي والدكم العظة هنا غدًا؟"

"كلّا، بل سيتبادل مع السيّد بيري من شارلوت تاون. لقد نزل والدي إلى البلدة صباح اليوم وسيصل السيّد بيري هذه اللّيلة."

"شعرت أنّ هناك سرًّا يُحيط بالأرجاء بالرّغم من أنّ الخالة مارثا أبت أن تفصح عن أيّ شيء ولكنّني كنت متأكّدة من أنّها ما كانت لتقتل ذلك الدّيك دون سببٍ وجيه."

صاحت فيث وقد خُطف لونها: "أيّ ديك؟ ما الذي تعنيه؟"

"لا أعلم أيّ ديك، فأنا لم أره. ولكنّها حين أخذت الزّبدة التي أرسلتها إليها السيّدة إيليوت قالت أنّها كانت تذبح ديكًا في الزّريبة لأجل عشاء الغد."

نزلت فيث عن شجرة الصّنوبر.

"إنّه آدم، نحن لا نملك ديكًا آخر. لقد ذبحت آدم."

"حسنًا، لا تفقدي صبرك الآن. قالت مارثا أنّ اللّحّام في جلين لم يجلب لحمًا طيلة هذا الأسبوع وكان عليها تحضير شيءٍ ما ولكنّ جميع الدّجاجات كانت تضع البيض وكانت هزيلة جدًّا."

بدأت فيث بالعدو صعودًا فوق التّلّة قائلة: "إن قامت حقًّا بذبح آدم..."

هزّت ماري كتفيها.

"سوف تفقد صوابها الآن. لقد كانت مولّعةً للغاية بآدم ذاك. لا بدّ من أنّه وُضع في القدر منذ وقتٍ طويل، سيغدو قاسيًا كجلد الأحذية. ولكنّني ما كنت لأحبّذ أن أكون مكان الخالة مارثا فقد خُطفت ألوان فيث من الغضب. من الأفضل لك أن تلحقي بها وتهدّئي من روعها يا أونا."

كانت ماري قد ابتعدت قليلًا مع فتيات بلايث حين استدارت أونا على حين غرّة ولاحقتها.

وقالت وقد بدت في صوتها نبرةٌ من التّوبة: "هاك بعض اللّبان يا ماري ويسعدني أنّك تملكين كميةً جميلةً كهذه."

قالت ماري مذهولة: "شكرًا." وقالت لفتيات بلايث بعد أن رحلت أونا: "أليست فتاةً غريبة الأطوار؟ ولكنّني لطالما قلت أنّها تملك قلبًا من ذهب."

***

19

يا للمسكين آدم!



حين وصلت أونا إلى المنزل، كاانت فيث مستلقيةً على سريرها رافضةً أن يواسيها أيّ أحدٍ نهائيًا. كانت الخالة مارثا قد قتلت آدم الذي كان في تلك اللّحظة راقدًا على صحن التّقديم في حجرة المؤن، مربوطًا ومحشوًّا، يحيطه كبده وقلبه وقانصته. لم تحفل الخالة مارثا مثقال ذرّة بتلوّع قلب فيث وحدامها الهائج.

بل قالت: "كان علينا أن نحضّر شيئًا ما لعشاء الكاهن الغريب. وقد كبرت على الانفعال هكذا من أجل ديكٍ عجوز، أنت تعلمين أنّ مصيره الذبح يومًا ما."

أجهشت فيث قائلة: "سأشي بفعلتك إلى والدي حين يعود."

"إيّاك وإزعاج والدك المسكين فهو يعاني من المتاعب ما يكفي، ثمّ إنّني أنا مدبّرة المنزل هنا."

ثارت فيث قائلة: "ولكنّ آدم كان ملكي، لقد أعطتني إيّاه السيّدة جونسون. لم يكن لك شأنٌ في لمسه."

"لا تتواقحي الآن! ذُبح الدّيك وانتهى الأمر، لن أقوم بإجلاس كاهنٍ غريبٍ إلى عشاءٍ، لا يحتوي سوى على لحم الضّأن المسلوق

البارد، فقد تربّيت على اللّباقة والأدب."

لم تنزل فيث إلى العشاء تلك اللّيلة، ولم تحضر إلى الكنيسة في الصّباح التّالي، ولكنّها توجّهت إلى مائدة الطّعام وقت العشاء بعينيها المنتفختين من البكاء ووجهها الكالح.

كان القسّ "جيمس بيري" رجلًا متورّد الوجه، ذو لحيةٍ منفوشة وحاجبين بيضاوين كثيفين ورأسٍ لمّاعٍ أصلع. لم يكن رجلًا وسيمًا بلا ريب وكان من نوع الأشخاص المرهقين المعتدّين بأنفسهم. ولكنّه حتّى لو كان يبدو كرئيس الملائكة ويتكلّم بلسانهم، كانت فيث ستبغضه أيضًا بشكلٍ رهيب. راح يقطّع آدم بمهارةٍ متفاخرًا بيديه البيضاوين الممتلئتين وخاتمه الفاره، ويلقي التّعليقات الفكاهيّة خلال ذلك. قهقه كلٌّ من جيري وكارل وارتسمت ابتسامةٌ فوق ثغر أونا الشّاحبة التي ظنّت أنّ الأدب يستدعي ذلك، ولكنّ فيث عبست بتجهّم وصُعق القسّ "جايمس" لسلوكها الشائن. وبينما كان يوجّه ملاحظةً دبقةً لـجيري، تدخّلت فيث بوقاحةٍ وعارضته بتعليقٍ تافه فما كان من القسّ "جيمس" إلا أن قطّب جبينه ونظر إليها وقال: "لا ينبغي للفتيات الصّغيرات أن يقاطعن الآخرين ولا يجدر بهنّ أن يعارضن الأشخاص الّذين يفوقونهنّ معرفة."

زاد ذلك من غضب فيث، فقد نعتها ذاك الرّجل بالفتاة الصّغيرة، وكأنّها لم تكن أكبر من الطّفلة الرّبيلة "ريلّا بلايث" من إنجلسايد! كان ذلك لا يُحتمل. وكم كانت طريقة السيّد "بيري" المقيت ذلك في الأكل مقزّزة! حتّى أنّه التهم المسكين آدم بشراهةٍ حتّى العظمة الأخيرة. لم تضع أيٌّ من فيث أو أونا لقمةً واحدةً في فاهيهما ونظرتا إلى أخويهما وكأنّهما أفضل بقليلٍ من آكلي لحوم البشر. أحسّت فيث بأنّ الأمر سينتهي بها بإلقاء شيءٍ ما على صلعة السيّد "بيري" المشرقة إن لم تُختتم هذه الوليمة الفظيعة بأسرع ما يمكن. لحسن الحظّ، عجزت

قوى السيّد "بيري" في المضغ أمام فطيرة التّفاح القاسية التي أعدّتها الخالة مارثا، ولذا وصلت الوليمة إلى ختامها، وبعد جلسة إحسانٍ ألقى فيها السيّد "بيري" كلمات الشّكر المتعبّدة للرّازق الرّؤوف والمنّان الذي أنعم عليهم بالطّعام والملذّة الزّاهدة تمتمت فيث في سرّها بتمرّد: "لم يكن للرّب أيّ علاقةٍ في رزقك آدم."

هرع الصّبيان إلى الخارج بسرور، في حين انصرفت أونا لمساعدة الخالة مارثا في غسل الصّحون على الرّغم من أنّ تلك العجوز النّزقة لا ترحّب بمساعدتها المتواضعة، أمّا فيث فقد ذهبت إلى المكتب حيث أُضرمت نار الحطب الجذلة في الموقد ظنًّا منها بأنّها ستهرب بذلك من السيّد "بيري" البغيض الذي أعلن عن رغبته في أخذ قيلولةٍ بعد الظّهيرة. ولكن ما كادت فيث تستقرّ في إحدى الزّوايا مع كتاب حتّى أقبل وشرع في تفحّص المكتب الفوضويّ بشيءٍ من الاستنكار واقفًا أمام النّار.

وقال بصرامة: "تبدو كتب والدك غارقة في معمعةٍ تعيسة يا صغيرتي."

اكفهّر وجه فيث في زاويتها ولم تنبس ببنت شفة. فهي ما كانت لتتحدّث إلى ذلك المخلوق.

تابع السيّد بيري كلامه بينما كان يلهو بسلسلة ساعة يده الفارهة ويبتسم بسلطويّة على فيث قائلًا: "يجدر بك أن تحاولي ترتيبها فأنت في سنٍّ مناسبٍ لتلبية مهامٍّ كهذه. لم تتجاوز ابنتي الصّغيرة العاشرة من عمرها وهي بالفعل مدبّرة منزلٍ ممتازة، وتقدّم المساعدة العظيمة لوالدتها وتوفّر لها الرّاحة. إنّها فتاةٌ طيّبةٌ للغاية، أتمنّى لو يتسنّى لك شرف التعرّف عليها، فقد تستطيع مساعدتك بطرقٍ عديدة. ذلك أنّك بالطّبع لم تحظي برعاية الأمّ وتربيتها الثّمينتين. يا للخسارة، يا للخسارة الفادحة. لقد تحدّثت إلى والدك أكثر من مرّة بهذا الخصوص وأكّدت على واجباته بأمانة ولكن لا جدوى حتّى الآن. أثق بأنّه سوف يستيقظ

ليدرك مسؤوليّاته قبل أن يفوته القطار. وفي هذه الأثناء، فإنّ واجبك وامتيازك هو السّعي للحلول مكان والدتك القدّيسة. قد تشكّلين تأثيرًا عظيمًا في نفوس أخويك وأختك الصّغيرة، وقد تصبحين أمًّا عظيمةً لهما. أخشى أنّك لا تفكّرين في هذه الأمور كما يجدر بك أن تفعلي. اسمحي لي يا صغيرتي بإنارة بصيرتك بشأن هذه الأمور."

تقاطر صوت السيّد "بيري" الدّسم، كان كالسّمكة في الماء، لم يلق به شيءٌ أكثر من أن يكون الآمر النّاهي، أن يتفضّل على الآخرين ويعظهم. لم يكن ينوي أن يتوقّف ولم يفعل. كان واقفًا أمام الموقد، غارسًا قدميه فوق السجّادة وراح يدلق فيضًا من التّفاهات المبالغ فيها. لم تستمع فيث لأي كلمة، هي حقًّا لم تكن تصغي إليه البتّة بل كانت تراقب أذيال سترته السّوداء بمسرّةٍ عفريتيّةٍ تنامت في عينيها البنيّتين. كان السيّد "بيري" واقفًا قريبًا جدًّا من الموقد. وقد بدأت أذيال سترته بالانسفاع. تابع الرّجل ثرثرته مغشى في ذلاقته. بينما اشتعلت أذيال السّترة أكثر فأكثر وتطايرت شرارةٌ من الحطب المشتعل، وعثرت على أختها فاضطرمت شعلة نارٍ متأجّجة. لم تقو فيث على تمالك نفسها أكثر من ذلك فانفجرت بضحكةٍ مكبوتة.

قطع السيّد بيري كلامه وقد أحنقته الوقاحة، وإذ به يعي رائحة احتراق الملابس الكريهة التي كانت الغرفة عابقةً بدخانها. فاستدار للخلف ولم ير شيئًا ثمّ وضع يديه على سترته ولاحظ وجود ثقبٍ كبيربالفعل، كانت تلك سترته الجديدة...

وانفجرت فيث ضحكًا إزاء وقفته وتعابير وجهه.

فسألها بغضب: "ألاحظت أنّ سترتي كانت تحترق؟"

أجابت فيث برزانة: "أجل يا سيّدي."

سألها مجدّدًا محملقًا بها: "ولم لم تخبريني؟"

قالت فيث بمزيدٍ من الرّزانة: "لأنّك قلت أنّه ليس من اللّائق مقاطعة

الغير يا سيّدي."

قال القسّ المحترم بغضب بينما هو يغادر المكتب:

"لو... لو كنت والدك لأبرحتك ضربًا لن تنسيه ما حييت يا آنسة."

لم تناسب سترة السيّد ميريديث مقاس السيّد بيري الذي اضطرّ إلى تقديم خدمته المسائيّة بسترته محروقة الأذيال، ولكنّه لم يمشِ في جناح الكنيسة بفخره المعتاد، ولم يقبل أبدًا أن يتبادل المنابر مع السيّد ميريديث بعد ذلك، وبالكاد كان رقيق الحاشية مع ذاك الأخير حين التقى به عند المحطّة في الصّباح التّالي. ولكنّ فيث شعرت برضى كامدٍ غريب. فقد تم الأخذ بثأر آدم.



20
فيث تكوّن صداقة



كان اليوم المدرسيّ التّالي يومًا عصيبًا بالنّسبة لـفيث. كانت ماري فانس قد روت قصّة آدم على مسامع الجميع. وقد رأى فيها جميع الطّلاب، باستثناء آل بلايث دعابةً مضحكة. أخبرت الفتيات فيث مقهقهاتٍ بأنّ الأمر مؤسفٌ للغاية وكتب إليها الفتيان رسائل تعزيةٍ مستهزئة. عادت المسكينة فيث إلى المنزل محطّمة الفؤاد مكسورة الخاطر.

قالت منتحبة: "سوف أذهب إلى إنجلسايد كي أتحدّث مع السيّدة بلايث فهي لن تسخر منّي كما يفعل الجميع. عليّ فقط أن أتحدّث إلى أحدٍ يفهم كم أشعر بالاستياء."

سارعت الفتاة في النّزول إلى وادي قوس المطر حيث فعل السّحر أفاعيله اللّيلة الماضية. كان الثّلج قد تساقط قليلًا وشجرات التنّوب تحلم بربيعٍ يقبل وسعادةٍ تحلّ. كانت التلّة البعيدة متأنّقةً بلونٍ بنفسجيٍّ إثر شجرات الزّان العارية وكان نور المغيب الورديّ باسطًا ألوانه فوق العالم كأنّه قبلةٌ زهريّة. ومن بين كلّ الأماكن الخياليّة طلقة الهواء، المليئة بالرّونق الفتّان، كان وادي قوس المطر أجملها وأكثرها بهاء.

غير أنّ كلّ ذلك الجمال الخياليّ قد فات الصّغيرة فيث الكئيبة المسكينة.

ظهرت لها "روزماري ويست" فجأةً قرب الينبوع وقد كانت جالسةً على شجرة الصّنوبر وهي في طريقها عائدةً من إنجلسايد حيث كانت تعطي التّوأم دروسًا في الموسيقى. كانت متريّثةً في وادي قوس المطر لبعض الوقت، تمتّع نظرها بروعة المكان وتتجوّل في أرجاء الأحلام. وبحسب التّعابير التي كانت تعتري وجهها فقد كانت أفكارها محبّبة. وربّما تكون طنطنة الأجراس الخافتة العابرة القادمة من الشجرتين العاشقتين السّبب وراء ارتسام تلك الابتسامة المتوارية فوق شفتيها أو ربّما يكون السّبب هو إدراكها أنّ "جون ميريديث" قلّما يفوّت فرصة قضاء أمسية يوم الإثنين في المنزل الرّمادي فوق التلّة البيضاء التي تجتاحها الرّياح.

اقتحمت "فيث ميريديث"، والتي كانت تفيض بالأسى المتمرّد، أحلام روزماري. توقّفت فيث بغتةً حين لمحت الآنسة "ويست" فهي لم تكن تعرفها بما يكفي، كانت تعرفها بما يكفي وحسب للتّحدث إليها حين تلقاها، ولكنّها لم تكن ترغب في أن يراها أيّ أحدٍ في تلك اللّحظة باستثناء السيّدة بلايث. كانت تعلم أنّ عينيها وأنفها كانا محمرّين ومنتفخين وكانت تكره أن يعلم الغرباء بأنّها كانت تبكي.

قالت متضايقة: "مساء الخير يا آنسة ويست."

سألتها روزماري بلطف: "ما الخطب يا فيث؟"

قالت فيث باختصار: "لا شيء."

ابتسمت روزماري وقالت: "آه! أنت تقصدين أنّه ليس هناك شيءٌ يمكنك أن تخبري الغرباء به، هل أنا محقّة؟"

رمقت فيث الآنسة روزماري بنظرات الاهتمام المفاجئ. أمامها، مثلت امرأةٌ تفهم الأمور. وكم كانت حسناء! كم كان شعرها الذّهبي

المختبئ تحت قبّعتها الرّيشيّة ذهبيًّا! كم كانت وجنتاها فوق سترتها المخمليّة متورّدتين! كم كانت عيناها زرقاوان وودودتان! أحسّت فيث بأنّه يمكن للآنسة "ويست" أن تكون صديقةً لطيفة. ليتها كانت صديقتها عوضًا عن كونها غريبة!

قالت فيث: "أنا في طريقي للتّحدّث إلى السيّدة بلايث. فهي متفهّمةٌ ولا تسخر منّا أبدًا. دائمًا ما أتحدّث معها في كلّ الأمور، فذلك يساعدني."

قالت الآنسة "ويست" متعاطفة: "آهٍ يا صغيرتي الحلوة، آسفةٌ لإخبارك أنّ السيّدة بلايث ليست في المنزل فقد انطلقت إلى "أفونلي" اليوم وأخشى أنّها لن تعود قبل نهاية الأسبوع المقبل."

ارتجفت شفة فيث.

وقالت ببؤس: "إذًا من الأفضل لي أن أعود إلى المنزل."

قالت روزماري بلطف: "أظنّ ذلك. إلّا إن كنت تظنّين أنّ في استطاعتك التحدّث إليّ بدلًا منها. أعلم أنّ التحدّث عن المتاعب يساعد كثيرًا. لا أظنّ أنّه في وسعي أن أكون أكثر تفهّمًا من السيّدة بلايث ولكنّني أعدك بأنّني لن أضحك عليك."

تردّدت فيث قائلة: "لن تفعلي ذلك في الخارج ولكنّك قد تفعلين في الدّاخل."

"كلّا، لن أسخر منك في الدّاخل أيضًا. لم قد أفعل؟ هناك ما آذاك ولا أرى في تأذّي الآخرين ما يدعو إلى الضّحك أو السّخرية، أيًّا كان ما آذاهم. إن أحسست أنّك تودّين إخباري بما يزعجك فسأصغي إليك بكلّ سرور. وإن كنت تفضّلين ألّا تفعلي فلا بأس بذلك أيضًا يا صغيرتي."

حدّقت فيث طويلًا في عينيّ الآنسة "ويست" من جديد ولم تجد فيهما ذرّة سخرية ولا حتّى في عمق عمقيهما، كانتا جادّتين للغاية.

تنهّدت فيث قليلًا وجلست على شجرة الصّنوبر القديمة بالقرب من صديقتها الجديدة وأخبرتها قصّة آدم ومصيره الأليم.

لم تضحك روزماري ولم تشعر بالرّغبة في الضّحك، بل تفهّمت الأمر وتعاطفت مع فيث بحقّ، كانت طيّبةً بقدر السيّدة بلايث تقريبًا، أجل كانت طيّبةً بقدرها إلى حدٍّ بعيد.

قالت فيث بحرقة: "إنّ السيّد بيري كاهن ولكن كان حريٌّ به أن يكون لحّامًا. فهو مولعٌ بتمزيق الأشياء، لقد تلذّذ بتقطيع المسكين آدم إربًا إربًا وقام بتشريحه وكأنّه أيّ ديكٍ عادي."

ضحكت روزماري قليلًا، على السيّد بيري لا على آدم كما استنبطت فيث وقالت: "بيني وبينك يا فيث أنا أيضًا لا يروق لي السيّد بيري، هو لم يرق لي في حياتي. لقد ارتدت المدرسة معه، فقد كان أحد صبية جلين كما تعلمين وكان بغيضًا جدًّا في ذلك الوقت أيضًا. آه كم كنّا نحن الفتيات نشمئزّ من يديه السّمينتين حين نشكّل حلقةً للّعب. ولكن لا بدّ لنا ألّا ننسى يا صغيرتي أنّه لم يكن يعلم أنّ آدم كان حيوانك الأليف، بل كان يظنّ حقًّا أنّه ديكٌ عاديٌّ ليس إلّا. ينبغي لنا أن نكون منصفين حتّى عندما نشعر بالألم الشّديد."

اعترفت فيث قائلة: "أظنّ أنّك محقّة. ولكن لمَ يرَ الجميع أنّ حبّي الشّديد لآدم مضحكٌ إلى هذا الحدّ يا آنسة ويست؟ لو كنت أملك قطًّا عجوزًا مريعًا، لما رأى أيّ أحدٍ الأمر غريبًا، فحين بُترت ساق قطيطة "لوتي وارين" بسبب الرّباط، شعر الجميع بالأسف لأجلها. لقد بكت لمدّة يومين في المدرسة ولم يسخر منها أحد ولا حتّى دان ريس. وحضر جميع أصدقائها جنازة قطيطتها وساعدوها في دفنها غير أنّهم لم يتمكّنوا من دفن كفوفها الصّغيرة معها إذ لم يفلحوا في العثور عليها. بالطّبع ما حدث كان أمرًا مروّعًا ولكنّي لا أعتقد أنّه كان أكثر فظاعةً من أن يشهد المرء حيوانه الأليف وهو يُلتهم. وبالرّغم من ذلك، سخر

الجميع منّي أنا."

قالت الآنسة روزماري بخطورة: "أظنّ أنّ السّبب وراء ذلك هو أنّ كلمة "ديك" تبدو مضحكةً إلى حدٍّ ما، في حين أنّ كلمة "صوص" مختلفة إذ لا يبدو التّحدّث عن حبّ صوصٍ فكاهيًّا جدًّا."

"كان آدم أظرف صوصٍ صغيرٍ يا آنسة ويست. كان كرةً ذهبيّةً لطيفة. كان يسرع إليّ وينقد الطّعام من يدي وكان جميلًا للغاية حين كبر، كان ناصع البياض كالثّلج وكان له ذيلٌ أبيض مائل، رغم أنّ ماري فانس قالت أنّه أقصر ممّا ينبغي. كان يعلم اسمه ويلبّي ندائي حين أناديه، كان ديكًا فطنًا جدًّا. ولم تملك الخالة مارثا الحقّ في ذبحه، لقد كان ملكي. لم يكن ذلك عادلًا، صحيحٌ يا آنسة ويست؟"

قالت الآنسة روزماري بلا جدال: "لا، لم يكن ذلك عادلًا إطلاقًا. أذكر أنّني كنت أملك دجاجةً أليفةً حين كنت طفلة. كانت ظريفةً للغاية بلونها البنيّ اللّامع وبقيعاتها وكنت أحبّها كما كنت أحبّ أيّ حيوانٍ أليفٍ آخر. لم نقم بذبحها أبدًا بل ماتت لأنّها أصبحت كبيرة في السّنّ. كانت والدتي تأبى ذبحها لأنّها كانت حيواني الأليف."

قالت فيث: "لو كانت والدتي على قيد الحياة لما أذعنت لذبح آدم، ولذا فإنّ والدي ما كان ليسمح بذلك أيضًا لو كان في المنزل وعلم بالأمر. أنا واثقةٌ من ذلك يا آنسة ويست."

قالت روزماري: "أنا واثقةٌ من ذلك أيضًا." وتوردّت وجنتاها بعض الشّيء وبدت روزماري يقظةً بهذا الشّأن ولكنّ فيث لم تلحظ شيئًا.

سألت فيث بارتباك: "أكان من اللؤم عدم إخبار السيّد بيري بأنّ سترته كانت تحترق؟"

أجابت روزماري وقد تراقصت عيناها: "آه بل لئيمًا للغاية ولكنّني كنت لأتصرّف بالشّقاء ذاته لو كنت مكانك يا فيث، ما كنت لأخبره بأنّ سترته كانت تحترق ولا أظنّ أنّني كنت سآسف على ذلك."

"تظنّ أونا أنّه كان عليّ إخباره لأنّه كاهن."

"إن لم يكن الكاهن يتصرّف بحسن الأخلاق فلا شأن لنا في الاكتراث لسترته يا حبّة قلبي. أعلم أنّني كنت لأحبّ رؤية سترة جيمي بيري وهي تحترق. لا بدّ من أنّ ذلك كان ممتعًا."

ضحكت الاثنتان ولكنّ فيث أطلقت تنهيدةً مؤلمة.

"حسنًا على أيّ حال، لقد مات آدم وأنا لن أتمكنّ من أن أحبّ أيّ شيءٍ مطلقًا."

"لا تقولي ذلك يا صغيرتي. سوف نفتقد الكثير في حياتنا إن لم نحبّ. كلّما أحببنا أكثر تغنّت الحياة، حتّى وإن كان ما نحبّه مجرّد حيوانٍ صغيرٍ مكسوٍّ بالرّيش. أترغبين في الحصول على كناري يا فيث؟ عصفور كناري صغيرٍ وذهبيّ؟ إن أحببت فبإمكاني أن أعطيك واحدًا."

صاحت فيث: "آه سيروق لي ذلك! أنا أحبّ الطّيور. ولكن ألن يقوم قطّ الخالة مارثا بأكله؟ إنّه لأمرٌ تراجيديّ أن يؤكل حيوان المرء الأليف، أنا لا أظنّ أنّ في وسعي تحمّل ذلك مرّةً أخرى."

"إن علّقت القفص بعيدًا عن الجدار بما يكفي، فلا أظنّ أنّ القطّ سيتمكّن من إيذائه. سوف أعلّمك كيف تهتمّين به وسأجلبه معي إلى إنجلسايد لأجلك في المرّة المقبلة التي أزورها."

قالت روزماري في قرارة نفسها:

"سوف يصبح ذلك موضوع أحاديث كلّ نمّامٍ في جلين ولكنّني لن أكترث، أودّ أن أواسي هذه الصّغيرة المسكينة."

وبالفعل تمكّنت من مواساة فيث وكان تعاطف روزماري وتفهّمها عذبين للغاية. جلست كلٌّ من فيث وروزماري على شجرة الصّنوبر القديمة إلى أن تسلّل الغسق إلى الوادي الأبيض وتألّقت النّجوم المسائيّة فوق بستان القيقب. أخبرت فيث روزماري بجميع قصصها وآمالها، عمّا تحبّ وتكره، عن سلبيّات وإيجابيات الحياة في الدّير

وعن تقلّبات الحياة في المدرسة. وافترقتا أخيرًا وقد كوّنتا صداقةً متينة.

كان السيّد ميريديث كعادته غارقًا في أحلامه عندما حان موعد العشاء ذاك المساء

غير أنّ اسمًا ما قد اخترق ذهوله وأرجعه إلى أرض الواقع. كانت فيث تخبر أونا عن لقائها بـروزماري.

قالت فيث: "أظنّ أنّها فاتنة كما أنّها طيّبةٌ كالسيّدة بلايث تمامًا ولكنّها مختلفة. شعرت أنّني أرغب في معانقتها. لقد عانقتني هي بالفعل، كم كان العناق لطيفًا وناعمًا كما أنّها دعتني بـ "حبّة قلبي" وقد اعترتني رعشةٌ إثر ذلك. يمكنني إخبارها بكلّ شيء."

سأل السيّد ميريديث بنبرةٍ غريبةٍ إلى حدٍّ ما: "إذًا فقد أعجبت بالآنسة ويست يا فيث؟"

صاحت فيث: "بل أحببتها."

قال السيّد ميريديث: "آها! آها!"

***

21
الكلمة المستحيلة



سار "جون ميريديث" في إحدى اللّيالي الشتويّة الباردة في وادي قوس المطر متفكّرًا. كانت التّلال البعيدة تتألّق بروعة لمعان نور القمر على الثّلج وكانت كلّ شجرة تنّوبٍ في الوادي تغنّي أغنيتها العنيفة على أنغام الرّياح والصّقيع. كان أطفاله وأطفال أسرة بلايث يساحلون المنحدر الشّرقي وينطلقون آزّين فوق البركة المتجمّدة. كانوا يحظون بوقتٍ مسلٍّ وأصواتهم المبهجة وضحكاتهم الفرحة تردّد صداها أعلى وأسفل الوادي، ثمّ تحتفي كإيقاعاتٍ خياليّةٍ وسط الأشجار.

وعلى يمينهم، كانت الأنوار المنبعثة من "إنجلسايد" تتدفّق مشعّةً عبر بستان القيقب بغوايتها ودعوتها المعتادتين والتي يبدو أنّها كانت دائمة التوهّج في طوافي منزلٍ حيث يعلم المرء بوجود الحبّ والابتهاج والتّرحيب بشتّى الأجساد والأرواح. كان السيّد ميريديث يحبّ أن يمضي الأمسيات يتناقش مع الطّبيب بالقرب من الموقد بين الفينة والفينة، حيث كانت الكلاب الصّينيّة في "إنجلسايد" تراقب المكان وتحرسه على الدّوام وكأنّها آلهةٌ على الأرض، ولكنّه، في تلك اللّيلة،

لم يفكّر في ذلك. بعيدًا فوق التلّة الغربيّة، تلألأت نجمةٌ أقلّ توهّجًا ولكنّها كانت أكثر إغواءً. كان السيّد ميريديث في طريقه لزيارة روزماري ويست وكان ينوي أن يخبرها بأمرٍ كان يتبرعم شيئًا فشيئًا في قلبه منذ لقائهما الأوّل إلى أن تفتّحت الزّهرة في تلك الليلة التي أعلنت فيها فيث بحبٍّ عن إعجابها بـروزماري.

ووصل به الأمر أن أدرك أنّه مهتمٌّ بـروزماري، ليس كما كان مهتمًّا بـ "سيسيليا" طبعًا. فذلك كان مختلفًا كلّ الاختلاف. كان يظنّ أنّ عودة حبّ العاطفيّة والأحلام والفتون ذاك محال. ولكنّ روزماري كانت حسناء وطيّبةً وعزيزةً إلى قلبه، عزيزةً جدًّا. كانت أفضل الجلساء، تبعث في نفسه حبورًا لطالما ظنّ بأنّه فقده للأبد. قد تصبح ربّة منزلٍ ممتازة له وأمًّا عطوفةً لأطفاله.

كان السيّد ميريديث قد تلقّى، من إخوانه الأعضاء في المشيخيّة ومن العديد من الأبرشيّين الّذين لا يمكن الشّك بصفو نواياهم وغيرهم من المنافقين، تلميحاتٍ بأنّه يجب أن يتزوّج مرّةً أخرى، ولكنّ تلك التّلميحات لم تؤثّر فيه على الإطلاق، حتّى أنّ معظم النّاس كانوا يظنّون بأنّه لم يكن محيطًا بها أبدًا، ولكنّ الحقيقة أنّه كان متنبّهًا لها بشدّة. وفي بعض زياراته العرضيّة لحسّ المنطق، كان يعلم أنّه أكثر أمرٍ منطقيّ يجدر به الإقدام عليه هو الزّواج غير أنّ حسّ المنطق لم يكن نقطة قوّة السيّد ميريديث، وكان عاجزًا كلّ العجز على اختيار امرأةٍ ملائمةٍ، بكلّ برودة أعصابٍ وتأنٍّ كما قد يختار المرء مدبّرة منزلٍ أو شريك عمل. وكم كان يكره كلمة "ملائمة"، فقد كانت تذكّره بـ "جيمس بيري"، ذاك الأخ في الكنيسة الذي قال متزلّفًا بعيدًا كلّ البعد عن الغموض: "إمرأة ملائمة في عمرٍ ملائم." وفي تلك اللّحظة، استعرت السيّد ميريديث رغبةٌ مثاليّةٌ لا تصدّق في الذّهاب بلهفةٍ والتقدّم بالزّواج لـروزماري، أكثر النّساء غير الملائمات التي من

الممكن أن يلتقي بهنّ المرء وأصغرهنّ سنًّا.

كانت السيّدة "مارشال إيليوت" صديقته المقرّبة وكانت تروق له ولكنّها حين أخبرته بصراحةٍ بأنّه يجب عليه أن يتزوّج من جديد، أحسّ بأنّها مزّقت الحجاب الذي كان يخفي ضريحًا مقدّسًا في حياته الوجدانيّة وبات يهابها إلى حدٍّ ما منذ ذلك اليوم. كان يعلم أنّه هناك العديد من النّساء في عمرٍ ملائمٍ ضمن رعيّته اللّواتي قد لا يتردّدن في الزّواج منه. كانت تلك الحقيقة قد تسرّبت عبر كلّ شروده خلال فترة كهنوته في جلين سانت ماري. كنّ نساءً طيّباتٍ ماديّاتٍ وغليظات، لم يمنّ الجمال سوى على واحدةٍ أو اثنتين منهنّ متناسيًا الأخريات وظنّ السيّد ميريديث لاحقًا أنّ زواجه من أيٍّ منهنّ سيكون بمثابة نحر نفسه، إذ كان يملك بعض المبادئ التي تعجز أيّ ضرورةٍ على أن تجعله مخطئًا بشأنها. لم يكن في وسعه أن يطلب من أيّ امرأةٍ ملء فراغ "سيسيليا" في منزله إلّا إن كان يستطيع أن يمنحها على الأقلّ بعض المودّة والوفاء اللّذين كان قد منحهما لزوجته الشّابة. وكيف له أن يجد امرأةً كتلك من بين معارفه المحدودات من النّساء؟

كانت "روزماري ويست" قد أقبلت إلى حياته في تلك العشيّة الخريفيّة جالبةً معها ساريةً وجدت فيها روحه أثرًا مألوفًا، وكانا قد تصافحا بأيدي الصّداقة عند شاطئ الغرابة وعرفها خلال العشر دقائق تلك، أكثر ممّا عرف "إيميلين درو" أو "إليزابيث كيرك" أو "آمي آنيتا دوجلاس" خلال عامٍ كامل وأكثر ممّا قد يعرفهم خلال قرن. كان قد هرع إليها قاصدًا أُنسها حين أثارت السيّدة "آلك دايفس" سخط عقله وروحه وقد بادلته إيّاه. ومنذ ذلك اليوم، كان يتردّد دائمًا إلى منزل التلّة متسلّلًا بين الطّرقات المظلّلة في وادي قوس المطر بخفّةٍ ودهاء حتّى أنّ نمّامي قرية جلين لم يستطيعوا أن يتأكّدوا أبدًا من أنّه كان ذاهبًا حقًّا لمقابلة "روزماري ويست". لقد صادفه زوّارٌ آخرون في غرفة معيشة

آل "ويست" مرّةً أو اثنتين وكانت تلك المعلومة الوحيدة التي تملكها جمعيّة "مساعدة السيّدات" ولكن حين سمعت "إليزابيث كيرك" بذلك، تخلّت عن أملٍ سريّ كانت قد سمحت لنفسها بالتعلّق به دون أن تبدي أيّ تغييرٍ في تعابير وجهها البسيط الشّفوق وعقدت "إيميلين درو" العزم على عدم رفض أيّ رجلٍ أعزب في "لوبريدج" في المرّة المقبلة كما فعلت في الاجتماع السّابق. فممّا لا شكّ فيه أنّ روزماري سوف تفلح في إيقاع الكاهن في شباكها إن كانت ترغب في ذلك، إذ كانت تبدو أكثر فتوّة وكان جميع الرّجال يرونها فاتنةً للغاية ثمّ إنّ فتيات ويست كنّ ثريّات!

ولم تسمح لنفسها بالتّفوّه بكلامٍ ناقمٍ للأخت "درو" المتعاطفة باستثناء: "علينا أن نأمل ألّا يكون شارد الذّهن لدرجة أن يتقدّم بالزّواج إلى إيلين بالخطأ."

ولم تكنّ أيّ ضغينةٍ لـروزماري بعد ذلك. ففي آخر المطاف، يبقى رجلٌ عازب سليم أفضل من رجلٍ أرمل له أربعة أطفال، كما أنّ رونق الدّير هو ما كان يعمي بصيرة "إيميلين" مؤقّتًا ليس إلّا.

مرّت زلّاجةٌ تحمل ثلاثة ركّابٍ يزعقون من جانب السيّد ميريديث متّجهةً نحو البركة. كان شعر فيث المجعّد يلوّح في الرّياح وكان صوت ضحكاتها يفوق أصوات الآخرين. نظر السيّد ميريديث إليهم بتلهّفٍ وحنين. كان مسرورًا لأنّ أطفاله يملكون أترابًا كأطفال بلايث، مسرورًا لأنّهم يملكون صديقةً حكيمةً ومرحة وحنونةً كالسيّدة بلايث ولكنّهم كانوا في حاجةٍ لشيءٍ أكثر، شيء سوف يتوفّر لهم حين يحضر "روزماري ويست" عروسًا إلى الدّير القديم، فقد كانت تملك في نفسها ميزة أموميّةً بشكلٍ خاص.

كانت اللّيلة ليلة السّبت ولم تكن من عادته أن يذهب للزّيارة في ليالي السّبت التي كانت من المفترض أن تُستغّل لمراجعة

خطاب الأحد والتفكّر فيه. ولكنّه اختار هذه اللّيلة لأنّه علم أنّ "إيلين ويست" لن تكون موجودة وأنّ روزماري ستكون بمفردها. وبقدر ما قضى أمسياتٍ مؤنسة في المنزل فوق التلّة منذ ذلك اللّقاء الأوّل عند الينبوع، غير أنّه لم تتسنّى له رؤية روزماري بمفردها أبدًا بل كانت إيلين حاضرةً دائمًا.

لم يكن معترضًا على تواجد إيلين هناك بل كانت تروق له حقًّا وكانا أعزّ صديقين. كانت إيلين تتمتّع بتفهّمٍ رجوليٍّ للأمور، وحسّ فكاهةٍ كان محبّبًا لدى جانبه المخفيّ الخجول المحبّ للمرح، وكان معجبًا باهتمامها بالسّياسة والأحداث العالميّة. لم يكن هناك رجلٌ في قرية جلين يملك استيعابًا لمثل هذه الأمور من دون استثناء الطّبيب بلايث حتّى.

وقد قالت: "أرى أنّه من الصّواب أن يجد المرء ما يثير اهتمامه طالما هو على قيد الحياة وإلّا فلا يبدو لي أنّ هناك فرقًا بين الأموات والأحياء."

كان يحبّ صوتها العذب العميق المدمدم، كان يحبّ قهقهتها التي تختتم بها القصص المرحة المسليّة. لم تكن ترميه بالإهانات بسبب أطفاله كبقيّة نساء قرية جلين ولم تكن تضجره بالنّميمة المحليّة ولم تكن تحمل في نفسها الخبث ولا الحقارة بل كانت صريحةً دائمًا. كان السيّد ميريديث والذي قد تعلّم طريقة الآنسة كورنيليا في تصنيف النّاس، يعتبر أنّ إيلين تنتمي إلى سلالة يوسف. ولكنّ الرّجال لا يرغبون بتواجد أيّة امرأة، حتّى أكثرهنّ جدارة بالإعجاب، عندما يتقدّمون بالزّواج لامرأةٍ أخرى وكانت إيلين موجودةً دومًا. لم تكن تصرّ على التحدّث مع السيّد ميريديث بنفسها طيلة الوقت وكانت تسمح لروزماري بقضاء متّسعٍ من الوقت معه. وبالفعل كانت إيلين تزيل وجودها تمامًا في العديد من الأمسيات تقريبًا وتجلس في الزّاوية

والقدّيس "جورج" في أحضانها وتسمح للسيّد ميريديث وروزماري بالتّسامر والغناء وقراءة الكتب سويًّا حتّى أنّهم كانوا ينسون وجودها تمامًا. ولكن، إن حدث وخانت محادثاتهم أو اختيارهم للأغنيات حدود ما كانت إيلين تعتبره مغازلة، كانت إيلين تقضي على المشكلة في مهدها وتزيح روزماري لبقيّة الأمسية. ولكن تعجز حتّى أشرس التّنانين الأنيسة عن الوقوف في وجه تلك اللّغة الغامضة، لغة العيون والابتسامات والصّمت البليغ وهكذا استمرّ تودّد الكاهن على ذلك المنوال.

ولكن إن كان لا بدّ من الأمور بلوغ ذروتها، فإنّ ذلك البلوغ ينبغي أن يحدث حينما تكون إيلين غائبة وقلّما كانت إيلين تغادر المنزل، ولاسيّما في فصل الشّتاء. وقد أقسمت أنّها تجد في منزلها أكثر الأماكن راحةً في العالم بأسره، لم يكن التّسكّع يستهويها وكانت تستحسن مجالسة الآخرين ولكن تحت سقف منزلها. كاد السيّد ميريديث أن يتوصّل إلى قرار أن يختصّ روزماري برسالةٍ يفصح لها فيها عمّا يجول في خاطره، وإذ بـإيلين ويست تعلن ذات مساءٍ عن ذهابها لحضور حفلة ذكرى زواج مساء السّبت المقبل. لقد كانت إشبينةً في حفل الزّفاف ولم يُدعى سوى الضّيوف القدامى لذا لم تكن روزماري مدعوّة. أتلع السيّد ميريديث أذنيه قليلًا وأشرق نورٌ في عينيه الحالمتين السّوداوتين، لحظته كلٌّ من روزماري وإيلين. وشعرت الاثنتان، وقد اعترتهما صدمةٌ مرعشة، أنّ السيّد ميريديث سوف يأتي لزيارة منزل التلّة ليلة السّبت المقبل بلا ريب.

بعد مغادرة السيّد ميريديث عائدًا إلى منزله وانصراف روزماري إلى الطّابق العلويّ دون النّطق بأيّة كلمة، أخبرت إيلين القطّ الأسود بصرامة: "من الأفضل أن ننهي هذا الأمر، هو ينوي أن يسألها أيّها القدّيس "جورج" وأنا متأكّدةٌ من ذلك. لذا من الأفضل أن يتنهز هذه

الفرصة ويكتشف أنّه لا يستطيع الحصول عليها يا "جورج". أعلم أنّها تفضّل أن تقبل عرضه أيّها القدّيس، أنا مدركةٌ لذلك ولكنّها وعدت وعليها أن تحافظ على وعدها. في الواقع، أنا أشعر بالأسف إلى حدٍّ ما أيّها القدّيس "جورج" فأنا لا أعرف رجلًا آخر أودّه أن يكون زوج أختي إن كان زواجها واردًا. أنا لا أملك شيئًا ضدّه أيّها القدّيس، لا أملك شيئًا ضدّه باستثناء أنّه لا يرغب أن يقتنع بنفسه أو أن يقنعه أحدٌ بأنّ الامبراطور الألمانيّ يشكّل خطرًا يهدّد سلام أوروبا. ذلك هو جانبه الأعمى ولكنّه جليسٌ مؤنس وهو يروق لي. في وسع المرأة أن تخبر شخصًا له لسان السيّد ميريديث بكلّ ما تشاء وأن تكون متأكّدةً من أنّه لن يسيء فهمها. إنّ رجلًا كهذا أثمن من الياقوت أيّها القدّيس وأكثر منها ندرة يا "جورج". ولكنّه لا يمكنه الحصول على روزماري وأفترض أنّه سيتخلّى عن كلانا حين يكتشف أنه لا يستطيع الحصول عليها. وسوف نفتقده، سوف نفتقده إلى حدٍّ مخزٍ يا جورج. ولكنّها وعدت وسوف أرى كيف ستحافظ على وعدها!"

بدا وجه إيلين دميمًا في الظّلام. وفي الطّابق العلوي، كانت روزماري تبكي على وسادتها.

وهكذا، وجد السيّد ميريديث حبيبته وحيدةً وكانت تبدو ساحرةً للغاية. لم تكن روزماري قد تزيّنت لهذه المناسبة، أرادت أن تفعل ولكنّها ظنّت أنّ التزيّن والتأنّق لأجل رجلٍ كانت تنوي أن ترفضه أمرٌ باطلٌ منطقيًّا. لذا ارتدت ثوبها المسائيّ الأسود البسيط وبدت فيه كالملكة. تورّد وجهها بجيشانها الملجوم إلى أن تألّق وكانت عيناها الزّرقاوان تفيضان نورًا وكانتا أكثر سكونًا من العادة.

تمنّت بفارغ الصّبر لو تنتهي المقابلة التي كانت تنتظرها طيلة النّهار بوجل. كانت واثقةً كلّ الثّقة من أنّ السيّد ميريديث مهتمٌ بأمرها بشكلٍ رهيب تمامًا كما كانت واثقةً من أنّه لم يكن مهتمًّا بها كما كان مهتمًّا

بحبّه الأوّل. أحسّت بأنّ رفضها سوف يخيّب أمله بشكلٍ ملحوظ، ولكنّها لم تكن تشعر بأنّ ذلك سوف يقضي عليه نهائيًا وبالرّغم من ذلك، لم تكن تكره أن تقدم على ذلك، تكره أن تفعل لأجله و- كانت روزماري صريحةً جدًّا مع نفسها، لأجل نفسها. كانت تعلم أنّها كانت لتقع في حبّ "جون ميريديث" لو... لو كان ذلك مسموحًا. كانت تعلم أنّ حياتها ستضحي فارغةً إن أبى أن يبقى صديقًا حين يُرفض كحبيب. كانت تعلم أنّ في وسعها أن تجد السّعادة معه وأن تجلب له السّعادة. ولكن بينها وبين السّعادة، تحول بوّابة سجن وعدٍ كانت قد وعدت به إيلين منذ سنواتٍ مضت. لم يكن في وسع روزماري استذكار صورة والدها الذي كان قد توفيّ حين لم تكن قد تجاوزت الثّالثة من عمرها. أمّا إيلين، والتي كانت في الثّالثة عشر من عمرها حينها، فكانت تتذكّره ولكن من دون حنانٍ يُذكر. لقد كان رجلًا جهمًا ومتحفّظًا، أكبر من زوجته الجميلة الشّقراء بسنواتٍ عديدة. بعد خمس سنوات، لاقى أخوهما ذو الاثني عشر عامًا حتفه كذلك، ومنذ ذلك اليوم، عاشت الفتاتان وحيدتين مع والدتهما. ولم تنخرطا بحريّةٍ في الحياة الاجتماعيّة في قرية جلين أو في "لوبريدج" على الرّغم من أنّ حيويّة إيلين وفطنتها وجمال روزماري ولطافتها كانا يجعلانهما ضيفتين مرحّبًا بهما أينما وطأتا. واجهت كلاهما ما يسمّى "خيبة الأمل" في صباهما. لم يعرض البحر عن اختطاف حبيب روزماري أمّا "نورمان دوجلاس" والذي كان حينها شابًّا جسيمًا مشرق الجبين عُرف بقيادته المتهوّرة وطيشه غير المؤذي، تشاجر مع إيلين وتركها في نوبة غضب.

كان هنالك العديد من المرشّحين لمكان كلٍّ من "مارتن" و"نورمان"، ولكن لم يستطع أيٌّ منهم إيجاد الاستحسان في عينيّ فتاتيّ "ويست" اللّتين انجرفتا شيئًا فشيئًا بعيدًا عن ريعان الشّباب والجمال من دون أيّ ندم. كانتا بارّتين لوالدتهما التي كانت تقاسي

مرضًا مزمنًا. كانت ثلاثتهنّ يمتلكن محيطًا بسيطًا من الاهتمامات المنزليّة كالكتب والحيوانات الأليفة والأزهار، الأمر الذي كان كفيلًا بإبقاهنّ سعيداتٍ ومكتفيات.

كانت وفاة السيّدة "ويست"، التي حدثت في عيد ميلاد روزماري الثّاني عشر، حرقة مريرة بالنّسبة إليهما وشعرتا في بادئ الأمر بوحدةٍ لا تُطاق ولاسيّما إيلين التي لم تنفكّ تتحسّر وتكتئب، تعكّر تأمّلاتها المزاجيّة الطّويلة نوباتٌ من النّواح الصّاخب الملتاع. أخبر طبيب "لوبريدج" العجوز روزماري بأنّه يخشى أن تعاني إيلين من الاكتئاب الدّائم أو أسوأ منه.

ذات يوم، حين جلست إيلين طيلة النّهار رافضةً أن تأكل أو تتكلّم، جثت روزماري على ركبتيها بجانب أختها.

وقالت متوسّلة: "آهٍ يا إيلين ما زلت بجانبك، ألا أعني لك شيئًا؟ لطالما أحبّت إحدانا الأخرى."

قالت إيلين محطّمةً صمتها بشيءٍ من العنف: "لن تبقي بقربي إلى الأبد. سوف تتزوّجين وتتركينني وسوف أبقى وحيدة وأنا لا يسعني تحمّل ذلك... لا يمكنني. أنا أفضّل الموت."

قالت روزماري: "أنل لن أتزوّج أبدًا. أبدًا يا إيلين."

فقالت: "أتعدينني بذلك حقًّا؟ أقسمي على إنجيل والدتنا."

وافقت روزماري على الفور، مصمّمةً على إدخال البهجة إلى قلب إيلين. لم كان ذلك مهمًّا؟ كانت تعلم أنّها لن ترغب في الزّواج من أيّ أحد. لقد غرق حبّها مع "مارتن كروفورد" في قعر البحار منذ وقتٍ طويل، ولم يكن في وسعها أن تتزوّج أيّ شخصٍ بدون الحبّ. لذا وعدت أختها بسهولة على الرّغم من أنّ إيلين جعلت ذلك طقسًا مرعبًا. فشبكت الفتاتان يديهما فوق الكتاب المقدّس في غرفة والدتهما المقفرة وتعهّدتا لبعضهما البعض بأنّهما لن تتزوّجا في حياتهما وأنّهما

سوف تعيشان سويًّا إلى الأبد. تحسّنت حال إيلين منذ تلك السّاعة وسرعان ما استعادت اتّزانها المرح المعتاد. وعاشت هي وروزماري في ذلك المنزل القديم بهناء، لا يعكّر صفو حياتهما أيّ تفكيرٍ في الزّواج أو الإذعان للزّواج. لم يشكّل وعدهما عبئًا عليهما، ولم تتوانى إيلين في تذكير أختها به متى ما اعترض طريقهما رجلٌ مؤهّل للزّواج، ولكن لم يثر أحدٌ جزعها حقًّا إلى أن أتى "جون ميريديث" إلى المنزل تلك اللّيلة برفقة روزماري. أمّا عن روزماري، فلطالما كان هاجس إيلين بذلك الوعد مجرّد منبعٍ للسّرور بالنّسبة لها حتّى الفترة الأخيرة، أمّا الآن فقد أضحى وثاقًا عديم الرّحمة، صحيحٌ أنّها فرضته على نفسها بنفسها، ولكنّها سوف تبقى رهينته إلى الأبد. وسوف يتعيّن عليها أن تشيح بوجهها عن السّعادة بسببه هذه اللّيلة.

صحيحٌ أنّه لم يكن في وسعها أن تمنح برعم الحبّ العذب الخجول الذي منحته لحبيبها الشّاب لأيّ أحد، ولكنّها كانت تعلم أنّه في استطاعتها أن تمنح "جون ميريديث" حبًّا أغنى وأكثر أنثويّة. كان تعلم أنّه لامس في قلبها أماكن قعيرةً لم يصل إليها "مارتن" قطّ، أماكن لربّما لم تكن موجودةً في وجدان تلك الفتاة ذات السّبعة عشر عامًا. وسوف يتوجّب عليها أن تردّه خائبًا هذه اللّيلة، أن تردّه إلى فؤاده الموحش وحياته الخاوية، إلى متاعبه الأليمة... لأنّها تعهّدت لإيلين، فوق إنجيل والديهما قبل عشر سنوات، بأنّها لن تتزوّج في حياتها.

لم يغتنم "جون ميريديث" فرصته على الفور. بل على العكس، فقد استغرق في حديثٍ مطوّلٍ دام لساعتين يدور حول مواضيع بعيدةً كلّ البعد عن الحبّ، حتّى أنّه لجأ إلى التطرّق إلى السّياسة على الرّغم من أنّ روزماري كانت تجدها مملّة. بدأت تلك الأخيرة تظنّ أنّها كانت مخطئةً كليًّا، وفجأةً بدت لها مخاوفها وتوقّعاتها سخيفةً. أحسّت أنّها تافهةٌ وحمقاء وانجلى وهج محياها وانقشع البريق من عينيها. لم يكن

"جون ميريديث" يملك أيّ نيّة ليتقدّم إليها بالزّواج.

وإذ به ينهض فجأة ثمّ يسير نحوها ويقف بجانبها ويطلب منها ذلك. أضحت الغرفة ساكنةً بشكلٍ رهيب. حتّى أنّ القدّيس "جورج" قد أقلع عن الخرخرة. سمعت روزماري صوت خفقان قلبها وكانت واثقةً من أنّ "جون ميريديث" كان يسمعه أيضًا.

حانت اللّحظة التي يجب أن تقول فيها "لا"، بلطفٍ ولكن بحزمٍ كذلك. كانت قد هيّأت كلمات أسفها المنمّقة منذ أيّام، غير أنّ عباراتها قد خانتها في تلك اللّحظة، واندثرت من ذهنها تمام الاندثار. كان عليها قول "لا" ولكن انتابها شعورٌ بأنّها عاجزةٌ عن فعل ذلك. كانت تلك الكلمة المستحيلة. وأدركت في تلك اللّحظة أنّها لم تكن تظنّ أنّ في وسعها أن تقع في حبّ "جون ميريديث" وحسب، بل كانت قد وقعت في حبّه بالفعل. كانت فكرة استثنائه من حياتها غصّة في قلبها.

كان عليها أن تقول شيئًا ما، لذا رفعت رأسها المنحني وطلبت إليه متلعثمةً بحروفها أن يمنحها بضعة أيّام لأجل- لأجل التّفكير في الأمر.

تفاجأ "جون ميريديث" بعض الشّيء، هو لم يكن أكثر تكبّرًا من أيّ رجلٍ غيره، ولكنّه كان يتوقّع من روزماري أن توافق، فقد كان متأكّدًا من أنّها مهتمّةٌ به. إذًا لم هذا الارتياب والتردّد؟ هي لم تعد صبيّةً تائهةً في رغباتها. وسارت في جسده رعشةٌ كريهةٌ من خيبة الأمل والارتياع. ولكنّه أذعن لطلبها بلطافة ذوقه الذي لا ينضب وغادر على الفور.

قالت روزماري بعينيها الكاسفتين ووجهها المتولّع: "سوف أعطيك إجابتي خلال بضعة أيّام."

حين أوصد الباب خلفه، عادت إلى غرفتها وشبكت يديها.

***

22
القدّيس جورج يعلم كلّ شيء



كانت "إيلين ويست" عائدةً إلى المنزل من حفل ذكرى زواج آل "بولوك". كانت قد تخلّفت هناك لبعض الوقت بعد أن غادر بقيّة الضّيوف كي تمدّ يد العون للعروس الشّيباء في غسل الأواني. لم تكن المسافة بين المنزلين بعيدة لذا استمتعت إيلين بالسّير في طريق عودتها إلى المنزل في تلك اللّيلة القمراء.

كانت الأمسية ممتعة. وجدتها إيلين، والتي كانت لم تحضر أيّ حفلٍ لأعوام، مؤنسةً للغاية. كان جميع الضّيوف أصدقاء قدامى ولم يكن هناك أيّ يافعين متطفّلين لإفساد اللّذة، إذ تعذّر على ابن العروسين الوحيد أن يحضر بسبب انشغاله بعيدًا في كليّته. كان "نورمان دوجلاس" هناك، فالتقت به بشكلٍ اجتماعيٍّ للمرّة الأولى منذ سنوات، على الرّغم من أنّها لمحته مرّةً أو اثنتين في الكنيسة هذا الشّتاء. لم يستيقظ أدنى شعورٍ في قلب إيلين إثر لقائهما. كانت معتادةً على التساؤل متى فكّرت فيه على الإطلاق، وكيف استطاعت أن تحبّه أو أن تشعر بالامتعاض إزاء زواجه المفاجئ. ولكنّها رغبت في مقابلته ثانيةً. لقد نسيت كم كان في استطاعته أن يكون محفّزًا ومنشّطًا. لم تكن أيّ

الاجتماعات كاسدة في حضور "نورمان دوجلاس". كان الجميع قد اندهش لحضوره، ذلك أنّه عُرف بعدم ذهابه إلى أيّ مكان. كان آل "بولوك" قد دعوه لأنّه كان أحد الضّيوف الأصليّين ولكنّهم لم يخالوا أبدًا أنّه سوف يلبّي الدّعوة. كانت قد اصطحب قريبته الثّانية "آمي آنيتا دوجلاس" إلى العشاء ولكنّه كان يبدو، إلى حدٍّ ما، مباليًا بها أكثر من تلك الأخيرة. غير أنّ إيلين جلست إلى الطّاولة بعيدًا عنه وخاضت معه جدالًا محتدمًا، جدالًا لم يستطع في خلاله كلّ صراخه ومزاحه أن يربكها، لا وبل انتصرت عليه فيه ومسحت به الأرض تمامًا برباطة جأشٍ حتّى أنّه لم ينبس ببنت شفة لعشرة دقائق، انتهت بتمتمته تحت لحيته الحمراء قائلًا:

"جريئةٌ كعادتها، جريئةٌ كعادتها." وراح يرهب "آمي آنيتا" بصراخه وصياحه، فكانت تلك الأخيرة تقهقه بسخافةٍ في حين كانت إيلين لتردّ الصّاع صاعين.

قلّبت إيلين تلك الأفكار في رأسها بينما هي في طريقها إلى المنزل متلذّذةً بطعمها الحافل بالذّكريات. تألّق الهواء في الصّقيع تحت وهج القمر وكان الثّلج يتغضّن تحت قدميها. ومن تحتها، انبسطت قرية جلين وكان الميناء على بعدٍ منها. كان هناك نورٌ يشعّ من مكتب الكاهن، إذًا فقد عاد "جون ميريديث" إلى منزله. هل عرض الزّواج على روزماري؟ وبأيّ أسلوبٍ أعلنت روزماري عن رفضها؟ إنتاب إيلين شعورٌ بأنّ هذا الأمر سوف يبقى سرًّا للأبد بالرّغم من أنّها كانت فضوليّةً للغاية. كانت متأكّدةً من أنّ روزماري لم تكن ستخبرها بأيّ شيءٍ إطلاقًا بهذا الخصوص، وما كانت لتجرؤ على سؤالها. كانت عليها فقط أن ترضى بحقيقة رفض روزماري. ففي آخر المطاف، كان هذا الأمر الوحيد الذي يهمّ حقًّا.

قالت في قرارة نفسها: "آمل أن يكون متفهّمًا بما يكفي كي يستمرّ

بزيارتنا من حينٍ إلى آخر ويكون ودودًا."

كانت تكره البقاء وحيدة حتّى أنّ التّفكير بصوتٍ مرتفع كان إحدى وسائلها في الاحتيال على العزلة غير المرحّب بها. "إنّه لأمرٌ فظيعٌ ألّا يملك المرء رجلًا أُنعم عليه ببعض الذّكاء كي يتبادل معه أطراف الحديث من وقتٍ لآخر. ليس الأمر وكأنّه لن يقترب من ذلك المنزل ثانيةً. كما أنّ "نورمان دوجلاس" ما يزال موجودًا، يعجبني ذلك الرّجل أيضًا وأرغب في التّجادل معه بين الفينة وأختها. ولكنّه لن يجرؤ بتاتًا على المجيء خوفًا من أن يظنّ النّاس أنّه يحاول التودّد لي للزّواج ثانيةً، وعلى الأرجح خوفًا من أن أظنّ أنا ذلك أيضًا... على الرّغم من أنّه أضحى غريبًا عنّي الآن أكثر من جون ميريديث. يبدو لي أنّ كوننا عاشقين بات أشبه بحلمٍ الآن. ولكن تلك هي الحال، ثمّة رجلين فقط في قرية جلين أرغب في التّحدّث إليهما. وبفضل كلّ تلك الثّرثرة وأخبار الحبّ الدّنيئة، فعلى الأرجح أنّني لن أر أيًّا منهما ثانيةً. لأمكنني..."

تابعت إيلين مخاطبةً النّجوم الثّابتة بتأكيدٍ ناقم: "لأمكنني أن أخلق عالمًا أفضل بنفسي."

توقّفت أمام بوّابة منزلها حيث اعتراها إحساسٌ بالجزع الغامض الغريب. كانت غرفة المعيشة ما تزال مضاءة وعلى السّتائر، ارتسم ظلّ امرأةٍ تسير باضطرابٍ ذهابًا وإيابًا في الغرفة. ما الذي كانت روزماري تفعله حتّى هذه السّاعة من اللّيل؟ ولم كانت تتمشّى كالمجانين؟

سألت إيلين: "لم لست في سريرك يا روزماري؟"

أجابت روزماري بانفعال: "أدخلي، أودّ أن أخبرك بأمرٍ ما."

خلعت إيلين سترتها وجرموقها بهدوءٍ ولحقت بأختها إلى داخل الغرفة الدّافئة ووقفت واضعةً يدها على الطّاولة وانتظرت. كانت تبدو حسناء للغاية أيضًا بطريقتها الشّرسة الخاصّة وبحاجبيها السّوداوين.

كان الفستان المخملي الأسود الجديد، ببطانته ياقته المثلّثة، والذي كانت قد صمّمته خصّيصًا لأجل الحفلة، مناسبًا لمظهرها الجليل والضخم. كانت ترتدي حول عنقها قلادة خرز العنبر الثّمينة التي كانت إرث الأسرة. أضفى سيرها في الهواء المتجمد وهجًا قرمزيًا إلى وجنتيها. لكن عينيها الزرقاوين الفولاذيتين جليديتان ومعاندتان مثل سماء ليلة الشتاء. وقفت تنتظر بصمتٍ لم يكن في وسع روزماري كسره إلّا بعد جهدٍ جهيد.

"إيلين... لقد جاء السيّد ميريديث إلى هنا هذا المساء."

"وماذا بعد؟"

"و... و... عرض عليّ أن أتزوّجه."

"هذا ما توقّعته. وبالطّبع رفضته أليس كذلك؟"

"كلّا."

"أطبقت إيلين يديها وتقدّمت خطوةً لاإراديّةً نحو الأمام قائلةً: "روزماري. أتعنين إخباري بأنّك قبلت عرضه؟"

"لا... لا."

استعادت إيلين هدوء أعصابها.

"ماذا فعلت إذًا؟"

"طلبت منه أن يمنحني بعض الوقت للتّفكير في الأمر."

قالت إيلين راشحةً بالازدراء: "أنا لا أرى ما الجدوى من ذلك بما أنّك لا تملكين سوى إجابةٍ واحدةٍ له."

بسطت روزماري يديها بتوسّل وقالت بيأس: "إيلين، أنا أحبّ جون ميريديث... أريد أن أصبح زوجته. هلّا أطلقت سراحي من قيود ذلك الوعد؟"

قالت إيلين بدون رحمة وقد ارتعد فؤادها وجلًا: "لا."

"إيلين... إيلين..."

قاطعتها إيلين قائلة: "اسمعي، أنا لم أطلب منك ذلك الوعد بل أنت من قدّمته."

"أنا أعلم... أنا أعلم ولكنّني لم أكن أظنّ حينها أنّني قد أعير الاهتمام لأيّ رجلٍ مرّةً أخرى."

تابعت إيلين لامبالية: "أنت من قدّمته. وقد تعهّدت به فوق إنجيل والدتنا. كان أكثر من مجرّد وعد، كان قسمًا! والآن تريدين أن تخلفي بوعدك."

"لم أطلب منك سوى أن تحرّريني منه يا إيلين."

"لن أفعل. الوعد وعدٌ في نظري. لن أفعل. اخلفي بوعدك، احنثي بقسمك إن أردت ولكنّ ذلك لن يحدث بأيّ موافقةٍ منّي."

"إنّك تقسين عليّ يا إيلين."

"أقسو عليك؟ وماذا عنّي؟ هل سبق لك أن أعرت البال للوحدة التي سوف تلازمني إن تركتني؟ لن يسعني تحمّل ذلك... قد أفقد صوابي. أنا لا أستطيع أن أعيش وحدي. ألم أكن أختًا صالحةً لك؟ هل سبق أن عارضت أيًّا من رغباتك؟ ألم أطلق لك العنان في كلّ الأمور؟"

"بلى... بلى."

"إذًا لم تريدين أن تتخلّي عنّي لأجل هذا الرّجل الذي لم تكوني تعرفينه قبل سنة؟"

"أنا أحبّه يا إيلين."

"تحبّينه؟ أنت تتحدّثين وكأنّك صبيّةٌ في المدرسة بدلًا من كونك امرأةً في منتصف العمر. هو لا يحبّك، بل يرغب فيك كي تصبحي مدبّرة منزله ومربّية أطفاله. وأنت لا تحبّينه، بل أنت إحدى تلك النّساء الحمقاوات اللّواتي يرغبن في أن يلقّبن بـ "السيّدة" ويعتقدن أنّه من العار أن يصنّفن على أنّهن عانسات. هذا كلّ ما في الأمر."

ارتعدت روزماري. لم تتمكّن إيلين من تفهّمها أو لم تكن تريد

تفهّمها. لم يكن هناك جدوى من التّجادل معها.

"إذًا ألن تطلقي سراحي يا إيلين؟"

"كلّا، لن أفعل. ولن أتّحدث في هذا الأمر مجدّدًا. لقد قطعت وعدًا وسيتوجّب عليك أن تحافظي عليه. هذا كلّ ما لديّ. اذهبي للنّوم. انظري إلى الوقت! أنت مهتاجةٌ وعاطفيّة، سوف تعودين إلى رشدك في صباح الغد. على كلّ حال، لا تتفوّهي بهذه التّرهات أمامي مرّةً أخرى. اذهبي."

غادرت روزماري دون أن تضيف أيّ كلمة، شاحبةً وخنوعة. تمشّت إيلين في الغرفة لبضعة دقائق وقد فار فائرها، ثمّ توقّفت أمام الكرسيّ حيث كان القدّيس "جورج" نائمًا قرير العين طيلة الأمسية. ثمّة مرّةٌ واحدة في حياة إيلين... تلك المرّة التي توفيّت فيها والدتها... لم تستطع فيها أن تمزج الفاجعة بالمهزلة ولا حتّى في ذحلها منذ وقتٍ طويل حين تخلّى "نورمان دوجلاس" عنها بتلك الطّريقة. كانت قد سخرت من نفسها بقدر ما ذرفت من الدّموع.

"أتوقّع أن تبقى مستاءةً لبعض الوقت أيّها القدّيس "جورج". أجل أيّها القدّيس، أتوقّع أنّنا مقبلون على بضعة أيّامٍ ضبابيّةٍ كئيبة. ولكنّنا سوف نصمد في وجه العاصفة يا "جورج" سبق أن تعاملنا مع أطفالٍ مغفّلين من قبل أيّها القدّيس. سوف تبقى روزماري مقطّبة الجبين لبعض الوقت ثمّ تتخطّى الأمر بعدها وستعود المياه إلى مجاريها يا "جورج" لقد قطعت وعدًا وسينبغي لها أن تحافظ عليه. وهذه هي المرّة الأخيرة التي أتطرّق فيها لهذا الموضوع معك أو مع أيّ أحدٍ آخر أيّها القدّيس."

غير أنّ النّوم قد جافى إيلين حتّى الصّباح.

في اليوم التّالي، لم تكن روزماري عابسة، ولكنّها كانت شاحبةً وصامتة وباستثناء ذلك، لم تلحظ إيلين أيّ اختلافٍ فيها. وممّا لا شكّ

فيه أنّها لم تكن تبدو وكأنّها تكنّ الضّغينة لإيلين. كان الجوّ عاصفًا، لذا كان حضور الكنيسة غير واردًا. بعد الظهيرة، خلت روزماري بنفسها في غرفتها وكتبت رسالةً إلى "جون ميريديث". لم تكن تثق بنفسها في رفضه وجهًا لوجه وكانت متأكّدةً من أنّه إن شعر بأنّها كانت تتردّد في رفضه فهو لن يقبل إجابتها وكانت عاجزةً عن مواجهة الاستجداء والاستعطاف. كان عليها أن توهمه بأنّها ليست مهتمّةً بأمره البتّة، ولم يكن في وسعها أن تفعل ذلك سوى عبر رسالة. فكتبت إليه أقسى رسالة رفضٍ على الإطلاق وأكثرها جفافًا، كانت كلماتها مراعيةً بالكاد لا تترك أيّ فسحةٍ من الأمل لأكثر العشّاق جرءة... والسيّد ميريديث كان بعيدًا كلّ البعد عن أمثال هؤلاء. في اليوم التّالي، حين قرأ رسالة روزماري في مكتبه الأغبر، انقبض صدره وشعر بالخزي، ولكن تحت ذاك الخزي، ارتأى له إدراكٌ مهوّل. كان قد ظنّ أنّه لم يحبّ روزماري بقدر ما أحبّ "سيسيليا". ولكن الآن بعد أن خسرها... أدرك أنّ الحقيقة كانت منافيةً لذلك. كانت كلّ شيءٍ بالنّسبة إليه... كلّ شيء! وكان عليه أن يزيلها من حياته إلى الأبد حتّى أنّ الحفاظ على صداقتهما معًا كان مستحيلًا الآن. لاحت له الحياة في وحشةٍ لا تطاق. كان عليه أن يمضي قدمًا، لأجل عمله، لأجل أطفاله... ولكنّ فؤاده خُلع من صدره. جلس وحيدًا اللّيل بطوله في مكتبه المظلم البارد غير المريح مسندًا رأسه المنحني على يديه. بعيدًا في أعلى التلّة كانت روزماري تعاني من الصّداع فخلدت للنّوم باكرًا في حين أشارت إيلين إلى القدّيس "جورج" الذي كان يصدر هريرًا محتقرًا حماقة الجنس البشريّ الذي كان يجهل أنّ الوسادة النّاعمة هي الشّيء الوحيد المهمّ بحقّ وقالت:

"ماذا ستفعل كانت النّساء لولا الصّداع أيّها القدّيس "جورج"؟ ولكن لا عليك أيّها القدّيس. أعترف أنّني أنا أيضًا لا أشعر بالارتياح يا

"جورج". أشعر وكأنني اقترفت ذنبًا عظيمًا. ولكنّها قطعت وعدًا أيّها القدّيس وهي من قدّمت ذلك الوعد يا "جورج" بحق اللّه!"

***

23
نادي السّلوك الحسن



هطلت أمطارٌ خفيفةٌ طيلة النّهار، أمطارٌ ربيعيّةٌ غيداء لطيفة بدت وكأنّها تهمس إلى زهور أيّار وأزهار البنفسج المتبرعمة. كان الميناء والخليج وحقول الشّاطئ المنخفضة جميعها مغشّاة بسديمٍ أرمد كاللّؤلؤ. غير أنّ الأمطار توقّفت عن الهطول مع تخييم اللّيل وانجلاء الضّباب نحو البحر. انتثرت الغيوم في سماء الميناء وكأنّها ورودٌ حمراء صغيرة. بعيدًا، كانت التّلال المظلمة تتألّق بوافرٍ من أزهار النّرجس البريّ القرمزيّ. كانت نجمةٌ عظيمةٌ في السّماء الفضيّة تحرس الشّاطىء. كانت رياحٌ جديدةٌ سريعةٌ ومتراقصة تهبّ من وادي قوس المطر، وتعبق بعطر أشجار الشّوح والطّحالب المخضلة. كانت تحني أشجار التّنوب القديمة وتداعب خصلات شعر فيث المجعّدة الباهرة بينما كانت جالسةً على شاهدة قبر "هيزيكيا بولوك" واضعةً ذراعيها حول ماري فانس وأونا. كان كارل وجيري جالسين قبالتهنّ على شاهدة قبرٍ أخرى وكانوا جميعهم مشحونين بالعفرتة بعد أن ظلّوا محبوسين طيلة النّهار.

قالت فيث بحبور: "إنّ الهواء متألّقٌ هذه اللّيلة، صحيح؟ فقد غسلته

الأمطار وصار نظيفًا."

نظرت إليها ماري فانس بأسوان، رأت أنّ فيث كانت أكثر اغتباطًا ممّا ينبغي نظرًا لما كانت تعلمه أو ما يُخيّل إليها أنّها تعلمه. كانت ماري لديها ما تقوله وكانت تنوي أن تقوله قبل أن تعود إلى المنزل. كانت السيّدة إيليوت قد أرسلت معها بعض البيض الطّازج إلى الدّير وأخبرتها ألّا تتأخّر لأكثر من نصف ساعة وكانت تلك المدّة على وشك أن تنقضي لذا نهضت ماري وقالت بغتةً:

"لا تعبأي بالجوّ الآن. إستمعي إلى ما سوف أقوله. يجدر بكم يا صغار الدّير أن تحسنوا التصرّف أفضل ممّا كنتم تفعلون طيلة الرّبيع الفائت وهذا كلّ ما في الأمر. لقد قدمت إلى هنا هذه اللّيلة لغاية إخباركم بهذا وحسب. إنّ الطّريقة التي يتداول فيها النّاس الأحاديث عنكم مريعة."

صاحت فيث متعجّبة ساحبةً يدها بعيدًا عن ماري: "ما الذي فعلناه الآن؟" ارتجفت شفتا أونا وانكمشت روحها الصّغيرة مرهفة العواطف، لطالما كانت ماري قاسيةً بصراحتها. راح جيري يصفر متظاهرًا بالشّجاعة، كان يتعمّد أن يري ماري أنّه لا يعير بالًا لشتائمها، وأنّ لا شأن لها بطريقة تصرّفهم في جميع الأحوال. من منحها الحقّ لتوبيخهم على سلوكهم؟

ردّت ماري: "الآن؟ بل تعنين طيلة الوقت! بمجرّد أن تخمد نيران الأحاديث عن تصرّفٍ أرعن قمتم به، تقومون بأمرٍ آخر وتضرمون النّار من جديد. يبدو لي أنّكم لا تملكون أدنى فكرة عن كيفيّة تصرّف أطفال الدّير!"

قال جيري بسخريةٍ مهلكة: "ربّما في وسعك أن تخبرينا."

لم تأبه ماري لاستهزائه.

"في وسعي أن أخبركم ما الذي سوف يحصل إن لم تتعلّموا كيفيّة

التصرّف بلباقة. سوف يطلب أعضاء المجلس من والدكم أن يعتزل. هاك الآن يا سيّد أبو العُريف جيري. هذا ما قالته السيّدة "آلك دايفس" للسيّدة إيليوت، لقد سمعتها بنفسي. دائمًا ما أصرّ أذنيّ حين تحضر السيّدة "آلك دايفس" لاحتساء الشّاي. لقد قالت أنّ تصرّفاتكم تزداد سوءً وعلى الرّغم من أنّ ذلك كان متوقّعًا باعتبار أنّكم لم تملكوا من يتولّى تنشئتكم ولكن لا يمكن أن ننتظر من رعايا الكنيسة تكبّد عناء تحمّل ذلك لمدّةٍ أطول، وسوف ينبغي لهم أن يفعلوا شيئًا ما بهذا الشّأن. يستمرّ الميثوديّون بالسّخرية منكم والضّحك عليكم وحسب، وهذا يجرح مشاعر المشيخيّين. كما يقولون أنّكم جميعكم تحتاجون لجرعةٍ من الضّرب المؤنّب. إن كان لذلك أن يقوّم سلوك المرء حقًّا لأصبحت قدّيسة. أنا لا أخبركم بذلك لأنّني أرغب في إيذاء مشاعركم. أنا أشعر بالأسف عليكم."

كانت ماري أكثر من محترفة في فنّ التّعاطف اللّطيف. "أنا أتفهّم أنّكم لم تحظوا حقًّا على فرصة كما هي الأمور الآن. ولكنّ الآخرين لا يغضّون أبصارهم بقدر ما أفعل. قالت الآنسة "درو" أنّ كارل كان يملك ضفدعًا في جيبه في مدرسة الأحد الأسبوع الفائت، وقفز خارجًا بينما كانت تشرح الدّرس كما قالت أنّها سوف تعتزل الصّف. لم لا تبقي حشراتك في المنزل؟"

قال كارل: "لقد أعدته إلى جيبي ثانيةً. لم يتأذّى أيّ أحد... إنّه مجرّد ضفدعٍ صغيرٍ مسكين. ثمّ إنّني أتمنّى أن تعتزل العجوز "جين درو" صفّنا فأنا أبغضها. كان ابن أخيها يملك قابسًا قذرًا من التّبغ في جيبه وعرض علينا أن نمضغ منه حين كان الشّيخ "كلو" يصلّي. أظنّ أنّ ذلك أسوأ من امتلاك ضفدع."

"غير صحيح، ذلك أنّ وجود الضّفادع أمرٌ غير متوقّع كما أنّها تثير المزيد من الجلبة ثمّ أنّ أمره لم يُكتشف. وبعد ذلك، خلقت منافسة

الصّلاة التي أقمتموها الأسبوع الفائت فضيحةٌ مشينة والجميع يتحدّثون عنها."

"لماذا؟ كان أطفال أسرة بلايث منخرطون في هذا الأمر مثلنا تمامًا. إنّ "نان بلايث" هي من اقترحت الفكرة في المقام الأوّل ووالتر هو من فاز بالجائزة."

"حسنًا، ولكن كان لكم شأن فيها بكلّ الأحوال. ما كان الأمر بهذا السّوء لو لم تقيموها في المقبرة."

ردّ جيري: "أظنّ أنّ المقبرة مكانٌ ملائمٌ تمامًا للصّلاة."

قالت ماري: "لقد مرّ ديكون هازارد بعربته من جانبكم حين كنتم تصلّون وسمعكم ورآكم شابكين أياديكم فوق بطونكم وتتذمّرون بعد كلّ جملة. لقد حسب أنّكم تسخرون منه."

صرّح جيري وهو لا يعرف الخجل قائلًا: "هذا حقًّا ما كنت أفعله، غير أنّني لم أكن أعلم أنّه كان مارًّا بجانبنا طبعًا، كان ذلك مجرّد حادثٍ لئيم. أنا لم أكن أصلّي بجديّة... كنت أعلم أنّني لا أملك الفرصة في الظّفر بالجائزة لذا كنت أستمتع بالأمر ما استطعت. في وسع والتر بلايث أن يصلّي بطريقةٍ ممتازة حتّى أنّه يصلّي تمامًا كما يصلّي والدي."

قالت فيث متفكّرة: "إنّ أونا هي الوحيدة من بيننا التي تحبّ حقًّا أن تصلّي."

تنهّدت أونا: "حسنًا، إن كانت الصّلاة تجلب العار للآخرين إلى هذا الحدّ، يستحسن لنا أن نقلع عن الصّلاة."

"تبًّا! يمكنكم أن تصلّوا كما يحلو لكم ولكن ليس في المقبرة... ولا تحوّلوا الأمر إلى مهزلة. ذلك ما جعل الأمر يبدو مسيئًا للغاية، عدا عن حفلة الشّاي التي أقمتموها على شواهد القبور."

"لم نفعل ذلك."

"حسنًا، حفلة فقّاعاتٍ صابونيّةٍ إذًا! لقد أقمتم حفلةً ما وسكّان

الميناء يقسمون أنّكم أقمتم حفلة شاي ولكنّني عازمةٌ على تصديقكم. وقد اتّخذتم من شاهد هذا القبر طاولة."

وضّح جيري قائلًا: "حسنًا، لم تسمح لنا الخالة مارثا بنفخ الفقّاعات في المنزل. كانت نزقةً حقًّا ذاك اليوم كما أنّ هذه البلاطة القديمة وفت بالغرض وبدت كطاولةٍ ظريفة."

تلألأ بريق الاستذكار في عينيّ فيث وصاحت قائلة: "ألم تكن جميلة؟ كانت تعكس الأشجار والهضاب والميناء وكأنّها عوالم الجنيّات وحين نحرّرها كانت تطفو بعيدًا نحو وادي قوس المطر."

قال كارل: "جميعها باستثناء واحدة طارت ثمّ انفجرت فوق برج الميثوديّين."

قالت فيث: "يسرّني أنّنا فعلنا ذلك مرّةً واحدة قبل أن نكتشف أنّ ذلك خطأ."

قالت ماري وقد نفد صبرها: "ما كان الأمر ليكون خاطئًا لو قمتم بنفخ الفقّاعات في البستان. يبدو أنّني لا أستطيع أن أجعلكم تفهمون. لطالما نهاكم الجميع بما يكفي عن اللّهو في المقبرة فالميثوديّون حسّاسون بهذا الشّأن."

قالت فيث بحزنٍ شديد: "نحن ننسى ذلك ثمّ إنّ البستان صغيرٌ جدًّا ومليءٌ باليرقانات والشّجيرات وغيرها، ولا يمكننا أن نتواجد في وادي قوس المطر طيلة الوقت... فأين لنا أن نذهب؟"

"يعتمد الأمر على ما تقومون به في المقبرة. لا ضير في الأمر إن جلستم فيها وتحدّثتم بهدوءٍ تمامًا كما نفعل الآن. حسنًا، أنا أجهل ما ستؤول إليه الأمور ولكنّني أعلم أنّ الشّيخ "كلو" سوف يقوم بالتّحدّث إلى والدكم في هذا الشّأن لأن ديكون هازارد أحد أقاربه."

قالت أونا: "أتمنّى ألّا يزعجوا والدنا بسببنا."

"حسنًا، يعتقد النّاس أنّه يجدر به أن يهتمّ بكم أكثر أمّا أنا فلا. أنا

أفهمه. فهو طفلٌ أيضًا بطريقةٍ أو بأخرى... هذا ما هو عليه وهو في حاجةٍ لشخصٍ يهتمّ به بقدركم تمامًا. حسنًا ربّما يجد ذلك الشّخص قريبًا إن كانت كلّ القصص التي سمعتها حقيقيّة."

سألت فيث: "ماذا تقصدين؟"

سألت ماري: "ألا تملكين أدنى فكرة حقًّا؟"

"لا، لا. ماذا تقصدين؟"

"أرى أنّكم مجموعةٌ من الأبرياء، أقسم لكم. الجميع يتحدّثون في هذا الأمر، إنّ والدكم يذهب لمقابلة "روزماري ويست"، لا شكّ في أنّها سوف تصبح زوجة أبيكم."

صاحت أونا محمرّة الوجه: "لا أصدّق ذلك!"

"لا أدري فأنا أتقيّد بما يقوله النّاس وحسب، ولا أعتبره حقيقة ولكن قد يصبّ ذلك في مصلحتكم. قد تجعلكم روزماري تؤدّون واجباتكم إن جاءت إلى هنا، أراهن على ذلك، فهي طيّبةٌ وبشوشة الوجه. لا أنكر أنّ جميع النّساء يتظاهرن بذلك إلى أن يوقعن الرّجال في شباكهنّ، ولكنّكم في حاجةٍ ماسّةٍ إلى من يتولّى تربيتكم، فأنتم تلحقون العار بوالدكم وأنا أشفق على حاله. لطالما فكّرت في أمره منذ تلك اللّيلة التي تحدّث فيها إليّ بفائق اللّطف، أنا لم أتفوّه بشتيمةٍ واحدة أو أكذب منذ ذلك اليوم. وأودّ أن أراه منبسط الأسارير ومرتاح البال، أن تتوفّر له الملابس كاملة الأزرار ووجبات الطّعام السّائغة، أن أراكم أنتم أيّها الصّغار تتلقّون التّربية الصّحيحة وأن تعرف تلك العجوز مارثا حدودها. كان عليكم أن تروا كيف نظرت إلى البيض الذي جلبته لها هذا المساء، لقد قالت: "آمل أن يكون طازجًا" تمنّيت في تلك اللّحظة أن تكون فاسدة. ولكن تأكّدوا من أن تعطي كلّ واحدٍ منكم إحداها عند الفطور دون استثناء والدكم. أثيروا الجلبة إن لم تفعل. فقد كلّفت بإحضارها إليكم لهذه الغاية ولكنّني لا أثق بالخالة مارثا فقد

تطعمها لقطّها."

خيّم صمتٌ مطبقٌ على المقبرة بعد أن أُنهك لسان ماري مؤقّتًا. لم يكن الأطفال يشعرون برغبةٍ في التكلّم، كانوا في خضمّ استيعاب الأفكار الجديدة، لاذعة المذاق التي اقترحتها ماري عليهم. كان جيري وكارل مهفوتين بعض الشّيء ولكنّ كلام ماري لم يكن مهمًّا في آخر المطاف، فعلى الأرجح أنّه لا يحمل كلمةً صحيحة. كانت فيث تبدو راضية أمّا أونا فكانت الوحيدة المتضايقة بحقّ، كانت تشعر برغبةٍ في الفرار والبكاء.

بدأت أصوات الجوقة، والتي كانت قد شرعت في التّدريب، تتصاعد من كنيسة الميثوديّين: "أسيكون هناك أيّة نجومٍ على تاجي؟"

قالت ماري: "أنا أريد ثلاثةً فحسب، ثلاثةً فحسب فوق رأسي كأنّها كإكليل. واحدةٌ كبيرة في المنتصف واثنتين صغيرتين في كلا الجانبين." كانت معرفة ماري اللّاهوتيّة قد توسّعت كثيرًا منذ إقامتها مع السيّدة إيليوت.

سأل كارل: "أهناك أحجامٌ مختلفةٌ من الأرواح؟"

"بالطّبع! فلا بدّ من أنّ أرواح الأطفال الرّضع أصغر من أرواح الرّجال البالغين. على أيّة حال، بدأت الشّمس تغرب ويجدر بي أن أعود إلى المنزل. لا تحبّذ السيّدة إيليوت بقائي خارجًا في الظّلام. حين كنت أعيش مع السيّدة وايلي لم يكن الظّلام يشكّل فرقًا عندي، حتّى أنّ القطط كانت تكترث لذلك أكثر منّي. تبدو تلك الأيّام وكأنّها عمّرت مئة سنة. في جميع الأحوال، فكّروا فيما قلته وحاولوا أن تتأدّبوا لأجل مصلحة والدكم. سوف أساندكم وأدافع عنكم دائمًا، يمكنكم أن تناموا مطمئنّين لذلك. تقول السيّدة إيليوت أنّها لم تعتقد أنّ أمثالي قد يقفون إلى جانب أصدقائهم. لقد كنت وقحةً حقًّا مع السيّدة "آلك دايفس" وأنا أدافع عنكم حتّى أنّ السيّدة إيليوت وبّختني على ذلك لاحقًا.

للأمانة، إنّ كورنيليا حادّة اللّسان بلا شكّ ولكنّها كانت مسرورةً في أعماقها ذلك أنّها تبغض السيّدة "دايفس" العجوز وتحبّكم حقًّا يا رفاق. يمكنني رؤية ما يخفيه البشر تحت أقنعتهم."

غادرت ماري راضيةً عن نفسها تمام الرّضا وتاركةً خلفها مجموعةً من الأطفال محطّمي الآمال.

قالت أونا بامتعاض: "دائمًا ما تقول ماري فانس أمورًا تشعرنا بالذّنب متى ما أتت."

قال جيري: "أتمنّى لو تركناها تتضوّر من الجوع في تلك الزّريبة القديمة."

نهرته أونا قائلة: "آه هذا شرّيرٌ يا جيري."

ردّ جيري بغير ندم: "يفضّل لنا أن نمتثل لما يقوله النّاس، إن كانوا يقولون أنّنا نتصرّف بطريقةٍ غير لائقة فلنفعل."

اعترضت فيث قائلة: "لا فذلك قد يسبّب الأذى لوالدنا."

تلوّى جيري متضايقًا. كان يهوى والده. كان في وسع الأطفال رؤية السيّد ميريديث من خلال نافذة مكتبه، لم يبد أنّه كان يكتب أو يقرأ. كان مسندًا رأسه على يديه وكان يبدو واهنًا ومغتمًّا، وأحسّ الأطفال بذلك فجأة.

قالت فيث: "أظنّ أنّ أحدًا ما قد ضايقه اليوم بسببنا. أتمنّى لو كان في وسعنا أن نتخلّص من كلام النّاس. آه جيم بلايث لقد أفزعتني!"

كان جيم بلايث قد تسلّل إلى المقبرة وجلس إلى جانب الفتاتين. كان يجول وادي قوس المطر ونجح في العثور على أوّل عنقودٍ صغيرٍ من القطلب لوالدته. توقّف أطفال الدّير عن الكلام بعد مجيئه. كان جيم قد بدأ في الابتعاد عنهم بعض الشّيء خلال هذا الرّبيع، ذلك أنّه كان يدرس لأجل اختبار الدّخول لأكاديميّة "كوين" وكان يبقى بعد الدّوام المدرسيّ مع الطّلاب الأكبر لحضور الدّروس الإضافيّة. كما أنّ

أمسياته كانت مليئةً بالعمل، فلم يملك متّسعًا من الوقت للانضمام للآخرين في وادي قوس المطر الآن. كان يبدو وكأنّه ينجرف بعيدًا عنهم نحو أرض الرّاشدين."

سأل جيم: "ما خطبكم جميعًا هذه اللّيلة؟ أنتم لا تبدون سعداء."

وافقته فيث وأجابت بأسى: "أنت محقّ. ما كنت لتشعر بالسّعادة أيضًا لو كنت تعلم أنّك تجلب المتاعب لوالدك وتتسبّب في حديث النّاس عنك."

"من الذي يتحدّث عنكم الآن؟"

أفضت فيث همومها لـجيم الذي كان متعاطفًا: "جميع النّاس... هذا ما قالته ماري فانس."

ثمّ ختمت قائلة: "كما ترى، نحن لا نملك من يتولّى أمر تربيتنا ولذا نقع في الورطات ويعتقد الآخرون أنّنا نسيء التّصرف."

قال جيم مقترحًا: "لم لا تقومون بتربية أنفسكم بأنفسكم؟ سأخبركم بما عليكم فعله. فلتنشئوا ناديًا للسّلوك الحسن وقوموا بمعاقبة نفسكم متى ما اقترفتم خطأً."

قالت فيث مصعوقة: "هذه فكرةٌ سديدة!" ثمّ أردفت قائلة بارتياب: "ولكنّ الأمور التي لا تبدو مؤذيةً على الإطلاق في نظرنا، تبدو مروّعةً بالنّسبة للآخرين. كيف لنا أن نعلم؟ لا يمكننا أن نزعج والدنا طيلة الوقت... كما أنّه يضطرّ إلى التغيّب في أحيانٍ كثيرة في جميع الأحوال."

قال جيم: "يمكنكم أن تعرفوا ذلك إن توّقفتم لبرهةٍ قبل الإقدام على أيّ تصرّفٍ وسألتم أنفسكم ما الذي سيكون موقف الرعيّة منه. مشكلتكم هي أنّكم لا تتروّون قبل أن تقدموا على أيّ فعل بتاتًا بل تتسرّعون في جميع أموركم. تقول والدتي أنّكم جميعًا متهوّرون تمامًا كما كانت. قد يستطيع نادي السّلوك الحسن أن يساعدكم على التّفكير

إن كنتم صريحين وعادلين في معاقبة أنفسكم حين تنتهكون القواعد. سوف يتعيّن عليكم أن تعاقبوا أنفسكم بطرق مؤلمة حقًّا وإلّا فلن ينتج عن ذلك أيّ منفعة."

"علينا أن نضرب بعضنا البعض؟"

"ليس تمامًا. سيكون عليكم أن تفكّروا بأساليب عقابٍ متنوّعة تلائم كلّ واحدٍ منكم. لن تقوموا بمعاقبة بعضكم البعض بل سوف تعاقبون أنفسكم. لقد قرأت عن نادٍ كهذا في كتابٍ قصصيّ. فلتجرّبوا ذلك وتروا إن كان سينفع."

قالت فيث: "لنفعل!" وبعد مغادرة جيم قالت بعزم: "إن كانت الأمور تسير في منحى خاطئ سيكون علينا أن نقوّمها."

قال جيري: "علينا أن نكون عادلين ومنصفين كما قال جيم، إنّه نادٍ لتقويم سلوكنا بما أنّه لا يوجد من يتولّى هذه المهمّة غيرنا. لا داعي للكثير من القواعد فلنضع قاعدةً واحدةً وحسب وأيّ شخصٍ منّا يقوم بانتهاكها سوف يُعاقب بشدّة."

"ولكن كيف؟"

قال جيري مستمتعًا: "سوف نفكّر في هذا الأمر مع الوقت. سوف نعقد اجتماعًا للنّادي هنا في المقبرة كلّ ليلة لنتناقش في كلّ ما فعلناه طيلة النّهار وإن ظننّا أنّنا قمنا بأيّ تصرّفٍ سيّء أو أيّ فعلٍ قد يسبّب الإهانة لوالدنا، فسوف يُعاقب الفاعل أو المسؤول عن هكذا تصرّف. تلك هي القاعدة. سوف نقرّر جميعنا نوع العقاب الذي يجب أن يكون ملائمًا للجريمة كما يقول السيّد "فلاج". وسوف يتوجّب على المذنب أن يتحمّل العقاب دون تملّص. سوف يكون ذلك ممتعًا."

قالت فيث: "أنت من اقترح حفلة فقّاعات الصّابون."

قال جيري سريعًا: "ولكنّ ذلك حدث قبل أن نشكّل النّادي. سوف نبدأ بتطبيق كلّ ما ذكرته ابتداءً من هذه اللّيلة."

"ولكن ما العمل إن لم نتمكّن من الاتّفاق على ما هو الصّواب أو ما العقاب الذي يجب أن نتلّقاه؟ فلتفترض أنّ اثنين منّا فكّروا بشيءٍ ما وفكّر الآخرَين بأمرٍ مختلف. يجب أن يتألّف نادٍ كهذا من خمسة أعضاء."

"يمكننا أن نطلب من "جيم بلايث" أن يكون الحكم فهو أكثر الصّبية إنصافًا في قرية "جلين سانت ماري" ولكنّني أعتقد أنّنا في وسعنا تدبّر أمورنا بأنفسنا في معظم الوقت. يجب أن نبقي هذا الأمر سرًّا قدر المستطاع. لا تتفوّهوا بكلمةٍ واحدة لـماري فانس لأنّها قد ترغب بالانضمام وتولّي مهمّة التّربية."

قالت فيث: "أرى أنّه من الأفضل لنا ألّا نفسد جميع الأيّام بتنفيذ العقوبات. فلنختر يومًا ليكون يوم العقوبات."

قالت أونا مقترحة: "من الأفضل أن نختار يوم السّبت ذلك أنّه يوم عطلة."

صاحت فيث: "هل سنفسد يوم العطلة الوحيد في الأسبوع؟ لا! لا، فلنختر يوم الجمعة. فهو يوم تناول السّمك على أيّة حال ونحن نكره السّمك. من الأفضل أن نحصل على كلّ الأشياء المزعجة في اليوم نفسه وهكذا سنتمكّن من أن نحظى بوقتٍ ممتعٍ في باقي الأيّام."

قال جيري بنبرةٍ متسلّطة: "هراء! لن يعمل مثل هذا النّظام إطلاقًا. سوف نعاقب أنفسنا متى ما فعلنا شيئًا عفو الخاطر ونبقي سجّلاتنا نظيفة. والآن، أصبح كلّ شيءٍ مفهومًا، صحيح؟ هذا نادٍ للسّلوك الحسن، يهدف إلى تربية أنفسنا. اتّفقنا فيه على معاقبة أنفسنا كلّما نسيء التّصرّف والتوقّف قبل الإقدام على أيّ فعل مهما كان، وسؤال أنفسنا إن كان قد يؤذي والدنا بأيّ شكلٍ من الأشكال، وسوف يتوجّب على أيّ فردٍ يحاول التّهرّب أن يُطرد من النّادي ولن يُسمح له باللّعب معنا في وادي قوس المطر ثانيةً وأن يكون "جيم بلايث" حكمًا للفصل

في النّزاعات. يُمنع إحضار الحشرات إلى الكنيسة يا كارل ويُمنع مضغ العلكة في العلن، إن كنت لا تمانعين يا آنسة فيث."

ردّت فيث: "ويُمنع السّخرية من صلاة الشّيوخ أو الذّهاب إلى كنيسة الميثوديّين."

احتجّ جيري قائلًا بدهشة: "لم؟ لا ضير في حضور اجتماع صلاة الميثوديّين."

"ولكنّ السيّدة إيليوت لا توافقك في ذلك فهي تقول أنّه لا ينبغي لأطفال الدّير أن يحضروا سوى مناسباتِ المشيخيّين."

صاح جيري: "اللّعنة! لن أقلع عن الذّهاب إلى كنيسة الميثوديّين. فهي أكثر متعةً من كنيستنا بأشواط."

صاحت فيث: "لقد تفوّهت بكلمةٍ بذيئة والآن عليك أن تعاقب نفسك."

"ليس قبل أن نقرّ جميع القوانين، فنحن الآن نتناقش بشأن النّادي وحسب.

لن يتشكّل النّادي رسميًّا إلى أن نبرم اتّفاقيّة ونوقّع عليها. يجب أن نقرّ دستورًا ونسنّ القوانين. وأنت تعلمين أنّه لا بأس في حضور اجتماع الصلاة."

"ولكن لا يجدر بنا أن نعاقب أنفسنا على سوء التّصرّف وحسب بل على كلّ ما يلحق الأذى بوالدنا."

"لن يتسبّب ذلك في أذيّة أيّ أحد. أنت تعلمين أنّ السيّدة إيليوت مهووسةٌ بالمواضيع المتعلّقة بالميثوديّين. لا أحد غيرها يثير الجلبة بشأن ذهابي إلى هناك فأنا أحسن التّصرّف دائمًا. فلتسألي جيم أو السيّدة بلايث عن رأيهما في ذلك وسوف أذعن لرأيهما. سوف أذهب الآن لإحضار ورقة وفانوس وسوف نوقّع جميعًا."

وُقّع العقد بعد ربع ساعة فوق شاهد قبر "هيزيكيا بولوك" حيث

استقام وسطها فانوس الدّير الأغبر في حين كان الأطفال جاثين حوله. كانت زوجة الشّيخ "كلو" مارّةً من جوارهم في تلك اللّحظة، وفي اليوم التّالي سمع جميع أهالي جلين بأنّ أطفال الدّير قد أقاموا منافسة صلاةٍ مرّةً ثانية وأنّ الأمر انتهى بهم بمطاردة بعضهم البعض فوق القبور حاملين فانوسًا. وعلى الأرجح أنّ سبب هذا الخبر يعود إلى حقيقة أنّ كارل كان قد أخذ الفانوس بعد أن انتهت مراسيم التّوقيع والختم وسار بحذرٍ نحو الحفرة الصّغيرة وراح يتفحّص مأرضة النّمل خاصّته في حين انصرف الآخرون إلى الدّاخل بهدوء وخلدوا إلى النّوم.

سألت أونا فيث بارتعادٍ بعد أن تلوتا صلواتهما: "أتظنّنين حقًّا أنّ والدنا سوف يتزوّج الآنسة ويست؟"

قالت فيث: "لا أدري ولكنّني آمل ذلك."

قالت أونا مختنقةً بكلماتها: "آه أنا لا آمل ذلك. صحيحٌ أنّها لطيفةٌ كما هي الآن، ولكنّ ماري فانس قالت أنّ النّساء يتغيّرن تمامًا حين يصبحن زوجات أب، فيغدون نزقاتٍ بشكلٍ فظيع وحقوداتٍ أيضًا ويحرّضن الأب ضدّ أبنائه. لقد قالت أنّ ذلك محتم وأنّه لم تحصل أيّ استثناءات في أيّ حالة."

صاحت فيث: "لا أصدّق أنّ الآنسة ويست قد تفعل ذلك في حياتها."

"قالت ماري أنّ أيّ أحدٍ قد يفعل ذلك. فهي تعلم كلّ شيءٍ عن زوجات الأب يا فيث، وقد سبق أن رأت المئات منهنّ أمّا أنت فلم تري أيّ واحدة منهنّ في حياتك. لقد أخبرتني ماري بأمورٍ عنهنّ تتجمّد لها الدّماء. قالت أنّها كانت تعرف زوجة أبٍ تضرب فتيات زوجها الصّغيرات على أكتافهنّ العارية إلى أن ينزفن ثمّ تقوم بحبسهنّ في قبو الفحم المظلم والبارد طيلة اللّيل. قالت أنّ جميعهنّ متعطّشاتٌ للقيام بمثل هذه الأمور."

"لا أظنّ أنّ الآنسة ويست قد تفعل ذلك. أنت لا تعرفيها كما أعرفها يا أونا. فكّري وحسب في ذلك العصفور الحلو الظّريف الذي أرسلته لي! أنا أحبّه أكثر ممّا أحببت آدم بكثير!"

"كلّ ما في الأمر هو أنّهنّ يتغيّرن حين يصبحن زوجات أب. قالت ماري أنّ ذلك ليس بيدهنّ. أنا لا أمانع أن أُضرب بقدر ما أخشى أن يكرهنا والدنا."

"أنت تعلمين أنّه ليس هناك ما قد يجعل والدنا يكرهنا. لا تكوني سخيفةً يا أونا. أظنّ أنّه لا داعي للقلق. وعلى الأرجح أنّ والدنا لن يفكّر في الزّواج من أيّ امرأةٍ إن سارت أمور النّادي كما ينبغي. أمّا إن فعل، فأنا متأكّدةٌ من أنّ الآنسة ويست ستكون عطوفةً علينا."

غير أنّ أونا لم تكن تملك مثل هذه القناعة فراحت تبكي إلى أن غفت عيناها.

***

24
دافعٌ خيري



سارت الأمور بسلاسةٍ في نادي السّلوك الحسن لمدّة أسبوعين. لم يُستدعى "جيم بلايث" كحكمٍ أبدًا. ولم يضرم أطفال الدّير نيران ثرثرة أهالي جلين. أمّا بالنّسبة لهفواتهم الطّفيفة في المنزل، فكانوا يبقون سجّلاتٍ عن تصرّفاتهم ويخضعون للعقوبات المفروضة ذاتيًّا بشجاعة... والتي كانت بشكلٍ عامّ عبارة عن الامتناع إراديًّا عن الاستمتاع ببعض الوقت في وادي قوس المطر ليلة الجمعة أو ملازمة الفراش في إحدى اللّيالي الرّبيعيّة التي تتوق فيها كلّ جوارح الشّباب لقضاء الوقت خارجًا.

حكمت فيث على نفسها بالانقطاع عن التّفوّه بأيّة كلمة ليومٍ كامل إلّا إن كانت الضّرورة تستدعي ذلك لأنّها قامت بالهمس في مدرسة الأحد ونجحت في إتمام عقابها. كان من سوء الحظّ مجيء السيّد "بيكر" من الميناء لزيارة الدّير تلك اللّيلة واستقبال فيث له عند الباب بالصّدفة. لم تنبس ببنت شفة لتردّ تحيّته الحارّة بل انصرفت بهدوءٍ لتعلم والدها على الفور. أحسّ السيّد "بيكر" بالإهانة بعض الشّيء وقام بإخبار زوجته عند عودته إلى المنزل بأن الابنة البكر للسيّد

ميريديث تبدو فتاةً خجولةً للغاية ونكدة وأنّها لا تتمتّع ما يكفي من الأخلاق للردّ على من يخاطبها. باستثناء ذلك، لم ينجم عن النّادي ما هو أسوأ ولم يسبّب تكفيرهم عن أخطائهم الأذى لأنفسهم أو للآخرين. بدأوا جميعًا يثقون بأنّ تربية أنفسهم لم تكن مهمّةً صعبةً في نهاية الأمر.

قالت فيث بابتهاج: "أعتقد أنّ النّاس سيرون قريبًا أنّنا قادرون على التّصرّف بلباقةٍ تمامًا كأيّ أحدٍ آخر. الأمر ليس صعبًا حين يعقد المرء العزم عليه."

كانت هي وأونا جالستين على شاهدة قبر "بولوك". كان يومًا باردًا وممطرًا هاجت فيه العواصف الرّبيعيّة لذا كان وادي قوس المطر ممنوعًا على الفتيات، غير أنّ صبية إنجلسايد والدّير كانوا يصطادون الأسماك فيه. كان المطر قد توقّف عن الهطول ولكنّ الرّياح الشرقيّة كانت تلفح بلا رحمةٍ من اتّجاه الشّاطئ. لقد تأخّر الرّبيع، كما أنّ الثّلج قد ترك مخلّفاته وبعض الجليد في الزّاوية الشّماليّة من المقبرة. انزلقت "ليدا مارش"، والتي كانت قد أتت لإيصال صحنٍ من سمك الرّنكة إلى الدّير، أمام البوّابة وهي ترتعش. كانت تنتمي لقرية الصّيد من مدخل الميناء وكان والدها قد جعل إرسال صحنٍ من أولى السّمكات التي يصطادها في الرّبيع إلى الدّير عُرفًا منذ ثلاثين سنة. هو لم يطأ عتبة الكنيسة في حياته، كان رجلًا سكّيرًا ومستهترًا، ولكن طالما كان يرسل تلك الأسماك كلّ ربيعٍ كما اعتاد والده أن يفعل، كان متأكّدًا من أنّه قد صفّى حسابه مع القوى السّماوية العظمى. لم يكن ليترقّب صيدًا وفيرًا من سمك الماكاريل لو لم يرسل جنى الصّيد الأوّل لهذا الموسم.

كانت "ليدا" فتاةً في العاشرة من عمرها وكانت تبدو أصغر سنًّا لأنّها كانت مخلوقةً صغيرةً وهزيلةً وذاويةً للغاية. وبينما انسلّت بخفيةٍ إلى فتاتيّ الدّير هذه اللّيلة، كانت تبدو وكأنّها لم تذق طعم الدّفء طيلة حياتها. كانت مزرقّة الوجه والجسد وكانت عيناها الصّغيرتين محمرّتين

ودامعتين. كانت تلبس ثوبًا أجرد ولفاعًا صوفيًّا باليًا رُبط حول كتفيها النّحيلين وتحت ذراعيها. كانت قد سارت ثلاثة أميالٍ من مدخل الميناء حافية القدمين على الطّريق حيث الطّين والوحل الثّلوج الذّائبة. كان قدماها وساقاها مزرّقتين بقدر ازرقاق وجهها ولكنّ "ليدا" لم تكن تكترث كثيرًا لهذا الأمر، إذ كانت معتادةً على الشّعور بالبرد وكانت تمشي حافيةً القدمين منذ شهرٍ بالفعل كجميع صغار قرية الصّيد. لم يبد أنّها كانت تشفق على نفسها في أعماقها إذ جلست على شاهدة القبر وارتسمت على وجهها ابتسامةٌ عريضة لـفيث وأونا اللّتين ابتسمتا بابتهاجٍ بدورهما. كانتا تعرفان "ليدا" بعض الشّيء ذلك أنّهما التقيتا بها مرّةً أو اثنتين حين نزلتا إلى الميناء مع أطفال بلايث في الصّيف الماضي.

قالت ليدا: "مرحبًا! الطّقس باردٌ جدًّا، لا يجدر حتّى بالكلاب أن تكون في الخارج."

سألتها فيث: "لم أنت في الخارج إذًا؟"

ردّت ليدا: "لقد أرسلني أبي لأجلب إليكم بعض أسماك الرّنكة."

ارتجفت ليدا وسعلت ثمّ رفعت قدميها الحافيتين. لم تكن ليدا تفكّر بنفسها أو بقدميها ولم تكن تحاول أن تثير التحنّن بل رفعت قدميها غريزيًّا لتبعدهما عن العشب المبتلّ حول شاهدة القبر غير أنّ فيث وأونا قد اجتاحهما شعورٌ هائلٌ من الشّفقة. فقد كانت تبدو بردانةً جدًّا، بائسةً جدًّا.

صاحت فيث: "آه لم أنت حافية القدمين في ليلةٍ باردةٍ كهذه؟ لا بدّ من أنّ قدميك متجمّدتان."

قالت ليدا بفخر: "بالكاد، كان السير على درب الميناء محنةً عسيرة."

سألت أونا: "لم لم تلبسي جواربك وحذائك؟"

قالت ليدا غير مبالية: "ليس لديّ أيٌّ منها لألبسها. فقد اهترأ كلّ ما كنت أملكه مع انتهاء الشّتاء."

حدّقت فيث مبهوتةً فيها للحظةٍ. كان ذلك مريعًا، أمامها كانت فتاةٌ صغيرة، من جيرانهم، نصف متجمّدة لأنّها لم تكن تملك أحذيةً أو جوارب في هذا الجوّ الرّبيعيّ القاسي. لم تفكّر فيث المتهوّرة بأيّ شيءٍ باستثناء هول هذه الحقيقة. وفي اللّحظة التّالية، راحت تخلع حذاءها وجواربها.

وقالت بينما أقحمتهما في يديّ "ليدا" التي كانت مشدوهة: "هاك، خذي هذه والبسيها على الفور. أسرعي قبل أن تصابي بنزلة بردٍ مميتة. أنا أملك غيرها. البسيها على الفور."

إستعادت "ليدا" هدوءها واختطفت الهديّة التي قُدّمت إليها وقد تلألأ البريق في عينيها الكدرتين. بالطّبع كانت ستلبسها بسرعة البرق قبل أن يتسنّى لأيّ أحدٍ ذي نفوذٍ أن يسترجعها منها. رفعت الفتاة الجوارب فوق ساقيها العجفاوتين ودسّت كاحليها الغليظين في حذاء فيث.

وقالت: "أنا مدينةٌ لك ولكن ألن يغتاظ ذووك؟"

قالت فيث: "كلّا وأنا لا أكترث إن غضبوا. أتعتقدين أنّني سوف أتحمّل رؤية أيّ شخصٍ يتجمّد حدّ الموت دون أن أقدّم له يد العون إن كنت قادرةً على ذلك؟ لن يكون ذلك حقّانيًّا لا سيّما أنّ والدي كاهن."

قالت ليدا مراوغةً: "هل سترغبين في استعادتها؟ إنّ البرد قارص في مدخل الميناء حتّى عندما يصبح الجوّ أكثر دفئًا هنا."

"لا، بإمكانك الاحتفاظ بها طبعًا. هذا ما قصدته حين أعطيتها لك فأنا أملك زوجًا آخر من الأحذية والكثير من الجوارب."

كانت ليدا تودّ البقاء والتّحدّث مع الفتيات لبعض الوقت عن الكثير من الأمور، ولكنّها رأت أنّه من الأفضل لها أن تهرب قبل أن يأتي

شخصٌ ما ويجبرها على المغادرة لذا استدارت عند الغسق بنفس الطّريقة الهادئة التي تسلّلت فيها وبمجرّد أن غابت عن مرأى الدّير، جلست وخلعت الحذاء والجوارب ووضعتها في سلّتها. لم تكن تملك أيّ نيّةٍ في ارتدائها عند طريق الميناء القذر ذاك، بل كانت ستحتفظ بها للمناسبات. لم تملك أيّة فتاةٍ في مدخل الميناء جوارب صوفيّة ناعمة أو أحذية أنيقة شبه جديدة كهذه. كانت ليدا مستعّدةً للصّيف ولم تشعر بوخز الضّمير، كان أطفال الدّير في نظرها فاحشي الثّراء، ولا بدّ من أنّ تلك الفتاتان تملكان أعدادًا وافرة من الأحذية والجوارب. بعدها، نزلت ليدا إلى قرية جلين ولعبت مع الصّبية لمدّة ساعةٍ قبالة متجر السيّد "فلاج" وراحت تطرطش في بركةٍ من الوحل مع أكثرهم جنونًا إلى أن أقبلت السيّدة إيليوت وطردتها إلى منزلها.

قالت أونا: "أنا لا أظنّ أنّه كان يجدر بك أن تفعلي ذلك يا فيث، إذ سيتوجّب عليك الآن أن تلبسي حذاءك اللّائق يوميًّا وسوف يتلف قريبًا."

صاحت فيث والتي ما زالت تتألّق بوهج إحسانها لإنسانٍ مثلها: "لا يهمّني ذلك. ليس من العادل أن أملك زوجين من الأحذية في حين لا تملك المسكينة ليدا مارش أيّ حذاء أمّا الآن فكلانا نملك زوجًا. أنت تعلمين تمام العلم يا أونا أنّ والدنا قال، في خطابه الأخير يوم الأحد الفائت، إنّ السّعادة الحقيقيّة لا تكمن في امتلاك الأشياء أو الحصول عليها بل في العطاء، وتلك هي الحقيقة فأنا أشعر بسعادةٍ لم يسبق لي أن شعرت بمثيلٍ لها طيلة حياتي. فلتفكّري وحسب بليدا وهي في طريقها للعودة إلى المنزل بحذاءٍ مريحٍ ودافئ."

"أنت تعلمين أنّك لا تملكين زوجًا آخر من الجوارب الصّوفيّة السّوداء. فالزّوج الآخر كان مليئًا بالثّقوب حتّى أنّ الخالة مارثا قالت أنّها لن تتمكّن من رتقها مجدّدًا فصنعت منها خرقاتٍ لمسح غبار

الموقد. أنت لا تملكين سوى زوجين من الجوارب المقلّمة وأنت تكرهينها."

انجلى الوهج والسّرور عن فيث. انهارت سعادتها كمنطادٍ مثقوب. جلست بهدوءٍ لبضعة دقائق مغمّةٍ تواجه عاقبة فعلها الأهوج.

ثمّ قالت مكتئبة: "آه أونا! أنا لم أفكّر بذلك أبدًا. أنا لم أتوقّف للتّفكير مطلقًا."

كانت الجوارب المقلّمة عبارة عن جوارب حمراء وزرقاء سميكةً وخشنةً ومحزّزة، كانت الخالة مارثا قد حاكتها لأجل فيث في الشّتاء وكانت شنيعةً من دون أدنى شكّ كانت فيث تشمئزّ منها كلّ الاشمئزاز ومن سابع المستحيلات أن تلبسها، كانت ما تزال جديدةً في درجها.

قالت أونا: "سوف تضطرّين إلى ارتداء الجوارب المقلّمة من الآن فصاعدًا. فلتفكّري وحسب كيف سيسخر منك الفتيان في المدرسة، فأنت تعلمين كيف يضحكون على "مايمي وارين" بسبب جواربها المقلّمة وينادونها حلاق القطب وجواربك أفظع من جواربها."

قالت فيث: "أنا لن ألبسها بل سأذهب حافية القدمين رغم البرد."

"لا يمكنك أن تذهبي حافية القدمين إلى الكنيسة غدًا. فكّري بما سيقوله النّاس."

"سأبقى في المنزل إذًا."

"لا يمكنك. أنت تعلمين أنّ الخالة مارثا ستجبرك على الذّهاب."

كانت فيث تعلم ذلك تمامًا. لم تكن الخالة مارثا تتكبّد عناء الإصرار على أيّ أمرٍ باستثناء ذهابهم إلى الكنيسة كيفما كان الطّقس. لم تكن تكترث لما يلبسونه أو إن كانوا يرتدون أيّة ملابس حتّى ولكنّ ذهابهم كان فرضًا. هكذا تربّت الخالة مارثا منذ سبعين عامًا وهكذا سوف تربّيهم.

قالت المسكينة فيث بنبرةٍ مثيرةٍ للشّفقة: "ألا تملكين زوجًا آخر

يسعك أن تعيريني إيّاه؟"

هزّت أونا رأسها وقالت: "كلّا، أنا لا أملك سوى زوج الجوارب الأسود ذاك، كما أنّني بالكاد أتمكّن من ارتدائه لأنّه ضيّق للغاية، إنّها لن تناسب مقاس قدمك. ثمّ إنّه مليئ بالثّقوب."

قالت فيث معاندة: "لن ألبس تلك الجوارب المقلّمة. إنّ ملمسها أفظع من مظهرها فهي تشعرني بأنّ ساقيّ ضخمتين كالبراميل وتصيبني بالحكّة."

"حسنًا، أنا لا أعلم كيف ستتدبّرين أمرك."

"لو كان والدنا في المنزل لطلبت منه أن يشتري لي زوجًا جديدًا قبل أن تقفل المتاجر ولكنّه سوف يتأخّر في العودة. سوف أطلب منه ذلك يوم الاثنين ولن أحضر إلى الكنيسة في الغد. سوف أتظاهر بأنّني مريضة وسوف تضطرّ الخالة مارثا لأن تسمح لي بملازمة المنزل."

صاحت أونا قائلة: "هذا سيكون تمثيل كذبةٍ يا فيث. لا يمكنك أن تفعلي ذلك. أنت تعلمين أنّ ذلك سيكون مريعًا. ما الذي سيقوله والدنا إن علم بالأمر؟ ألا تتذكّرين كيف تحدّث إلينا بعد وفاة والدتنا وأخبرنا أنّه علينا أن نبقى صادقين دائمًا مهما كانت الأمور الأخرى التي نخفق فيها. لقد قال أنّه لا يجدر بنا أن نمثّل كذبةً أو نتفوّه بالأكاذيب وأنّه يثق بنا في ذلك. لا يمكنك أن تفعلي ذلك يا فيث فلتلبسي الجوارب المقلّمة لمرّةٍ واحدةٍ وحسب، لن يلاحظها أحدٌ في الكنيسة فالأمور هناك لا تشبه الأمور في المدرسة كما أنّ ثوبك البنيّ الجديد طويلٌ جدًّا وسيغطّيها. أليس من الحظّ أنّ الخالة مارثا خاطته كبيرًا كي تتمكّني من ارتدائه إلى أن تصبحي أكبر على الرّغم من أنّك كرهته حين أنهت خياطته؟"

كرّرت فيث قائلة: "لن ألبس تلك الجوارب." ثمّ حلّت قدميها البيضاوين العاريتين عن شاهدة القبر ومشت عمدًا على العشب

الأخضل البارد نحو كومة الثّلج ثمّ داست عليها ووقفت هناك.

صاحت أونا مذعورة: "ما الذي تفعلينه؟ سوف تصابين بنزلة بردٍ مميتة يا فيث ميريديث."

أجابت فيث: "هذا ما أحاول فعله. آمل أن أصاب بنزلة بردٍ هائلة وأن أمرض جدًّا غدًا، لن أكون أمثّل كذبةً هكذا. سوف أقف هنا بقدر ما أستطيع أن أتحمّل."

"ولكنّك قد تلقين حتفك حقًّا يا فيث، قد تصابين بالتهاب الرّئة. رجاءً يا فيث لا تفعلي. فلندخل إلى المنزل ونجد لك ما تلبسينه في قدميك. آه ها قد عاد جيري. كم أنا شاكرة. جيري أرغم فيث على التّرجّل عن الثّلج. انظر إلى قدميها."

سألها جيري: "يا للهول! ما الذي تفعلينه يا فيث؟ هل فقدت صوابك؟"

صرخت فيث قائلة: "لا. أغرب عن وجهي!"

"هل تقومين بمعاقبة نفسك على أمرٍ ما؟ إن كانت تلك هي الحال فذلك ليس صائبًا. سوف تمرضين."

"أريد أن أمرض. أنا لا أقوم بمعاقبة نفسي. أغرب عن وجهي."

توجّه جيري لأونا بالسّؤال قائلًا: "أين حذاؤها وجواربها؟"

"لقد أعطتهما لليدا مارش."

"ليدا مارش؟ وما السّبب؟"

"لأنّ ليدا لا تملك أيًّا منهما وكانت قدماها متجمدتين، وهي الآن ترغب أن تصاب بالمرض كي لا تضطرّ إلى الذّهاب إلى الكنيسة غدًا وارتداء جواربها المقلّمة ولكنّها قد تقضي نحبها يا جيري."

قال جيري: "ترجّلي عن كومة الثّلج تلك يا فيث أو سوف أسحبك بنفسي."

تحدّته فيث قائلة: "فلتفعل."

هرع جيري إليها وسارع للإمساك بذراعيها فشدّها باتّجاه وشدّت فيث بالاتّجاه المعاكس. ركضت أونا إلى خلف فيث وقامت بدفعها. ثارت فيث على جيري كي يدعها وشأنها في حين ثار جيري بدوره على فيث كي تعدل عن تصرّفها الأرعن، أمّا أونا فكانت تبكي.

أثاروا ضجيجًا عارمًا وكانوا قريبين جدًّا من حاجز المقبرة المواجه للطّريق. مرّ "هنري وارين" وزوجته بعربتهما ورأوا وسمعوا كل شيء. وفي وقتٍ قصير، سمع جميع أهالي جلين أنّ أطفال الدّير كانوا يتشاجرون فيما بينهم بطريقةٍ مروّعة مستخدمين ألفاظًا غير لائقة. في تلك الأثناء، كانت فيث قد أذعنت للترجّل عن الثّلج لأنّ قدميها كانتا تؤلمانها بشدّة وكانت مستعدّةً للنّزول في أيّة لحظة. بعدها، دخلوا جميعهم إلى الدّاخل بأنسٍ وخلدوا إلى النّوم. نامت فيث كالملاك واستيقظت في الصّباح بدون أيّ أثرٍ لنزلة برد وأحسّت أنّه من المحال لها أن تدّعي المرض وأن تمثّل كذبة بعد استذكارها لذلك الحديث مع والدها منذ وقتٍ طويل، ولكنّها كانت ما تزال مصرّةً على عدم ارتداء تلك الجوارب الشّنيعة للحضور إلى الكنيسة.

***

25
فضيحةٌ أخرى و"توضيحٌ" آخر



ذهبت فيث إلى مدرسة الأحد باكرًا وجلست في زاوية مقعدها في الصّف قبل مجيء الآخرين. ولذا، لم تنتشر الحقيقة المريرة إلى أن غادرت فيث مقعد الصّف للتوجّه إلى مقعدها في الكنيسة بعد دوام مدرسة الأحد. كانت الكنيسة شبه مكتظّة بالفعل وجميع الذين كانوا جالسين بجوار جناح الكنيسة رأوا أنّ ابنة الكاهن كانت تلبس جزمة من دون جوارب!

كان ثوب فيث البنّي الجديد، والذي كانت الخالة مارثا قد خاطته على الطّراز القديم، طويلًا على نحوٍ يدعو للسّخرية ولكنّه على الرّغم من ذلك لم يكن يصل إلى أعلى جزمتها وكانت بوصتان من ساقيها البيضاوين جليّتين للنّاظرين.

جلس كارل وفيث بمفردهما في مقعد الدّير أمّا جيري فكان قد ذهب إلى معرض الكنيسة للجلوس مع أحد أصحابه وقامت فتاتيّ بلايث باصطحاب أونا معهما. عُرف أطفال ميريديث بالجلوس في جميع أنحاء الكنيسة بهذه الطّريقة الأمر الذي كان يراه الكثيرون غير لائقًا. ولاسيّما في المعرض، حيث يحتشد الأطفال المهفوفون الذين

يتهامسون ويشاع عنهم أنّهم يمضغون التّبغ أثناء الخدمة، لم يكن مكانًا مناسبًا لابن الدّير ولكنّ جيري كان يكره مقعد الدّير في أعلى الكنيسة، والذي كان محطّ أنظار الشّيخ "كلو" وأسرته وكان يلوذ بالفرار منه متى ما سنحت له الفرصة لذلك.

لم يلحظ كارل، والذي كان منغمسًا في مراقبة عنكبوتٍ يغتزل شبكته عند النّافذة، ساقي فيث ولم يلحظهما السيّد ميريديث البتّة، حين مشى مع ابنته في طريق العودة من الكنيسة إلى المنزل. قامت فيث بارتداء الجوارب المقلّمة الكريهة قبل عودة جيري وأونا لذا وفي الوقت الرّاهن لم يكن أيٌّ من مقيمي الدّير على علمٍ بما فعلت غير أنّ جميع أهالي "جلين سانت ماري" الآخرين لم يفتهم الخبر، حتّى أنّ قلّة من الذين لم يروا بأعينهم سمعوا بآذانهم على الفور، ودارت جميع الأحاديث في طريق الإياب من الكنيسة حول تلك الواقعة. قالت "السيّدة دايفس" أنّ ذلك كان في الحسبان وأنّ بعضًا من أولئك الصّغار سوف يحضرون إلى الكنيسة في المرّة المقبلة عراةً تمامًا. قرّرت رئيسة جمعيّة "مساعدة السيّدات" أنّها سوف تتطرّق إلى هذا الأمر خلال الاجتماع القادم وتقترح أن يبقوا على الكاهن ويحتجّوا. قالت الآنسة كورنيليا أنّها عن نفسها قد استسلمت وأنّه لا جدوى من القلق بشأن صغار الدّير بعد اليوم، حتّى أنّ السيّدة بلايث اندهشت بعض الشّيء على الرّغم من أنّها أرجعت فعلة فيث لفرط نسيانها. لم تتمكّن سوزان من حياكة جوارب لـفيث على الفور لأنّه كان يوم الأحد ولكنّها كانت قد جهّزت واحدًا قبل أن يستيقظ أيّ من أهالي "إنجلسايد" في الصّباح.

قالت: "إيّاك أن تخبريني يا زوجة الطّبيب العزيزة بأنّ العجوز مارثا تلك ليست الملامة. أعتقد أنّ تلك الطّفلة المسكينة لم تكن تملك أيّة جوارب لائقة لارتدائها، أعتقد أنّ جميع جواربها كانت مثقّبة فأنت تعلمين تمام العلم أنّها غالبًا ما تكون كذلك، كما أظنّ يا عزيزتي زوجة

الطّبيب أنّه من الأفضل لجمعيّة "مساعدة السيّدات" حياكة بعض الجوارب لأولئك الأطفال، بدلًا من التّشاجر على السّجادة الجديدة لأجل أداء الوعظ. أنا لا أنتمي إلى جمعيّة "مساعدة السيّدات" ولكنّني سوف أحيك لـفيث زوجين من الجوارب من هذا النّسيج الأسود بأسرع ما يمكنني فلتثقي بذلك. أنا لن أنسى إحساسي أبدًا يا زوجة الطّبيب العزيزة حين رأت عيناي ابنة كاهنٍ تمشي في جناح الكنيسة من دون أيّة جوارب، لم أعلم حقًّا في أيّ اتّجاهٍ أنظر."

كانت الآنسة كورنيليا قد وفدت إلى جلين للتّسوّق والمرور إلى "إنجلسايد" للتّحدّث بشأن ما جرى فقالت متأوّهة: "كما أنّ الكنيسة كانت تعجّ بالميثوديّين في الأمس. أنا أجهل السّبب ولكن كلّما يقوم أطفال الدّير بفعلٍ مشين، تكون الكنيسة مكتظّةً بالميثوديّين لا محال. كانت عينا السيّدة "ديكون هازارد" على وشك السّقوط من رأسها وحين خرجت من الكنيسة قالت "حسنًا كان ذلك العرض لائقًا، أنا أشفق على المشيخيّين حقًّا." وكان علينا أن نصمت ونتقبّل كلامها إذ لم نكن نملك ما نقوله."

قالت سوزان متجهّمة: "بل هناك ما كان في وسعي قوله يا زوجة الطّبيب العزيزة لو أنّني سمعتها. لقلت أوّلًا أنّني أرى إظهار ساقين عاريتين نظيفتين ليس أقلّ لباقةً من ارتداء جوارب مثقّبة، كما كنت لأضيف قائلةً أنّنا نحن المشيخيّين في غنى عن شفقتكم بما أنّنا نملك في صفّنا كاهنًا يسعه أن يعظ خلافًا لكاهن الميثوديّين. كنت لأسحق السيّدة "ديكون هازارد" يا عزيزتي زوجة الطّبيب يمكنك أن تثقي بكلامي."

ردّت الآنسة كورنيليا: "أتمنّى لو لم يكن السيّد ميريديث واعظًا مذهلًا ولو أنّه يهتمّ بأسرته أفضل ممّا يفعل. يمكنه على الأقلّ أن يلقي نظرةً خاطفةً على أطفاله قبل أن يذهبوا إلى الكنيسة ويتأكّد من أنّهم

متأنّقين ولبقين. لقد سئمت من التماس الأعذار له، صدّقيني."

في تلك الأثناء، كانت روح فيث تعذّبها في وادي قوس المطر. كانت ماري فانس هناك وكانت في مزاجٍ لإلقاء المحاضرات كعادتها، وجعلت فيث تفهم أنّها قد جلبت العار لنفسها ولوالدها بلا رجعة وأنّها، هي ماري فانس، قد انتهت من أمرها. كان الجميع يتحدّثون وكان الجميع يقولون الكلام نفسه.

ختمت قائلة: "أنا أشعر أنّني لا أستطيع أن أصادقك بعد الآن."

صاحت نان بلايث: "إذن سوف نصادقها نحن، وإن لم ترغبي في ذلك بعد الآن فأنت غير مرحّبٍ بك في وادي قوس المطر يا آنسة فانس."

كانت نان تظنّ في سرّها أنّ فيث قد اقترفت فعلًا مخزيًا ولكنّها لم تكن ستأذن لـماري فانس أن تعالج الأمر بهذا الأسلوب الفوقيّ.

ناحت ماري قائلة: "ليس الأمر أنّني لا أرغب في ذلك ولكنّني إن استمررت بمصادقة فيث فسوف يقول النّاس أنّني أحرّضها على هذه الأفعال، فالبعض يقولون ذلك الآن صدّقي أو لا تصدّقي. لا يمكنني أن أخاطر بالسّماح لمثل ذلك أن يُقال عنّي بما أنّني الآن أعيش في مكانٍ محترم وأحاول أن أصبح آنسة. وأنا لم أحضر إلى الكنيسة عارية السّاقين حتّى في أصعب أيّامي. أنا لم أفكّر مطلقًا في الإقدام على هكذا أمر ولكنّ السيّدة "آلك" العجوز البغيضة تلك تقول أنّ فيث لم تعد الفتاة نفسها منذ أن بقيت أنا في الدّير وتقول أنّ "كورنيليا إيليوت" سوف تندم على اليوم الذي آوتني فيه وذلك يؤذي مشاعري صدّقوني ولكنّني أكثر قلقًا على السيّد ميريديث."

قالت دي باحتقار: "لا أظنّ أنّه عليك أن تقلقي عليه فذلك غير ضروريٍّ على الأرجح. والآن يا عزيزتي فيث كفّي عن البكاء وأخبرينا لم فعلت ذلك؟"

وضّحت فيث موقفها وعيناها مغرورقتان بالدّموع. تعاطفت فتيات بلايث معها حتّى أنّ ماري فانس وافقت أنّ فيث كانت في موقفٍ لا تحسد عليه غير أنّ جيري، والذي صُعق ممّا سمعته أذناه، أبى أن يلين. إذن هذا ما كانت تعنيه تلك التّلميحات الغامضة التي تلقّاها في المدرسة! قام باصطحاب فيث وماري إلى المنزل من دون أيّ مجاملة وعقد نادي السّلوك الحسن اجتماعًا طارئًا في المقبرة للحكم في قضيّة فيث.

قالت فيث بتمرّد: " أنا لا أرى ما الضّرر الذي تسبّبت به إذ لم يظهر الكثير من ساقيّ. لم يكن ذلك خطأً ولم يتأذّ أيّ أحد. "

"سوف يتسبّب ذلك بالأذى لوالدنا وأنت تعلمين ذلك فأنت تعلمين أنّ الجميع يلومونه متى ما تورّطنا في أيّ فعلٍ غير مألوف. "

تمتمت فيث قائلة: "أنا لم أفكّر في ذلك."

"وهنا تكمن المشكلة. أنت لم تفكّري وكان يجدر بك أن تفعلي. تلك غايتنا من نادي السّلوك الحسن، أن يساعدنا في تربية أنفسنا وجعلنا نفكّر. لقد تعهّدنا بالتوقّف والتّفكير دائمًا قبل أن نقدم على أيّ عمل وقد نقضت ذلك العهد وينبغي لك الآن تلقّي العقاب يا فيث، عقابًا شديدًا! سوف تلبسين تلك الجوارب المقلّمة إلى المدرسة لمدّة أسبوع وهذا هو عقابك. "

"آه جيري ألن يفي يومٌ واحدٌ بالغرض أو يومين؟ ليس لأسبوعٍ كامل! "

قال جيري بتعنّت: "بل لأسبوعٍ كامل وذلك منصف. فلتسألي جيم بلايث إن أحببت. "

شعرت فيث بأنّها تفضّل أن تنصاع للأمر على أن تسأل جيم بلايث سؤالًا كهذا وبدأت تدرك أنّ جريمتها كانت مشينةً بحقّ.

فتمتمت بقليلٍ من الاستياء: "سأفعلها إذًا. "

قال جيري بصرامة: "أنت تفلتين بجريمتك بسهولة ومهما كانت العقوبة، التي ستُفرض عليك فذلك لن يساعد والدنا ولن ينكفّ النّاس عن الاعتقاد بأنّك فعلت ذلك بدافع العفرتة وسوف يلومون والدنا على عدم ردعنا. لن نتمكّن أبدًا من توضيح موقفنا للجميع."

أرهق هذا الجانب من القضيّة تفكير فيث. كان في وسعها تحمّل إدانتها ولكنّ حقيقة أنّ والدها سوف يكون الملام كانت تعذّبها. لو علم النّاس بالحقائق الصّحيحة خلف هذه القضيّة فلن يلوموا والدها. ولكن، كيف لها أن تعلمهم جميعًا؟ إنّ الوقوف في الكنيسة وتوضيح الأمور للجميع كما فعلت من قبل أمرٌ محال. كانت فيث قد سمعت من ماري فانس عن ردّة فعل الرعيّة إزاء تصرفها، وأدركت أنّه لا ينبغي لها أن تكرّر الأمر. لازم القلق فيث لنصف أسبوع ثمّ أُلهمت بفكرة وهمّت بتنفيذها على الفور. قضت ليلتها تلك في العليّة برفقة مصباحٍ ودفتر تمارين وراحت تكتب بانكباب بوجنتين متورّدتين وعينين برّاقتين. ذلك هو الحلّ! يا لفطنتها لإتيانها بهذه الخطّة الأفّاكة! سوف تصلح جميع الأمور وتوضّح موقفها بدون التسبب بفضيحة. كانت السّاعة الحادية عشر حين أنهت فيث تكفيرها عن خطيئتها وزحفت إلى الفراش عيّانة غير أنّها كانت منشرحة الصّدر.

في غضون بضعة أيّام، صدرت النّشرة الأسبوعيّة التي تنشر في جلين تحت اسم "الصّحيفة" كالعادة فأثارت الجلبة مجدّدًا في أنحاء جلين. شغلت رسالةٌ وُقّعت باسم فيث ميريديث مجالًا بارزًا من الصّفحة الأولى وكانت كالتّالي

إلى من يهمّه الأمر:

أودّ أن أوضّح للجميع كيف انتهى بيّ الأمر بالحضور إلى الكنيسة بلا جوارب، كي يعلم الجميع أنّ والدي ليس الملام في ذلك البتّة وأنّه لا ينبغي للعجائز النّمامين أن يلوموه على ذلك لأنّها ليست الحقيقة.

لقد أعطيت زوج الجوارب الأسود الوحيد الذي كنت أملكه لليدا مارش لأنّها لا تملك أيّة جوارب، وكانت قدماها الصّغيرتان باردتين للغاية وأشفقت على حالها. لا يجب أن يبقى أيّ طفلٍ حافي القدمين ضمن جماعةٍ من المسيحيّين قبل أن تذوب جميع الثّلوج وأظنّ أنّه يتوجّب على الجمعيّة أن يعطوها جوارب. بالطّبع أنا أعلم أنّهم يرسلون أشياءً للأطفال الوثنة الصّغار ولا بأس في ذلك وهي مبادرةٌ لطيفة، ولكنّ الطّقس حيث يعيش أطفال الوثنة أكثر دفئًا من هنا، وأظنّ أنّه ينبغي على النّساء في كنيستنا أن يهتممن لأمر "ليدا" وألّا يتركن هذا العبء على عاتقي. حين قمت بإعطائها جواربي، كنت قد غفلت تمامًا عن حقيقة أنّني لم يكن لديّ زوج آخر من الجوارب السّوداء غير المثقّوبة، ولكنّني مسرورةٌ لأنّني أعطيتها لها وإلّا لما ارتاح ضميري. وحين غادرت تلك المسكينة وقد بدت فخورةً وجذلة، تذكّرت أنّني لم أكن أملك سوى الجوارب الحمراء والزّرقاء المريعة التي حاكتها لي الخالة مارثا في الشّتاء الماضي من بعض الخيوط التي كانت السيّدة "جوزيف بور" من جلين الشّماليّة قد أرسلتها إلينا. كانت خيوطًا خشنةً ومعقّدة ولم أر أيًّا من أطفال السيّدة "بور" يرتدون ملابس صُنعت من نسيجٍ كهذا، ولكنّ ماري فانس قالت أنّ السيّدة "بور" تعطي الكاهن كلّ ما لا تلبسه أو تأكله وتظنّ أنّ ذلك سيكون جزءًا من الرّاتب الذي وقّع زوجها على دفعه ولكنّه لم يفعل أبدًا.

لم أطق تحمّل ارتداء تلك الجوارب المقيتة فهي قبيحةٌ جدًّا وخشنة وتصيبني بالحكّة وكان الجميع ليسخر منّي. فكّرت في بادئ الأمر في التّظاهر بالمرض والتخلّف عن الذّهاب إلى الكنيسة في اليوم التّالي، ثمّ قرّرت ألّا أفعل لأنّ ذلك سيكون تمثيليّةً كاذبة وأخبرنا والدنا بعد رحيل والدتنا أنّه لا يجب علينا أن نفعل ذلك أبدًا، فتمثيل الكذبة يساوي التفوّه بها على الرّغم من أنّي أعرف بعض الأشخاص هنا في

جلين ممّن يفعلون ذلك، ولا يبدو أنّهم يشعرون بالاستياء حيال هذا الأمر على الإطلاق. لن أقوم بذكر أيّ أسماء ولكنّني أعرف من هم وكذلك والدي.

وبعدها بذلت قصارى جهدي كي أُصاب بنزلة برد عن طريق وقوفي حافية القدمين في كومةٍ من الثّلج في مقبرة الميثوديّين إلى أن سحبني جيري ولكنّني لم أصب بأيّ ضرر ولذا فلم أتمكّن من التملّص من ذهابي إلى الكنيسة. فقرّرت في آخر المطاف أن ألبس حذائي وحسب وأن أذهب بتلك الطّريقة. لا يسعني أن أفهم لم كان ذلك خطأً فقد حرصت على تنظيف ساقيّ جيّدًا، ولكنّ والدي ليس الملام في جميع الأحوال، فقد كان في مكتبه يتفكّر في خطابه وبعض الأمور السّماويّة الأخرى، واختفيت عن أنظاره قبل ذهابي إلى مدرسة الأحد. إنّ والدي لا ينظر إلى سيقان الآخرين في الكنيسة لذا وبالطّبع لم يلحظ ساقيّ على خلاف جميع النّمامين، الذين لاحظوا وراحوا يتحدّثون في الأمر وهذا هو السّبب الذي دفعني إلى كتابة هذه الرّسالة لـ "الصّحيفة" كي أوضّح موقفي. أظنّ أنّني اقترفت خطأً مشينًا بما أنّ الجميع يقولون ذلك وأنا آسفة وها أنا الآن ألبس تلك الجوارب الفظيعة لمعاقبة نفسي على فعلتي بالرّغم من أنّ والدي قد اشترى لي زوجين جديدين بمجرّد أن افتتح السيّد "فلاج" متجره صبيحة يوم الإثنين. ولكنّ كلّ ماحدث كان ذنبي وإن قرّر النّاس أن يلوموا والدي على ذلك بعد قراءتهم لهذه الرّسالة فهم ليسوا مسيحيّين ولذا فلا يهمّني قولهم.

هناك أمرٌ آخر أودّ توضيحه قبل أن أختتم رسالتي، أخبرتني ماري فانس أنّ السيّد "إيفن بويد" يتّهم أسرة "لو باكسترز" بسرقة البطاطا من بستانه الخريف الفائت ولكنّهم لم يلمسوا البطاطا خاصّته، صحيحٌ أنّهم فقراء ولكنّهم صريحون، بل كانت تلك فعلتنا، أنا وجيري وكارل، لم تكن أونا برفقتنا في ذلك الوقت. لم نظنّ أبدًا أن ذلك يعدّ سرقة، كنّا

في حاجةٍ إلى بضع حبّاتٍ من البطاطا وحسب لطهيها فوق النّار ذات ليلةٍ في وادي قوس المطر، وتناولها إلى جانب سمك السّلمون المرقّط المقليّ، لذا قفزنا من فوق السّياج وقطفنا بعضها. كانت حبّات البطاطا صغيرةً جدًّا لأنّ السيّد "بويد" لم يضع ما يكفي من السّماد في التّربة، فاضطررنا إلى قطف الكثير من السّويقات حتّى نحصل على كفايتنا ولم تكن الحبّات أكبر من الكرات. ساعدنا والتر ودي بلايث في تناولها ولكنّهما لم ينضمّا إلينا إلى أن طبخناها، ولم يعلما من أين أتينا بها لذا فلا ذنب لهما في ذلك، بل هو ذنبنا نحن فقط. لم نقصد أن نسبّب الأذى ولكن إن كان ما فعلناه يعدّ سرقة فنحن آسفون وسوف ندفع ثمنها للسيّد "بويد" إن كان سينتظرنا إلى أن نكبر فنحن لا نملك المال الآن، لأنّنا لسنا في السّن المناسب لكسب المال بعد، وتقول "الخالة مارثا" أنّ تدبّر أمور هذا المنزل يستنزف كلّ سنتٍ من راتب والدي حتّى عندما يتلقّاه بانتظام... الأمر الذي لا يحصل في معظم الأحيان. ولكن لا ينبغي للسيّد "بويد" أن يلوم أسرة "لو باكسترز" ويسيء إلى سمعتهم بعد الآن لأنّهم أبرياء.

مع فائق الاحترام،
فيث ميريديث."



***

26
الآنسة كورنيليا ترى الأمور من منظورٍ جديد



قالت آن مسلوبة القلب: "بعد أن أموت يا سوزان أريد أن أعود إلى الأرض في كلّ مرّةٍ تزهر فيها أزهار النّرجس البريّ في هذه الحديقة. قد لا يتمكّن أيّ أحدٍ من رؤيتي ولكنّني سأكون هنا. إن كان أيّ أحدٍ موجودٌ في الحديقة في ذاك الوقت، أظنّ أنّني سوف آتي في مساءٍ كهذا المساء تمامًا ولكنّني قد أحضر عند الفجر وحسب، فجر ربيعيٍّ ذي لونٍ ورديٍّ شاحب، فلن يروا سوى أزهار النّرجس وهي تتراقص بهمجيّة وكأنّ ريحًا ثائرةً قد هبّت بقربها ولكنّني سأكون أنا الفاعلة."

قالت سوزان: "لا شكّ يا سيّدتي زوجة الطّبيب أنّك لن تفكّري في التّباهي بأشياءٍ سفليّة كأزهار النّرجس بعد موتك، كما أنّني لا أؤمن بالأشباح إن كانت واضحةً للعيان أم لا."

"آه سوزان لن أكون شبحًا! ذلك يبدو مريعًا. بل سوف أكون نفسي وسوف أجري هنا وهناك عند الشّفق والغسق وأتأمّل جميع الأماكن العزيزة إلى قلبي. ألا تذكرين كم شعرت بالاستياء حين غادرت منزل

الأحلام يا سوزان؟ لم أعتقد أنّني سوف أحبّ إنجلسايد أبدًا ولكنّني أحببتها. أنا أحبّ كلّ بقعةٍ وكلّ حجرٍ في هذا المكان."

قالت سوزان والتي كانت روحها متعلّقة في إنجلسايد:

"أنا أحبّ هذا المكان أيضًا ولكن لا ينبغي لنا أن نهتمّ بالأشياء الدّنيويّة كثيرًا يا عزيزتي زوجة الطّبيب، ثمّة أمور كالحرائق والزّلازل الأرضيّة لذا فيجب أن نكون على أهبة الاستعداد دائمًا. لقد اندلع حريقٌ في منزل أسرة "توم مكالستر" في الميناء منذ ثلاثة أيّام ويقول البعض أنّ "توم مكالستر" هو من أضرم النّار في منزله للحصول على مبالغ التّأمين وقد يكون ذلك صحيحًا أو لا يكون. ولكنّني أنصح الطّبيب بتفقّد مدخنات المنزل فدرهم وقاية خيرٌ من قنطار علاج. وها هي السّيدة إيليوت مقبلةٌ عبر البوّابة وكأنّها مصابةٌ بالدّوار."

"عزيزتي آن هل قرأت الصّحيفة هذا اليوم؟"

كان صوت الآنسة كورنيليا يرتعش وكان ذلك يعود لتأثّرها ولحقيقة أنّها كانت قد هرعت إلى هنا بسرعة البرق من المتجر وخطفت أنفاسها."

انحنت آن بين أزهار النّرجس لتخفي ابتسامتها، كانت هي وجيلبرت قد ضحكا من قلبيهما بسبب الصّفحة الأولى من الصّحيفة ذلك اليوم، ولكنّها كانت تعلم أنّ الأمر بالنّسبة للآنسة كورنيليا كان بمثابة الفاجعة وينبغي لها ألّا تجرح مشاعرها بإظهار أيّ ردّة فعلٍ متهوّرة.

سألت الآنسة كورنيليا بيأس: "أليس هذا مريعًا؟ ما العمل الآن؟"

كانت الآنسة كورنيليا قد قطعت عهدًا على نفسها بعدم القلق حيال ألاعيب أطفال الدّير ولكنّها استمرّت بالقلق دون تغيير.

شقّت الآنسة كورنيليا الطّريق إلى الشّرفة حيث كانت سوزان تحيك وكان كلٌّ من ريلا وشيرلي يحفظان مبادئ القراءة. كانت سوزان قد انتهت من حياكة زوج الجوارب الثّاني لـفيث. لم تقلق سوزان أبدًا

بشأن فقر البشريّة بل كانت تفعل ما تراه سيؤدّي إلى تحسين الأحوال وتترك الباقي إلى القوى الإلهيّة ببالٍ مطمئنّ.

كانت سوزان قد قالت لآن ذات مرّة: "تظنّ كورنيليا إيليوت أنّها وُلدت لتحكم هذا العالم يا زوجة الطّبيب العزيزة لذلك فدائمًا ما يُثار جزعها بشأن أمرٍ ما. أمّا أنا فلا أظنّ أنّني أشبهها في ذلك بل أنا أتكيّف بهدوء، حتّى أنّه يخطر لي في بعض الأحيان أنّ الأمور قد تتحسّن قليلًا ولكن ليس علينا أن نغذّي تلك الأفكار فهي تضايقنا وحسب ولا توصلنا إلى أيّ حلّ."

قالت آن وهي تسحب كرسيًّا مزوّدًا بوسادة كي تجلس الآنسة كورنيليا: "أنا لا أرى أنّ هناك ما في وسعنا أن نفعله الآن ولكن كيف وافق السيّد "فيكرز" على طباعة تلك الرّسالة؟ كان عليه أن يكون أكثر تيقّظًا."

"السيّد "فيكرز" متغيّب يا عزيزتي آن فقد رحل إلى "نيو برنسويك" لمدّة أسبوع وقد تولّى ذاك الوغد الشّاب "جو فيكرز" تحرير الصّحيفة في غيابه. بالطّبع ما كان السيّد "فيكرز" ليسمح بنشر تلك الرّسالة حتّى لو أنّه ميثوديّ ولكنّ "جو" قد وجدها نكتةً ظريفة. كما تقولين، لقد فات الأوان على فعل أيّ شيءٍ الآن بل علينا أن نتعايش مع ما حصل ولكن إن التقيت بـ "جو فيكرز" في مكانٍ ما فسوف أؤنّبه تأنيبًا لن ينساه بتلك السّرعة. أردت من "مارشال" أن يوقف اشتراكنا في الصّحيفة على الفور، ولكنّه قهقه وقال أنّ هذا العدد هو الوحيد الذي يوجد فيه ما يقرأ منذ سنوات، لن يأخذ "مارشال" الأمور بجديّةٍ في حياته، تمامًا كالرّجال. ولحسن الحظّ، فالسيّد "إيفان بويد" مثله أيضًا، إنّه يعتبر الأمر مزحة ويضحك، وهو ميثوديٌّ آخر! أمّا بالنّسبة للسيّدة "بور" من جلين الشّماليّة فلا شكّ في أنّها سوف تشتاط غضبًا وسوف تغادر أسرتها الكنيسة ومهما نظرت في الأمر فالخسارة لن تكون فادحة.

كانت سوزان تكنّ ضغينةً لتلك المرأة وأضحكها ذكر فيث لها في رسالتها فقالت: "إنّها تستحقّ ذلك، سوف تكتشف أنّها لن تتمكّن من خداع كاهنٍ ميثوديٍّ بنسيجٍ رديء بدلًا من دفع راتبه."

قالت الآنسة كورنيليا بكآبة: "لعلّ أسوأ ما في الأمر هو أنّه ليس هناك أمل في تحسّن الأمور ـ بما أنّ السيّد ميريديث كان يذهب لمقابلة "روزماري ويست" كنت آمل أن يصبح للدّير ربّة منزلٍ لائقة قريبًا ولكنّ ذلك ذهب في مهبّ الرّيح. أفترض أنّها لن تتزوّجه بسبب الأطفال، هذا ما يظنّه الجميع على الأقلّ."

قالت سوزان والتي كانت عاجزةً عن تصوّر أنّ أيّ أحدٍ قد يرفض كاهنًا: "أنا لا أعتقد أنّه عرض عليها الزّواج."

"حسنًا، لا أحد يعلم شيئًا بهذا الشّأن ولكن من المؤكّد أنّه انكفّ عن الذّهاب لزيارتها ولم تكن روزماري تبدو في حالةٍ جيّدة طيلة الرّبيع. آمل أن تحسّن زيارتها لـ "كينجسبورت" من حالها. لقد ارتحلت منذ شهرٍ وسوف تبقى هناك لشهرٍ آخر كما فهمت. أنا لا أذكر أنّ روزماري قد تغيّبت عن المنزل من قبل فهي وإيلين لا تتحمّلان الافتراق عن بعضهما البعض. ولكنّني فهمت أنّ إيلين هي من أصرّت على رحيلها هذه المرّة وفي هذه الأثناء، فإنّ إيلين و "نورمان دوجلاس" يستعيدان عواطف الماضي."

سألت آن مقهقهة: "أحقًّا؟ لقد سمعت إشاعةً عن ذلك ولكنّني لم أصدّقها."

"بل صدّقي صدّقي يا عزيزتي آن فالجميع يعلم بهذا الأمر. لم يثر "نورمان" الشّكوك حول نواياه في أيّ شيء. دائمًا ما كان يغازل في العلن. لقد أخبر "مارشال" أنّه لم يفكّر في إيلين لسنوات ولكنّه عندما حضر إلى الكنيسة لأوّل مرّة في الخريف الماضي ورآها، وقع في حبّها مجدّدًا. لقد قال أنّه نسي كم كانت آيةً في الجمال. أتصدّقين أنّه لم يكن

قد رآها منذ عشرين عامًا؟ بالطّبع فهو لم يكن يحضر إلى الكنيسة أبدًا ولم تكن إيلين تتجوّل في غير هذه الأرجاء. آه، جميعنا نعرف ما يريده "نورمان" ولكن ما تريده إيلين مسألةٌ مختلفة. ولا أريد أن أؤكّد إن كان الأمر سينتهي بالزّواج أم لا."

أشارت سوزان بفظاظة: "لقد هجرها من قبل ولكنّني أعتقد أنّ بعض النّاس لا يضعون ذلك في حسبانهم يا زوجة الطّبيب العزيزة."

قالت الآنسة كورنيليا: "لقد هجرها في نوبة غضب وراح يتحسّر طيلة حياته، ذلك مختلفٌ عن الهجر بطريقةٍ قاسية. أنا عن نفسي، لم أبغض نورمان كما يفعل الآخرون. هو لن يتمكّن أبدًا من التّبجّح أمامي. أتساءل ما الذي جعله يعود إلى الكنيسة، أنا لم أتمكّن أبدًا من تصديق قصّة السيّدة "ويلسن" أنّ فيث قد أتت إلى منزله وقامت بتوبيخه كي يعود. كيف لها أن تؤثّر في نورمان دوجلاس؟ لقد كان في المتجر حين غادرت، وكاد ينفجر من الضّحك بسبب تلك الرّسالة المخزية. كان في وسع المرء أن يسمع صوته من نقطة فوروينديز إذ راح يصيح قائلًا:

"إنّها أعظم فتاةٍ في العالم بأسره، إنّها تتمتّع بوافرٍ من الجرأة، لا بل هي تنضح بالجرأة وجميع العجائز يرغبن في كبحها، تبًّا لهنّ! ولكنّهنّ لن يستطعن ذلك أبدًا! من الأفضل لهنّ أن يحاولن إغراق سمكة. فلتحرص على وضع مزيدٍ من السّماد في تربة البطاطا في السّنة القادمة. هو هو هو!" ثمّ ضحك إلى أن هزّ السّقف."

أشارت سوزان: "إنّ السيّد دوجلاس يدفع الرّاتب كما ينبغي."

"آه إنّ نورمان ليس لئيمًا بطريقةٍ أو بأخرى، قد يدفع الآلاف دون أن يرفّ له رمش وقد يجأر كالثّور إن اضطرّ لدفع خمس سنتاتٍ أكثر ممّا ينبغي. ثم إنّه معجبٌ بعظات السيّد ميريديث وهو مستعدٌّ دائمًا للإنفاق أكثر كلّما ضحك أكثر. يكاد إفريقيٌّ وثنيٌّ عارٍ أسود يقدّر المسيحيّة

أكثر منه وهذا لن يتغيّر. ولكنّه فطنٌ ومثقّف وينتقد الخطابات كما ينتقد المحاضرات. على أيّة حال، من الجيّد أنّه يساند السيّد ميريديث وأبناءه لأنّهم سوف يحتاجون إلى الأصحاب أكثر من أيّ شيءٍ آخر بعد ما حدث. لقد سئمت من التماس الأعذار لهم صدّقيني."

قالت آن بجديّة: "أتعلمين يا آنسة كورنيليا، أظنّ أنّنا جميعنا كنّا نتذرّع بالكثير من الأعذار وهذا تصرّفٌ أحمق وحريٌّ بنا أن نعدل عنه. سوف أخبركم بما أرغب في فعله ولكنّني لن أنفّذه بالطّبع."

لاحظت آن ومضةً من الهلع في عينيّ سوزان ثمّ تابعت قائلة:

"قد يكون ذلك غير مألوفًا ويجدر بنا الالتزام بالتّقاليد ولو على جثّتنا حين نبلغ عمرًا وقورًا. ولكنّني أرغب في فعل ذلك، أرغب في استدعاء جمعيّة "مساعدة السيّدات" وجمعيّة "الفتيات الخيّاطات" لعقد اجتماع وأدعو إليه كلّ الميثوديّين الّذين يشنّرون على آل ميريديث بيد أنّني أظنّ أنّنا لو أقلعنا نحن المشيخيّون عن انتقادهم وإيجاد الأعذار سوف نجد أنّ الطّوائف الأخرى لن تكترث لسكّان ديرنا إلّا قليلًا. سوف أقول لهم "أيّها الرّفاق المسيحيّون..." مع التّشديد على كلمة "المسيحيّين" لديّ ما أقوله لكم وأودّ قوله بصدقٍ وصراحة فلتقدّروا كلامي وتنقلوه إلى أسركم. لا حاجة لكم أيّها الميثوديّون في الإشفاق علينا ولا حاجة لنا نحن المشيخيّون في الإشفاق على أنفسنا وسوف نكفّ عن ذلك، كما سنقول بجرأةٍ وصراحة لجميع العذّال والمتعاطفين أنّنا فخورون بكاهننا وبأسرته. إنّ السيّد ميريديث أفضل واعظٍ في تاريخ كنيسة "جلين سانت ماري" ناهيكم عن أنّه معلّمٌ خاشعٌ ومخلصٌ للحقيقة والإحسان المسيحيّ، إنّه صديقٌ مؤمن وكاهنٌ أصيل الرّأي في جميع المسائل المهمّة كما أنّه رجلٌ لبقٌ ومثقّفٌ وأصيل وعائلته تستحقّه. "جيرالد ميريديث" هو أذكى تلميذٍ في مدرسة جلين حتّى أنّ السيّد "هازارد" يقول أنّ أمامه مستقبلٌ واعد وهو فتًى شهمٌ وشريفٌ

وصدوق أمّا "فيث ميريديث" فهي آيةٌ في الجمال وهي حسناء بقدر ما هي ملهمة ومبدعة وبعيدة كلّ البعد عن كونها مبتذلة. لا تملك جميع فتيات جلين الأخريات مجتمعات الاندفاع والدّهاء والابتهاج والجرأة التي تملكها، إنّها لا تملك عدوًّا واحدًا في كلّ العالم فجميع الّذين يعرفونها يحبّونها. كم من الأطفال أو البالغين يمكن أن يُقال فيهم مثل هذا الكلام؟ "أونا ميريديث" تجسيدٌ للّطافة وسوف تغدو امرأةً محبوبة. وقد يغدو "كارل ميريديث" بحبّه للنّمل والضّفادع والعناكب عالم حيواناتٍ ونباتاتٍ تقدّره كندا لا بل العالم بأسره. أتعرفون أيّة أسرةٍ أخرى في جلين أو خارجها يُقال فيها كلّ هذه الأمور؟ دعكم من الأعذار والاعتذارات الخجولة فنحن نعتزّ بكاهننا وأطفاله المذهلين!"

توقّفت آن لبرهةٍ كي تلتقط أنفاسها بعد خطابها المحتدم ولأنّها لم تكن تثق بنفسها للتّحدّث أكثر في وجه الآنسة كورنيليا التي كانت تحدّق فيها وكأنّ موجةً من الأفكار الجديدة اجتاحتها ثمّ عادت إلى الشّاطئ تضرب وتلهث بشجاعة.

"أتمنّى لو تعقدي هذا الاجتماع وتقولي كلّ ما قلتيه الآن بالحرف الواحد! لقد جعلتني أشعر بالعار من نفسي للمرّة الأولى في حياتي ولن أنكر ذلك. بالطّبع كان علينا أن نتحدّث بهذه الطّريقة ولا سيّما مع الميثوديّين فكلّ كلمةٍ قلتيها صحيحة. لقد أغلقنا أعيننا عن الأمور المهمّة وركّزنا على الأمور التّافهة التي لا تساوي جناح بعوضة. آه يا عزيزتي آن يمكنني أن أرى الحقيقة حين تحفر في ذهني هكذا. لن تعتذر "كورنيليا مارشال" بعد اليوم! بل سوف أمشي شامخة الرّأس منذ الآن، صدّقيني، على الرّغم من أنّني قد أفضفض بنات نفسي لك إن أقدم أطفال ميريديث على أيّ فعلٍ طائشٍ ثانيةً. لا أدري حتّى لم شعرت بالاستياء هكذا إزاء تلك الرّسالة فهي مجرّد دعابةٍ طريفةٍ كما قال نورمان. لا تتمتّع الكثير من الفتيات بالظّرافة الكافية لكتابة مثل تلك

الرّسالة كما أنّها كانت مزوّدة بالنّقط والفواصل كما ينبغي، وكانت خالية تمامًا من الأخطاء الإملائيّة. فليحذر الميثوديّون من التّفوّه بكلمةٍ واحدةٍ عنها فأنا لن أسامحهم تمامًا كما أنّني لن أسامح "جوفيكرز"، صدّقيني. أين هم باقي أطفالك هذه اللّيلة؟"

"والتر والتّوأم في وادي قوس المطر أمّا جيم فهو يدرس في العليّة."

"جميعهم مولعون بوادي قوس المطر. تظنّ ماري فانس أنّه أفضل مكانٍ في العالم بأسره فقد تذهب إليه كلّ مساءٍ إن سمحت لها ولكنّني لا أشجّع تسكّعها. ثمّ إنّني أفتقدها حين لا تكون في الأرجاء يا عزيزتي آن، من كان يظنّ أنّني سأتعلّق بها هكذا؟ ولكنّني أرى أخطاءها وأحاول توجيهها بيد أنّها لم تتلفّظ بأيّة كلمةٍ سليطة منذ أن أقامت في منزلي وهي تمدّ لي يد العون على الدّوام، في آخر المطاف يا عزيزتي آن فأنا لم أعد شابّةً كما كنت من قبل ولا داعي لنكران ذلك. كان عمري تسعةٌ وخمسون في عيد ميلادي الأخير ولكنّني لا أشعر بذلك ولا جدوى من دحض كلام الإنجيل."

***

27
حفلٌ موسيقيّ مقدّس



على الرّغم من تغيّر وجهة نظر الآنسة كورنيليا غير أنّها لم تتمكّن من تمالك أعصابها بسبب فعلة أطفال ميريديث الأخيرة. تعاملت مع الموقف ببراعةٍ بين العامّة فراحت تقول لجميع النّمّامين على غرار ما قالته آن بكثيرٍ من التّشديد والقسر حتّى أنّ من سمعها وجدوا أنفسهم مغفّلين في آخر المطاف، لأنّهم يبالغون في إعطاء خدعةٍ طفوليةٍ أكثر ممّا تستحقّ. أمّا في السرّ فقد سمحت الآنسة كورنيليا لنفسها أن تريح بالها وترثى لحالها أمام آن.

"أقاموا حفلًا موسيقيًّا في المقبرة مساء الخميس يا عزيزتي آن حين كان اجتماع صلاة الميثوديّين قائمًا. جلسوا هناك على شاهدة قبر "هيزيكيا بولوك" وراحوا يغنّون لساعةٍ متواصلة. أنا أتفهّم طبعًا أنّهم لم يغنّوا سوى التّراتيل وما كان الأمر ليكون بهذا السّوء لو أنّهم لم يفعلوا شيئًا آخر ولكنّني سمعت أنّهم اختتموا بأغنية "بولي وولي دودل" كاملة بينما كان "ديكون باكستر" يصلّي."

قالت سوزان: "لقد كنت هناك تلك اللّيلة وعلى الرّغم من أنّني لم

أخبرك بأيٍّ من هذا يا عزيزتي زوجة الطّبيب، غير أنّني لم أنفكّ عن التّفكير أنّه لمن الأسف أنّهم اختاروا تلك اللّيلة بالتّحديد. كان سماعهم يغنّون تلك الأغنية التّافهة ملء حناجرهم وهم جالسين هناك بين مراقد الموتى مقشعرًا للأبدان."

قالت الآنسة كورنيليا بنقم: "أنا أجهل ما الذي كنت تفعلينه في اجتماع صلاة الميثوديّين."

ردّت سوزان بعناد: "أنا لم أر في حياتي أنّ الميثوديّة مثيرةٌ للاهتمام ولكنّني، وكما أردت أن أقول قبل أن أقاطع، على الرّغم من امتعاضي فأنا لم أخضع للميثوديّين وحين قالت السيّدة "ديكون باكستر" عند خروجنا "يا له من عرضٍ مشين!" نظرت في عينيها وقلت "جميعهم مغنّون رائعون كما أنّ لا أحد من أعضاء جوقتكم يتكبّد عناء الحضور إلى اجتماعات صلواتكم يا سيّدة "باكستر" يبدو لي أنّ أصواتهم لا تكون متناغمة سوى أيّام الأحد!" فصمتت تمامًا وشعرت أنّني زجرتها كما تستحقّ غير أنّني كنت لأتمادى أكثر من ذلك يا زوجة الطّبيب العزيزة لو أنّهم فقط لم يغنّوا "بولي وولي دودل" إذ أنّه لأمرٌ فظيعٌ أن يفكّر المرء في غناء هكذا أغنية في مقبرة."

أفاد جيلبرت قائلًا: "كان بعض أولئك الموتى يغنّون "بولي وولي دودل" حين كانوا ما يزالون على قيد الحياة يا سوزان ولربّما ما يزالون يرغبون في سماعها."

رمقته الآنسة كورنيليا بنظرات المؤاخذة ثمّ عقدت العزيمة على التّلميح لآن في أيّ مناسبةٍ قادمة أنّها يجب أن تنصح الطّبيب بعدم التّفوّه بهكذا أمور لأنّها قد تدنّس سمعته وقد يخيّل إلى النّاس أنّه ليس من طائفة الأرثوذكس. صحيحٌ أنّ "مارشال" يتفوّه بأمورٍ أفظع في العادة ولكنّه لم يكن رجل ذا شأنٍ بين العامّة.

"حسبما فهمت أنّ والدهم كان في مكتبه طيلة الوقت وكانت النّوافذ

مفتوحةً ولكنّه لم يلحظهم مطلقًا. لا شكّ في أنّه كان غارقًا في كتابه كعادته غير أنّني تحدّثت إليه في هذا الأمر عندما زارني."

سألت سوزان بنبرةٍ عذول: "كيف تجرّأت يا سيّدة مارشال إيليوت؟"

"كيف تجرّأت؟ كان الأمر مجرّد مسألة وقتٍ قبل أن يفكّر أحدهم في التّجرّؤ على القيام بأمرٍ ما. لماذا؟ لقد قال أنّه لا يملك أدنى فكرةٍ عن رسالة فيث في الصّحيفة لأنّه لم يحبّ أيّ أحدٍ أن يعلمه بذلك، وطبعًا هو لا يقرأ الصّحيفة أبدًا، ولكنّني ظننت أنّه ينبغي له أن يكون على علمٍ بما حصل، كي يتسنّى له أن يتجنّب حدوث مثل هذه الأفعال في المستقبل فقال أنّه سوف يتحدّث إليهم ولكنّني متأكّدةٌ من أنّه سوف ينسى الأمر تمامًا بمجرّد عبوره خارجًا من بوّابتي. لا يتمتّع ذلك الرّجل بحسّ الفكاهة مطلقًا يا آن صدّقيني. لقد ألقى عظةً يوم الأحد الماضي عن كيفيّة تنشئة الأطفال، لقد كان خطابًا رائعًا وأسف جميع حضور الكنيسة لأنّ السيّد ميريديث لا يستطيع أن يطبّق ما يعظ به."

لقد ظلمت الآنسة كورنيليا السيّد ميريديث بظنّها أنّه سوف ينسى كلامها في أقرب وقت. إذ عاد إلى المنزل مكروبًا للغاية وحين عاد الأطفال من وادي قوس المطر تلك اللّيلة في وقتٍ متأخّرٍ أكثر ممّا ينبغي لهم التّجوّل هناك قام باستدعائهم لمكتبه.

دخل الأطفال إلى المكتب وقد اعتراهم شعورٌ بالرّهبة، لم يكن ذلك من عادة والدهم. ما الذي من الممكن أنّه يرغب بإخبارهم به؟ حاولوا عصر أدمغتهم لتذكّر أيّ اعتداءٍ ذي أهميّة قاموا به مؤخّرًا ولكنّ محاولاتهم باءت بالفشل. كان كارل قد سكب صحنًا مليئًا بالمربّى على ثوب السيّدة "بيتر فلاج" الحريريّ منذ ليلتين حين دعتها الخالة مارثا إلى العشاء ولكنّ السيّد ميريديث لم ينتبه لذلك ولم تشتك السيّدة "فلاج" من الأمر كونها امرأةً طيّبة، ثمّ إنّ كارل قد خضع لعقابٍ يقضي

بارتدائه ثوب أونا لبقيّة الأمسية.

ظنّت أونا فجأةً أنّ والدها قد ينوي إخبارهم أنّه مقبلٌ على الزّواج من "روزماري ويست" فراح قلبها يخفق خفقانًا عنيفًا وارتعشت قدماها. بعدها رأت أنّ والدها كان يبدو متجهّم الوجه ومغتمًّا للغاية. لا بدّ من أنّها كانت مخطئة.

قال السيّد ميريديث: "أيّها الأطفال لقد سمعت ما أمضّني كثيرًا، أصحيحٌ أنّكم جلستم في المقبرة طيلة أمسية الخميس وغنّيتم أغانٍ سفيهةٍ حين كان اجتماع الصّلاة قائمًا في كنيسة الميثوديّين؟"

هتف جيري بهلع: "يا للهول يا أبي! لقد نسينا تمامًا أنّ تلك اللّيلة كانت ليلة اجتماع صلاة الميثوديّين."

"إذًا فذلك صحيح، لقد قمتم بذلك حقًا؟"

"أنا لا أعلم ما الذي تقصده بالأغاني السّفيهة يا أبي. لقد غنّينا التّراتيل، لقد كانا حفلًا موسيقيًّا مقدّسًا كما تعلم. ما الضّير في ذلك؟ صدّقني أنّنا نسينا أنّها كانت ليلة اجتماع صلاة الميثوديّين إذ كانوا يعقدون اجتماعاتهم في أمسيات الثّلاثاء، وبما أنّهم غيّروا موعدهم لأمسيات الخميس فمن الصّعب علينا التّذكّر."

"ألم تغنّوا سوى التّراتيل؟"

قال جيري وقد احمرّ وجهه: "لقد غنّينا أغنية "بولي وولي دودل" في الختام فقد قالت فيث "فلنختتم بأغنيةٍ مبهجة" ولكنّنا لم نقصد أن نسيء لأيّ أحد يا والدي، صدقًا لم نقصد."

خشيت فيث أن يلوم السيّد ميريديث جيري أكثر ممّا ينبغي فقالت: "كان الحفل الموسقيّ فكرتي يا والدي. أنت تعلم أنّ الميثوديّين نفسهم قد أقاموا حفلًا موسيقيًّا في كنيستهم منذ ثلاثة أسابيع وظننت أنّه سيكون من الممتع أن نقيم حفلنا الخاصّ على غرارهم، غير أنّهم تلوا الصلوات في حفلهم في حين أنّنا لم نفعل، سمعنا أنّ النّاس يظنّون أنّ

صلاتنا في المقبرة فعلٌ لا يغتفر." وأردفت قائلة: "كما أنّك كنت جالسًا هنا طيلة الوقت ولم تنبس ببنت شفة."

"أنا لم ألحظ ما كنتم تفعلونه وبالطّبع فإنّ ذلك لا يعذرني وأنا أدرك أنّ اللّوم يقع عليّ أكثر منه عليكم ولكن لم غنّيتم أغنيةً سخيفةً كتلك في الختام؟"

تمتم جيري قائلًا: "نحن لم نفكّر."

وأحسّ أنّ عذره كان تافهًا جدًّا، لا سيّما أنّه قد وبّخ فيث بعنفٍ في اجتماعات نادي السّلوك الحسن لقلّة تفكيرها قبل الإقدام على أفعالها. وتابع قائلًا: "نحن آسفون يا والدي، صدقًا آسفون. يمكنك أن توبّخنا وتزجرنا كما يحلو لك فنحن نستحقّ ذلك على الدّوام."

ولكنّ السيّد ميريديث لم يوبّخهم أو يزجرهم بل جلس وضمّ الجناة الصّغار إليه، وتحدّث إليهم قليلًا بعطفٍ وحكمة فاعتراهم شعورٌ بالعار والنّدامة وأحسّوا أنّهم لن يتمكّنوا من التّصرّف بتهوّرٍ وسخافةٍ مجدّدًا.

وبينما هم يصعدون السّلالم همس جيري قائلًا: "سوف يتعيّن علينا أن نعاقب أنفسنا عقابًا أليمًا وشديدًا على فعلتنا هذه. سوف نعقد اجتماعًا للنّادي صباح الغد على الفور، ونقرّر كيف سنقوم بذلك. أنا لم أر والدنا مشتّتًا هكذا من قبل، ولكنّني أتمنّى لو يتّخذ الميثوديّون يومًا واحدًا لعقد اجتماع الصّلاة بدلًا من تغيير الموعد طيلة أيّام الأسبوع."

تمتمت أونا لنفسها: "على أيّ حال، أنا مسرورةٌ لأنّ ذلك لم يكن ما كنت أخشاه."

كان السيّد ميريديث قد جلس في المكتب خلفهم وأخفى وجهه في ذراعيه.

فقال: "أعنّي يا ربّ! أنا والدٌ ضنيك. آهٍ يا روزماري لو أنّك اهتممت وحسب!"

***

28
يوم صوم



عقد نادي السّلوك الحسن اجتماعًا خاصًّا في الصّباح التّالي قبل دوام المدرسة. وبعد العديد من الاقتراحات كان صيام يومٍ كاملٍ هو العقاب الأنسب.

قال جيري: "لن نأكل شيئًا لمدّة يومٍ كامل. أنا أشعر بالفضول لمعرفة شعور الصّيام على أيّة حال وستكون هذه فرصةً مناسبة."

ظنّت أونا أنّ الصّيام عقابٌ سهل ودهشت لأنّ فيث وجيري لم يبتدعا عقابًا أكثر قسوة فسألت: "أيّ الأيّام سنختار؟"

قالت فيث: "فلنختر يوم الإثنين فغالبًا ما يكون عشاء أيّام الأحد مشبعًا أمّا وجبات يوم الإثنين فلا تكون كذلك أبدًا."

هتف جيري: "تلك هي الغاية تمامًا! لا يجدر بنا أن نختار اليوم الأسهل لصومه بل الأصعب والأصعب هو يوم الأحد لأنّنا، وكما قلت، غالبًا ما نتناول لحم الضّأن المشويّ عوضًا عن "الدّيتو" البارد في أيّام الأحد، ولن يكون العقاب منصفًا إن صمنا عن "الدّيتو". فلنختر يوم الأحد القادم، سيكون يومًا ملائمًا لأنّ والدنا سوف يتبادل مع كاهن "لوبريدج" الشّماليّة تقديم الخدمة الصّباحيّة ولن يعود حتّى المساء

وإن تساءلت الخالة مارثا ما الذي دهانا فسنخبرها على الفور أنّنا نصوم لخير أرواحنا وأنّ ذلك واردٌ في الكتاب المقدّس وأنّه ليس عليها أن تتدخّل، وأظنّ أنّها لن تفعل."

لم تتدخّل الخالة مارثا بل قالت بطريقتها المتمتمة النّكدة: "لأيّ نوعٍ من الحماقات تخطّطون أيّها الفاسدون الصّغار؟" ولم تفكّر بالأمر مجدّدًا. كان السيّد ميريديث قد غادر في الصّباح قبل أن يصحو أيّ أحد من دون تناول فطوره غير أنّ حدوث ذلك كان مألوفًا، إذ كان ينسى تناول الفطور في معظم الوقت، ولم يكن هناك من يذكّره به. كما أنّ الفطور -فطور الخالة مارثا- لم يكن صعب التّفويت حتّى أنّ "الفاسدين الصّغار" لم يشعروا بالحرمان لصومهم عن العصيدة المتكتّلة والحليب الفاسد اللذين كانت ماري فانس تزدريهما. ولكنّ الحال كانت مختلفةً وقت الغداء، ذلك أنّهم كانوا يتضوّرون جوعًا حينها وكانت رائحة الضّأن المشويّ التي قد تغلغلت في أرجاء الدّير شهيّةً بكلّ معنى الكلمة، على الرّغم من حقيقة أنّ اللّحم لم يكن ناضجًا البتّة ولم يستطيعوا تحمّلها. سارع الأطفال بيأسٍ إلى المقبرة حيث لا تصل الرّائحة، ولكنّ أونا لم تتمكّن من إشاحة بصرها عن نافذة حجرة الطّعام حيث كان كاهن "لوبريدج" الشمالية يأكل بهدوء.

تنهّدت قائلة: "ليتني أستطيع أن أحصل على قطعةٍ صغيرة وحسب."

أمرها جيري: "أصمتي. الأمر صعبٌ بلا ريب وهنا يكمن العقاب. يسعني أن أتناول صنمًا في هذه اللّحظة ولكن هل ترينني أتذمّر؟ فلنفكّر في شيءٍ آخر. علينا فقط ألّا نفكّر في معدتنا."

وقت العشاء، لم يشعروا بآلام الجوع التي عانوا منها طيلة اليوم.

قالت فيث: "أظنّ أننا بدأنا نعتاد على الأمر. ينتابني شعورٌ غريبٌ وكأنّني لست من هذا العالم ولكنّي لا أشعر بأنّني جائعة."

قالت أونا: "أشعر بشعورٍ غريبٍ في رأسي إنّه يدور من وقتٍ لآخر."

ولكنّها ذهبت إلى الكنيسة مع الآخرين بابتهاج. ولو لم يكن السيّد ميريديث غارقًا في خطابه ومسترسلًا فيه للحظ الوجه الشّاحب والعينين المجوّفتين في مقعد الدّير ولكنّه لم يلحظ شيئًا واستمرّ خطابه لوقتٍ أطول من العادة. وقبل أن يلقي التّرتيلة الختاميّة، انهارت "أونا ميريديث" عن المقعد وانطرحت أرضًا في غيبوبة.

كان الشّيخ السيّد "كلو" أوّل من وصل إليها فأخذ جسدها الهزيل الضّعيف من بين ذراعيّ فيث التي كانت شاحبةً من الذّعر، وأخذها إلى المجلس الكنيسيّ. نسي السيّد ميريديث أمر التّراتيل وكلّ شيءٍ آخر وسارع للّحاق بابنته وغادر الرعيّة المكان بأفضل ما يمكنهم.

قالت فيث لهثانة: "آه يا سيّد "كلو" هل ماتت أونا؟ هل قتلناها؟"

سأل الوالد الشّاحب: "ما الذي حصل لطفلتي؟"

قالت السيّدة "كلو": "أظنّ أنّها فقدت الوعي وحسب. آه ها قد جاء الطّبيب، حمدًا للّه!"

لم يعد جيلبرت أونا إلى وعيها بسهولة بل تطلّبه ذلك بعض الوقت إلى أن تمكّنت من فتح عينيها، ثمّ حملها إلى الدّير وتبعته فيث وهي تبكي بهستيريّةٍ لانفراجها.

"إنّها جائعةٌ وحسب فهي لم تتناول شيئًا منذ الصّباح، لم يتناول أيٌّ منّا أيّ شيء لأنّنا جميعًا كنّا صائمين."

قال السيّد ميريديث: صائمين!" وقال الطّبيب: "صائمين؟"

قالت فيث: "أجل.. لمعاقبة أنفسنا على غناء "وولي بولي" في المقبرة."

قال السيّد ميريديث مهمومًا: "لا أريدكم أن تعاقبوا أنفسكم على ذلك يا ابنتي لقد أنّبتكم وكنتم جميعكم آسفين وقد سامحتكم."

وضّحت فيث قائلة: "هذا صحيح ولكن كان علينا أن نتلقّى العقاب. تلك هي قاعدتنا في نادي السّلوك الحسن والتي تفيد أن نُعاقب أنفسنا

متى ما اقترفنا خطأً أو أقدمنا على فعلٍ من شأنه أن يلحق الأذيّة بوالدنا في رعيّته. نحن نقوم بتربية أنفسنا لأنّنا لا نملك من يتولّى هذه المهمّة."

تأوّه السيّد ميريديث ولكنّ الطّبيب نهض من جانب أونا وقد تنفّس الصّعداء.

وقال: "إذًا فقد غابت هذه الطّفلة عن الوعي لأنّها كانت جائعةً وحسب وكلّ ما تحتاجه هو طبقٌ من الطّعام ليس إلّا. هلّا حرصت على أن تحصل عليه يا سيّد "كلو"، لطفًا منك. ومن قصّة فيث فأنا أظنّ أنّه من الأفضل أن يأكل جميعهم شيئًا ما فنحن لا نريد المزيد من حالات فقدان الوعي."

قالت فيث: "أعتقد أنّه لم يكن ينبغي لنا أن نجبر أونا على الصّيام. حين أفكّر في الأمر مليًّا ما كان يجب أن يتلقّى العقاب سوى جيري وأنا لأنّنا نحن من اقترحنا فكرة الحفل الموسيقيّ كما أنّنا الأكبر بين إخوتنا."

قالت أونا بصوتها الضّعيف: "ولكنّني غنّيت "وولي بولي" مثلكم تمامًا لذا فكان عليّ أن أُعاقب أيضًا."

عاد السيّد "كلو" بكأسٍ من الحليب وتسلّل جيري وفيث وكارل إلى حجرة المؤن، أمّا السيّد ميريديث فقد عاد إلى مكتبه حيث جلس في العتمة لوقتٍ طويلٍ برفقة أفكاره المريرة. إذًا فقد كان أطفاله يقومون بتربية أنفسهم لأنّه ليس هناك من يتولّى هذه المهمّة، يكافحون في حيرتهم دون يدٍ ترشدهم أو صوتٍ ينصحهم. اعتلجت جملة فيث التي نطقتها ببراءة في ذهن والدها وكأنّها رمحٌ شائك. لا وجود لمن ينتبه إليهم ويرعى أرواحهم ويهتمّ بأجسادهم الصّغيرة. كم بدت أونا ضعيفة وهي مستلقية على كنبة المجلس الكنسي وهي غائبة عن الوعي! كم بدت يداها الصّغيرتان هزيلتين وكم بدا وجهها الصّغير شاحبًا! كانت تبدو وكأنّها ستفلت من يديه في لحظة... صغيرته أونا اللّطيفة التي

أوصته بها "سيسيليا" متوسّلةً إليه كي يمنحها رعايةً خاصّة. لم يشعر بمثل هذا الضّنك الذي اختلجه حين لاج فوق ابنته الصّغيرة وهي غائبة عن الوعي منذ وفاة زوجته. ينبغي له أن يجد حلًّا ولكن ما العمل؟ هل عليه أن يعرض الزّواج على "إليزابيث كيرك"؟ فهي امرأةٌ طيبّة... وقد تكون لطيفةً مع أطفاله. قد يستطيع أن يحمل نفسه على الإقدام على ذلك لولا حبّه لـ "روزماري ويست" وإلى أن يقضي على ذلك الحبّ فلن يكون في وسعه أن يسعى للزّواج من امرأةٍ أخرى. ولكنّه لم يكن يستطيع أن يقضي عليه... لقد حاول من قبل ولم يفلح. كانت روزماري قد حضرت إلى الكنيسة ذلك المساء للمرّة الأولى منذ عودتها من "كينجسبورت" وبمجرّد أن أنهى خطابه، لمح وجهها من بين حشد الحاضرين في آخر الكنيسة فراح قلبه يخفق بشراسة ثمّ جلس حانيًا رأسه بينما كانت الجوقة تغنّي التّراتيل. لم يكن قد رآها منذ تلك اللّيلة التي عرض عليها الزّواج فيها وحين نهض مجدّدًا ليلقي التّرانيم، كانت يداه ترتعشان وعلا وجهه الشّاحب الاحمرار. وبعدها، طرد فقدان أونا لوعيها كلّ الأفكار من ذهنه لبعض الوقت، والآن سارعت كلّها للعودة إليه بينما هو جالسٌ في ظلام مكتبه ووحشته. كانت روزماري الامرأة الوحيدة في قلبه ولا جدوى من تفكيره في الزّواج من غيرها. لم يكن في وسعه القيام بفعلٍ دنيء كهذا ولا حتّى لأجل أطفاله. يجب عليه أن يتحمّل هذا العبء بمفرده... أن يحاول أن يكون والدًا أفضل وأكثر تيقّظًا... يجب عليه أن يخبر أطفاله ألّا يخشوا من الإفصاح له عن كلّ مشاكلهم. بعدها، أشعل مصباحه وأخذ كتابًا وزينًا يتمحور حول عالم الألوهيّة وكان ينوي قراءة فصلٍ واحدٍ ليستجمع أفكاره ولكنّه بعد خمس دقائقٍ غاب عن العالم وعن مشاكل العالم.

***

29
أسطورةٌ عجيبة



في إحدى الأمسيات الأولى من شهر حزيران، كان وادي قوس المطر مكانًا مبهجًا وانبعث هذا الابتهاج في نفوس الأطفال أيضًا الذين كانوا جالسين في منفسح الغابة، حيث كانت الأجراس على الشّجرات العاشقة ترنّ و"السيّدة البيضاء" تهزّ جدائلها الخضراء وكانت الرّياح تضحك وتصفر بينهم وكأنّها الصّديق الجذل المخلص. كانت السّراخس الحديثة في التّجويف مفعمةً بالحيويّة. كانت شجرات الكرز الموزّعة في أرجاء الوادي بين شجرات التنّوب القاتمة مغشية باللّون الأبيض. كانت عصافير أبو الحنّاء تزقزق فوق شجرات القيقب في "إنجلسايد". وعلى بعدٍ منها، على منحدرات جلين كانت الأشجار في البساتين تتبرعم بتألّقٍ وغموضٍ وتختفي في الغسق. كان يومًا ربيعيًّا وعلى المخلوقات الحديثة أن تكون مسرورةً في أيّام الرّبيع. كان الجميع في وادي قوس المطر مسرورين إلى أن تجمّد الدّم في عروقهم بسبب قصّة شبح "هنري وارين" التي روتها لهم ماري فانس.

لم يكن جيم هناك بل كان يقضي أمسيّاته في العليّة في "إنجلسايد" يدرس لامتحان الدّخول. كان جيري يصطاد السّمك في النّهر ووالتر

يقرأ قصائد البحر للشّاعر "لونجفيلوز" للآخرين الذين كانوا منغمسين في جمال السّفن وألغازها. بعد ذلك، راحوا يتحدّثون عمّا يرغبون في فعله في المستقبل وإلى أين يرغبون في السّفر وعن البلدان البعيدة التي سوف يزورونها. كانت نان ودي تودّان الذّهاب إلى "أوروبا" وكان والتر يتوق لنهر النّيل النّائح عبر رماله المصريّة ولاستراق نظرةٍ إلى أبي الهول. وأفصحت فيث بشيءٍ من الأسى أنّها تعتقد أنّ عليها أن تصبح مبشّرة، ذلك أنّ السيّدة "تايلر" العجوز أخبرتها أنّ عليها أن تصبح كذلك، وهكذا سيتسنّى لها على الأقلّ زيارة الصّين أوالهند، تلك الأماكن الشرقيّة الغامضة. أمّا أونا فلم تنطق ببنت شفة، وكانت تفكّر في أنّها تفضّل ملازمة الدّيار فالمكان هنا أجمل من أيّ مكانٍ آخر. إنّه أمرٌ مريعٌ أن يكون عليهم التّوزّع في شتّى أرجاء العالم حين يكبرون، ذلك أشعر أونا بالوحشة والحنين إلى الوطن غير أنّ الآخرين تابعوا أحلامهم باغتباطٍ إلى أن جاءت ماري فانس وطردت الأحلام والقصائد بضربةٍ واحدة.

هتفت قائلة: "يا للهول، لقد انقطعت أنفاسي. لقد هرعت نزولًا من تلك التلّة بسرعة البرق، لقد وقف شعر رأسي من الرّعب في منزل العجوز بايلي هناك في الأعلى."

سألت دي: "ما الذي أفزعك؟"

"لا أدري. كنت أتسكّع بين الزّهور البنفسجيّة في الحديقة القديمة محاولةً أن أرى إن كانت أيٌّ من زنابق الوادي قد تبرعمت أو ليس بعد. كان المكان مظلمًا كجبّ ضبّ هناك، وإذ بي أري شيئًا ما يخشخش ويتحرّك في الجانب الآخر من الحديقة. كان أبيض اللون، صدّقوني لم أتمهّل لثانيةٍ واحدة كي أتحرّى أمره، بل قفزت من فوق الحاجز بأسرع من السّرعة. كنت واثقةً من أنّه شبح هنري وارين."

سألت دي: "ومن كان هنري وارين؟"

سألت نان: "ولم قد يملك شبحًا؟"

"ألم تسمعوا بالقصّة أبدًا على الرّغم من أنّكم نشأتم في جلين؟ حسنًا، انتظروا للحظة إلى أن ألتقط أنفاسي تمامًا وسوف أخبركم."

ارتعد والتر من الحماس. كان يحبّ قصص الأشباح بغموضها وذروتها المثيرة والخوف الذي يبعث في نفسه شعورًا من اللّذة الرّهيبة والنّادرة. بات "لونجفيلوز" الآن في نظره تافهًا وسخيفًا، فرمى الكتاب جانبًا ومدّد نفسه لينصت بملء جوارحه، وتوسّم في وجه ماري بعينيه الكبيرتين البرّاقتين. تمنّت ماري لو أنّه لا ينظر إليها بتلك الطّريقة. كانت تشعر أنّ في وسعها أن تقصّ قصّة الشّبح بطريقةٍ أفضل إن لم يكن والتر ينظر إليها. كان بإمكانها أن تضيف القليل من البهارات وتبتكر بعض التّفاصيل الفنيّة لتعزّز الرّعب. في هذه الحالة، كان عليها أن تتقيّد بالحقيقة البحتة أو الحقيقة التي سمعتها.

بادرت قائلة: "حسنًا، أنت تعلم أنّ العجوز "توم بايلي" وزوجته كانا يعيشان في ذاك المنزل في الأعلى منذ ثلاثين سنة. يُقال أنّه كان رجلًا فاسدًا وأنّ زوجته لم تكن أفضل منه. لم يُرزقا بأيّ أطفال ولكنّ إحدى أخوات العجوز "توم" ماتت تاركةً صبيًّا صغيرًا وهو هنري وارين هذا، فقاما بتبنّيه. كان في سنّ الثّانية عشر تقريبًا حين جاء إليهم وكان صغير الحجم وحسّاسًا. ويُقال أنّ "توم" وزوجته قاما باستغلاله منذ البداية وقاما بضربه وتجويعه. قال النّاس أنّهم كانوا يريدونه أن يقضي حتفه كي يحصلا على المال القليل الذي كانت والدته قد تركته له. لم يقض "هنري" نحبه على الفور ولكنّه بدأ يعاني من نوبات صرع، كما يسمّونها، وكبر إلى أن أصبح في الثّامنة عشر من عمره. اعتاد عمّه على جلده في تلك الحديقة لأنّها كانت خلف المنزل ولا يمكن لأحدٍ أن يراه، ولكنّ النّاس كانوا يستطيعون سماعهم، ويقولون أنّهم كانوا يستطيعون سماع صوت "هنري" المسكين يتوسّل لعمّه كي لا يقتله.

ولكن لم يجرؤ أيّ أحدٍ على التّدخّل لأنّ العجوز "توم" كان منحطًّا لدرجة أنّه كان سينتقم منهم بالتّأكيد. فقد قام بحرق حظائر رجلٍ من رأس الميناء كان قد أساء إليه. في آخر المطاف، لقي "هنري" حتفه وقال عمّه وعمّته أنّه هلك، بسبب نوباته وهذا جلّ ما عرفه النّاس ولكنّ الجميع كانوا يقولون أنّ "توم" قتله لأجل المال على الأقلّ. ولم يمرّ وقتٌ طويل قبل أن يُذاع أنّ "هنري" عاد يمشي وأنّ تلك الحديقة مسكونة. كان صوت بكائه وأنينه يُسمع في اللّيالي. غادر العجوز "توم" وزوجته ولم يعودا أبدًا. شُوّهت سمعة المكان، فلم يشتريه أو يستأجره أيّ أحد ولهذا أصبح من الأنقاض. حدث ذلك منذ ثلاثين عامًا ولكنّ شبح "هنري وارين" ما زال يلازم هذا المكان."

سألت نان باستهزاء: "أتصدّقين هذه القصّة؟ أنا لا أصدّقها."

ردّت ماري: "حسنًا لقد رآه وسمعه أشخاصٌ طيّبون حقًّا، ويقال أنّه يظهر ويدبّ على الأرض ويمسك المرء من ساقيه ويثرثر ويئنّ كما كان يفعل حين كان حيًّا. وهذا أوّل ما فكّرت فيه بمجرّد أن رأيت ذاك الشّيء الأبيض في الأجمات، وفكّرت أنّه إذا أمسك بي وبدأ ينوح فسوف أموت في أرضي لذا لذت بالفرار. قد لا يكون شبحه ولكنّني ما كنت لأجازف."

ضحكت دي قائلة: "على الأغلب أنّه كان عجل السيّدة "ستيمسون" العجوز الأبيض فهو يرتعي في الحديقة وقد رأيته من قبل."

"قد تكونين محقّة ولكنّني لن أمرّ في حديقة بايلي بعد الآن. ها هو جيري مع خيطٍ من سمك السّلمون المرقّط وإنّه دوري لقليها. يقول جيم وجيري أنّني أفضل طبّاخةٍ في جلين وأخبرتني كورنيليا أنّه في إمكاني أن أجلب لكم حزمة الكعك هذه وكدت أوقعها حين رأيت شبح هنري."

نَعَب جيري حين سمع قصّة الشّبح التي كرّرتها ماري على مسامعه،

بينما كانت تقلي السّمك، وأضافت عليها بعض التّعديلات التّافهة، بما أنّ والتر كان منهمكًا في مساعدة فيث في تحضير المائدة. لم تؤثّر القصّة في جيري غير أنّ فيث وأونا وكارل كانوا مذعورين في سرّهم على الرّغم من أنّهم ما كانوا ليصدّقوا القصّة أبدًا. كانت الأمور بخير طالما كان الجميع متواجدًا برفقتهم في الوادي. ولكن، حين انتهت المأدبة واستتار النّور راحوا يرتعشون إثر تذكّرهم. كان جيري قد ذهب إلى إنجلسايد مع أطفال بلايث لاستشارة جيم في أمرٍ ما وكانت ماري قد عادت إلى المنزل من ذلك الدّرب لذا تعيّن على فيث وأونا وكارل أن يعودا إلى الدّير بمفردهم، فساروا قريبين جدًّا من بعضهم البعض وتوقّفوا لوقتٍ طويلٍ أمام حديقة العجوز بايل. لم يصدّقوا أنّها مسكونة بالطّبع ولكنّهم كانوا يأبون الاقتراب منها إطلاقًا.

***

30
شبح الحاجز



لم يتمكّن أيٌّ من فيث أو كارل أو أونا من التّخلّص من القبضة التي أحكمتها قصّة شبح "هنري وارين" على مخيّلاتهم. لم يؤمنوا في الأشباح في حياتهم وقد سبق أن سمعوا بالكثير من قصص الأشباح، إذ سبق أن روت لهم ماري فانس قصصًا تتجمّد لها العروق أكثر من هذه، ولكنّ كلّ تلك القصص كانت عن أماكن بعيدةٍ وأناسٍ مجهولين. وكانوا ينسون أمرها بعد تلاشي رعشة الرّهبة والذّعر الأولى، والتي كانت مريعة وممتعة في آن واحد. أمّا هذه القصّة فقد لحقتهم إلى المنزل، كانت حديقة "بايلي" العجوز تقريبًا أمام عتبة منزلهم، تقريبًا في وادي قوس المطر المحبّب. وكانوا قد عبروها مرارًا وتكرارًا، كانوا قد نقّبوا عن الأزهار فيها وتّخذوها طريقًا قادوميّة ولكن ليس بعد اليوم أبدًا! فبعد تلك اللّيلة التي قصّت فيها ماري فانس عليهم تلك الأسطورة الشّنيعة أقلعوا عن المرور عبرها أو بقربها ولو على جثّتهم! أوكان الموت يقارن بالاحتمال الخيّالي لوقوعهم في قبضة شبح "هنري وارين" الزّاحف؟

في إحدى أمسيات حزيران الدّافئة، كان ثلاثتهم جالسين تحت

"الشّجرتين العاشقتين" وكانوا يشعرون بشيءٍ من الوحدة. لم يأت أيّ أحد آخر إلى الوادي في ذلك المساء. كان جيم بلايث في شارلوت تاون يقدّم امتحان الدّخول. وجيري ووالتر قد ذهبا في رحلةٍ بحريّة مع كابتن "كروفورد" العجوز، أمّا نان ودي وريلا فكنّ قد نزلن إلى الميناء لزيارة "كينيث" و"بيرسيس فورد" اللذين كانا قد جاءا في زيارةٍ قصيرةٍ لمنزل الأحلام القديم. كانت نان قد طلبت من فيث مرافقتهنّ ولكنّ فيث أبت. كانت تشعر ببعض الغيرة من "بيرسيس فورد" ذلك أنّها سمعت عن جمالها الأخّاذ وفتنتها الشّيء الكثير، وبيد أنّها ما كانت لتعترف بذلك مطلقًا. لا، لم تكن ستنزل إلى هناك وتمارس دورًا ثانويًّا لأيّ أحد. فقامت هي وأونا بجلب كتبهم القصصيّة إلى وادي قوس المطر وراحتا تقرآن في حين كان كارل يستكشف الحشرات على ضفاف الجدول، وكان الثلاثة مسرورين إلى أن لاحظوا أن الظّلام بدأ يخيّم وأن حديقة العجوز بايلي كانت قريبةً بشكلٍ غير مريح. عاد كارل وجلس قرب الفتاتين وتمنّوا جميعهم لو أنّهم عادوا إلى المنزل في وقتٍ أبكر ولكن لم يقل أحدهم شيئًا.

تراكمت غيومٌ أرجوانية كبيرة ومخمليّة في الغرب وانتشرت فوق الوادي. لم يكن هناك رياح وفجأةً بات كلّ شيءٍ ساكنًا بشكلٍ غريبٍ ومريع. كان المستنقع يعجّ بحشرات اليعسوب وممّا لا شكّ فيه أنّ أحد اجتماعات مجلس الجنيّات كان منعقدًا تلك اللّيلة. لم يكن وادي قوس المطر مكانًا مريحًا في تلك اللّحظة.

نظرت فيث إلى حديقة "بايلي" العجوز، وإن كان من الممكن أن يتجمّد دم أيّ شخص، فقد تجمّد دم فيث في تلك اللّحظة. طاردت عيون كارل وأونا نظرات فيث المدوّخة وبدأت القشعريرة تسير في بدنيهما، لأنّ هناك تحت شجرة الطّمراق الباسقة على حاجز حديقة "بايلي" المنهار الذي نمت عليه الحشائش، كان هناك شيءٌ أبيض بدا

غامض الشّكل في غياهب الظّلمات.

في آخر المطاف، همست أونا: "إنّه... إنّه... العجل."

همست فيث: "لكنّه... أكبر... من أن... يكون عجلًا."

كان فمها وشفتاها جافّة لدرجة أنّها كانت بالكاد قادرة على النّطق.

فجأةً شهق كارل وقال: "إنّه قادمٌ إلى هنا."

ألقت الفتاتان نظرةً خاطفةً كظيمةً أخيرة. أجل، كان يزحف من فوق الحاجز كما لا يستطيع أيّ عجلٍ أن يزحف. وللحظة، كان الثلاثة مقتنعون بأنّ ما رأوه كان شبح "هنري وارين". فرّ كارل هاربًا بتهوّر فلحقت به الفتاتان بعد أن أطلقتا صيحةً واحدة. نزلوا التلّة كالمخلوقات المجنونة عبورًا في الشّارع ووصولًا إلى الدّير. كانوا قد تركوا الخالة مارثا وهي تخيط في المطبخ وحين عادوا لم يجدوها هناك. فسارعوا إلى المكتب، كان مظلمًا وشاغرًا. فعادوا أدراجهم دفعةً واحدة وتوجّهوا إلى إنجلسايد، ولكنّهم لم يعبروا وادي قوس المطر. نزلوا التلّة وعبروا شارع جلين بسرعة الطّير تحملهم أجنحة رعبهم. كان كارل في الطّليعة تتبعه فيث وأخيرًا أونا. لم يحاول أيّ أحدٍ أن يوقفهم بيد أنّ جميع من رآهم تساءل ما هي العفرتة الجديدة التي كان ينوي عليها صغار الدّير هؤلاء هذه المرّة. ولكنّهم التقوا بروزماري ويست عند بوّابة إنجلسايد وقد كانت عائدةً لتوّها لإعادة بعض الكتب التي كانت قد استعارتها.

رأت وجوههم المرتاعة وعينيهم الجاحظة فأدركت أنّ أرواحهم الصّغيرة قد اختطفها رعبٌ رهيب مهما كان سببه. احتضنت كارل بذراع وفيث بذراعٍ أخرى أمّا أونا فقد انكبت عليها وعانقتها باستماتة.

قالت: "ما الذي حدث يا صغاري الأحبّاء؟ ما الذي أخافكم هكذا؟"

أجاب كارل من بين ثرثرة أسنانه قائلًا: "إنّه شبح "هنري وارين"

قالت روزماري بانشداه: "شبح... هنري... وارين!"

أجهشت فيث بالبكاء وقالت: "أجل، إنّه هناك... على حاجز "بايلي"... لقد رأيناه... وراح يطاردنا."

قادت روزماري الأطفال الولهانين الثّلاثة إلى شرفة إنجلسايد. لم يكن جيلبرت أو آن هناك بل كانا قد ذهبا لزيارة منزل الأحلام أيضًا، غير أنّ سوزان ظهرت عند العتبة، كالحةً وواقعيّة ولا تشبه الأشباح أبدًا.

وسألت: "ما سبب كلّ تلك الضّوضاء؟"

روى الأطفال أسطورتهم المروّعة مجدّدًا بينما كانت روزماري تضمّهم إليها وتواسيهم بدون كلمات.

قالت سوزان دون انفعال: "لا بدّ من أنّه كان بومًا."

بوم! ولم يعط أطفال ميريديث رأيهم عن ذكاء سوزان منذ ذلك اليوم!

قال كارل منتحبًا وآه كم شعر بالعار من هذا النّحيب بعد أيّام: "بل كان أكبر من مليون بوم كما... كما أنّه كان يدبّ تمامًا كما قالت ماري وكان يزحف من فوق الحاجز ليصل إلينا. هل البوم يزحف في رأيك؟"

نظرت روزماري إلى سوزان.

وقالت: "لا بدّ من أنّهم رأوا ما أرعبهم هكذا."

قالت سوزان ببرودة أعصاب: "سأذهب وأتفقّد الأمر. هدّئوا من روعكم يا أطفال مهما كان ما رأيتم، فهو لم يكن شبحًا. أمّا بالنّسبة للمسكين "هنري وارين" فأنا متأكّدةٌ من أنّه سيسرّ فقط بالرّقود في قبره بسكون وارتياح حين يصل إلى هناك. لا خوف من عودته فلتثقوا بقولي. إن كان في وسعك ذلك، فلتعيديهم إلى رشدهم يا آنسة ويست بينما أتحرّى حقيقة الأمر."

توجّهت سوزان إلى وادي قوس المطر وبجرأةٍ، التقفت في طريقها

مذراةً وجدتها خلف الحاجز حيث كان الطّبيب يعمل في حقل الدّريس خاصّته. قد لا تنفع المذراة ضدّ الأشباح ولكنّها كانت سلاحًا مواسيًا. لم ترَ سوزان شيئًا حين وصلت إلى وادي قوس المطر. لم يتراءى لها أيّ زوّارٍ بيضٍ يتربّصون في حديقة العجوز "بايلي" المظلّلة. مشت سوزان بجسارةٍ في الحديقة وخارجها وطرقت بمذراتها على باب الكوخ في الجهة الأخرى حيث تسكن السيّدة "ستيمسون" مع ابنتيها.

في إنجلسايد، كانت روزماري قد نجحت في تهدئة الأطفال. كانوا ما يزالون يشهقون قليلًا بسبب الصدمة ولكن بدأ ينتابهم شكٌّ مترصّدٌ بأنّهم قد أهانوا أنفسهم وأضحى الشّكّ حقيقةً مع عودة سوزان.

فجلست على كرسيٍّ هزّازٍ وقالت بابتسامةٍ مقيتة: "لقد اكتشفت ما كان شبحكم. كان لدى السيّدة "ستيمسون" العجوز زوجًا من الشّراشف القطنيّة تبيّضها في حديقة "بايلي" منذ أسبوع. وقامت بنشرها على الحاجز تحت شجرة الطّمراق لأنّ العشب كان قصيرًا ونظيفًا هناك، وقد خرجت هذا المساء لتدخلها إلى الدّاخل، فقامت بوضعها على كتفيها كي تتمكّن من حملها، ذلك أنّها كانت تمسك بعدّة حياكتها بيديها. ولا بدّ من أنّها قد أوقعت إحدى سنّاراتها ولم تتمكّن من إيجادها حتّى الآن، لذا جثت على ركبتيها وزحفت باحثةً عنها وهذا ما كانت تفعله حين سمعت صراخًا مرعبًا أسفل الوادي ولمحت ثلاثة أطفالٍ ينزلون من التلّة فظنّت أنّ شيئًا ما عضّهم، فراح قلبها الضّعيف يخفق لدرجة أنّها عجزت عن الكلام أو الحراك، فقرفصت هناك إلى أن اختفوا. ثمّ عادت إلى المنزل وهي تتلقّى أدويةً محفّزة منذ تلك اللّحظة كما أنّ قلبها في حالٍ يرثى لها وقالت أنّها لن تتخطّى هذا الرّعب طيلة الصّيف."

جلس أطفال ميريديث وقد اعتراهم عارٌ لم يفلح حتّى تعاطف روزماري في طرده. عادوا إلى الدّير والتقوا بـجيري عند البوّابة

واعترفوا له بما حصل فعُقد اجتماعٌ لنادي السّلوك الحسن في الصّباح التّالي.

في السّرير، همست فيث لأونا: "ألم تكن الآنسة ويست لطيفةً معنا هذه اللّيلة؟"

اعترفت أونا: "بلى، من المؤسف أنّ النّساء يتغيّرن كثيرًا حين يصبحن زوجات أب."

قالت فيث بولاء: "أنا لا أصدّق ذلك."

***

31
كارل يكّفر عن ذنبه



قالت فيث عابسة: "لا أفهم لم علينا أن نُعاقب فنحن لم نقترف أيّ ذنب. لم يكن في وسعنا أن نقاوم خوفنا ولن يلحق ذلك الأذى بوالدنا فقد كان مجرّد حادثٍ ليس إلّا."

قال جيري مستهزئًا كأنّه قاضٍ: "كنتم جبناء واستسلمتم لجبنكم، ولذا يجب أن تُعاقبوا. سوف يضحك الجميع عليكم بسبب ما حدث وهذا سيجلب العار للعائلة."

قالت فيث مرتعدة: "لو أنّك عرفت كم كان ذلك الشّيء مروّعًا، فستعتقد أنّنا تلقّينا عقابًا كافيًا بالفعل. لن أمرّ بهذا الشّعور مجدّدًا مقابل أيّ شيءٍ في هذا العالم بأسره."

تمتم كارل قائلًا: "أنا واثقٌ من أنّك كنت ستهرب أيضًا لو كنت هناك."

قال جيري ساخرًا: "أهرب من عجوزٍ مع شرشفٍ قطنيّ؟ ها ها ها!"

صاحت فيث: "لم تكن تبدو كعجوزٍ البتّة بل كشيءٍ ضخمٍ أبيض ومريعٍ يزحف فوق العشب تمامًا كما كان يفعل "هنري وارين" حسبما

قالت ماري. لك أن تضحك يا جيري ميريديث ولكنّني واثقةٌ من أنّك كنت لتبكي لو كنت هناك. وكيف سنعاقب؟ أنا لا أرى أنّ ذلك منصفًا ولكن فلتُرنا ما لديك أيّها القاضي ميريديث!"

قال جيري مقطّب الجبين: "أنا أرى أنّ اللّوم يقع على كارل أكثر من غيره لأنّه انطلق أوّلًا حسبما فهمت. ثمّ إنّه صبيّ لذا فكان عليه أن يدافع عنكما أنتما الفتاتين مهما كان الخطر المحدّق بكم. أنت تعلم ذلك، صحيحٌ يا كارل؟"

تذمّر كارل بخجل: "أظنّ ذلك."

"جيّدٌ جدًّا. سيكون هذا عقابك. سوف تجلس على شاهد قبر "هيزيكيا بولوك" في المقبرة وحدك حتى السّاعة الثّانية عشر."

هزّ كارل بكتفيه. لم تكن المقبرة بعيدةً عن حديقة العجوز "بايلي". سوف يكون هذا العقاب محنة عصيبة ولكنّ كارل كان يتوق لمحو عاره وإثبات أنّه لم يكن نذلًا.

فقال بعزم: "حسنًا، ولكن كيف لي أن أعرف أنّها السّاعة الثّانية عشر؟"

"إنّ نوافذ المكتب مفتوحة وستتمكّن من سماع صوت السّاعة، واعلم أنّه لا يُسمح لك بالتحرّك من مكانك حتّى انقضاء الوقت. أمّا بالنّسبة لكما، فسيكون عليكما أن تتخلّيا عن تناول المربّى على العشاء لمدّة أسبوع."

بدت فيث وأونا مذهولتين فقد رأين أنّ التياع كارل، والذي كان قصير المدّة مقارنةً بعقابهما، كان أخفّ وطأةً من هذا العذاب الطّويل. كان عليهما أن تتحمّلا أسبوعًا كاملًا من الخبز الرّطب دون مساعدةٍ من لذّة المربّى! ولكنّ الاعتراض كان ممنوعًا في النّادي لذا تقبّلت الفتاتان نصيبهما بكلّ الفلسفة التي تمكّنوا من استجماعها.

في تلك اللّيلة، خلد الأطفال إلى النّوم عند السّاعة التّاسعة باستثناء

كارل الذي كان جالسًا على شاهدة القبر بالفعل. أقبلت أونا إليه لتتمنّى له ليلةً سعيدة وقد اعتصر قلبها العطوف من الشّفقة.

فهمست: "آه أتشعر بالخوف يا كارل؟"

أجاب كارل بعبث: "لا إطلاقًا."

قالت أونا: "لن يغمض لي جفنٌ قبل منتصف اللّيل، إن أحسست بالوحشة فلتنظر من النّافذة ولتتذكّر أنّني في الدّاخل مستيقظة وأفكّر فيك. سوف يؤنسك ذلك بعض الشّيء، ألا تظنّ؟"

قال كارل: "سأكون بخير. لا تقلقي عليّ."

وعلى الرّغم من كلماته الجسورة غير أنّ كارل أضحى فتًى وحيدًا حين أطفئت الأنوار في الدّير. تمنّى لو كان والده في مكتبه كعادته، ما كان ليشعر بالوحدة عندها. غير أنّ السيّد ميريديث قد جرى استدعاؤه تلك اللّيلة إلى قرية الصّيد عند مدخل الميناء، لمقابلة رجلٍ يحتضر وعلى الأرجح أنّه لن يعود قبل منتصف اللّيل. سيتوجّب على كارل أن يكابد غربته بمفرده.

مرّ رجلٌ من جلين يحمل فانوسًا فراحت الظّلال التي يسبّبها نور الفانوس تندفع بجنونٍ تتراقص كالشّياطين والسّحرة، ثمّ مرّت وخيّم الظّلام ثانيةً. بدأت الأنوار في جلين تنطفئ واحدًا تلو الآخر. كانت اللّيلة مظلمة وكانت السّماء غائمة وكانت الرّياح الشّرقيّة عاتيةً على الرّغم من الموسم. بعيدًا عند الأفق، كانت الأضواء الخافتة منبعثة من "شارلوت تاون". ناحت الرّياح وتنهّدت في أشجار التّنوب. وكان نصب السيّد "آلك دايفس" التّذكاريّ يتوهّج في العتمة، وإلى جانبه كانت شجرة الصّفصاف تتلوّى وتطلق أذرعها الطّويلة فيبدو النّصب التّذكاريّ وكأنّه يتحرّك من تارّةٍ لأخرى.

التفّ كارل على نفسه فوق شاهد القبر، ودسّ ساقيه تحت نفسه ذلك أنّ تدلّيهما من حافّة الصّخرة لم يكن مريحًا. تخيّل فقط... تخيّل

فقط لو تخرج يدين عظميّتين من قبر السيّد "بولوك" وتمسك بكاحليه. كانت تلك إحدى توقّعات ماري فانس حين كانوا جميعًا مجتمعين هناك ذات يوم، وقد عادت لتنوب إليه الآن. لم يكن يصدّق تلك الأشياء، حتّى أنّه لم يكن مؤمنًا حقًّا بشبح "هنري وارين" أمّا السيّد "بولوك" فقد رحل منذ ستّين عامًا لذا فعلى الأرجح أنّه لم يكن يكترث لمن يجلس على شاهدة قبره الآن. ولكن هناك ما يبعث الغرابة والذّعر في بقاء المرء مستيقظًا حين يكون الجميع نائمين، إذ يكون وحيدًا مع شخصيّته الواهنة لمحاربة أمارات الظّلام وقواه القاهرة. لم يكن كارل قد تجاوز العاشرة من عمره وكان الآن محاطًا بالموتى وكان يتمنّى... آه كم كان يتمنّى لو تدقّ السّاعة الثّانية عشر. ألن تدقّ السّاعة الثّانية عشر أبدًا؟ لا بدّ من أنّ الخالة مارثا قد نسيت أن تضبطها.

وعندها دقّت السّاعة الحادية عشر... الحادية عشر وحسب! ما زال عليه أن يلازم ذلك المكان الكئيب لساعةٍ إضافيّة. يا ليت كان هنالك بعض النّجوم المؤنسة لرؤيتها! كان هنالك أصوات وقع أقدامٍ مارّة في كلّ أرجاء المقبرة. ارتعش كارل بسبب الخوف والبرد.

وبعد ذلك، أمطرت السّماء رذاذًا باردًا وابتلّ قميصه فشعر بالبرد حتّى النّخاع، فنسي الرّعب النّفسيّ إثر تضايقه الجسديّ. ولكن، كان عليه أن يبقى هناك حتّى السّاعة الثّانية عشرة، كان يُعاقب نفسه ولم يكن قد قيل أيّ شيء عن هطول المطر. حين دقّت السّاعة الثّانية عشرة انزلق جسدٌ عن شاهد قبر السيّد "بولوك" ودخل إلى الدّير وصعد السّلالم ليخلد إلى النّوم. كانت أسنان كارل تصطكّ وكان يظنّ أنّه لن يعرف طعم الدّفء ثانيةً.

في الصّباح، كان كارل دافئًا بما يكفي. نظر جيري إلى وجهه المحمرّ نظرةً مندهشةً واحدة ثمّ هرع لمناداة والده. أقبل السيّد ميريديث على عجلة وكان وجهه باهتًا وشاحبًا، أبيض كالعاج بسبب سهره قرب

فراش رجلٍ ميت ولم تتسنّ له العودة إلى منزله قبل بزوغ الفجر، انحنى فوق ابنه الصّغير بقلق.

وسأله: "هل أنت مريضٌ يا كارل؟"

قال كارل: "شاهد... القبر... ذلك...إنّه يتحرّك... إنّه... قادمٌ نحوي... أبعدوه... من فضلكم."

هرع السيّد ميريديث إلى الهاتف وبعد عشر دقائق كان الطّبيب ماثلًا أمام الدّير. وبعد نصف ساعة، أُرسلت برقيةٌ إلى البلدة لاستدعاء ممرّضٍ متمرّس وعلم جميع أهالي جلين أنّ كارل ميريديث يعاني من التهاب الرّئة وأنّ الطّبيب بلايث هزّ برأسه.

هزّ جيلبرت برأسه أكثر من مرّةٍ خلال الأسبوعين اللّاحقين. لقد تطوّر مرض كارل وأصبح يعاني من التهاب الرّئة المزدوج. ثمّة ليلةٌ قضتها فيث وأونا بالبكاء في غرفة نومهما وأبى فيها جيري، وقد اجتاحه النّدم، أن يتحرّك عن الأرض من أمام باب غرفة كارل. لم يترك الطّبيب بلايث أو الممرّض غرفة كارل أبدًا بل جابها الموت ببسالةٍ حتّى الفجر الدّامي إلى أن انتصروا في المعركة. تماثل كارل للشّفاء ونجا من هذه الأزمة سليمًا معافى. أُذيعت الأخبار لأهالي جلين الذين كانوا ينتظرونها واكتشف النّاس كم يحبّون كاهنهم وأطفاله.

أخبرت الآنسة كورنيليا آن: "أنا لم أنم ليلةً واحدة منذ أن علمت أن الطّفل كان سقيمًا، ولم تنفكّ ماري عن البكاء إلى أن أحدثت عيناها الغامضتان ثقوبًا في البطّانيّة. أصحيحٌ أنّ كارل أُصيب بالتهاب الرّئة لأنّه بقي في المقبرة في تلك اللّيلة الماطرة لأجل تحدٍّ؟"

"لا بل بقي هناك لمعاقبة نفسه على جبنه أثناء حادثة شبح "وارين" تلك. يبدو أنّهم أنشأوا ناديًا لتنشئة أنفسهم ويقومون بمعاقبة أنفسهم عند اقتراف الأخطاء. قام جيري بإخبار السيّد ميريديث كلّ شيءٍ بخصوص هذا الأمر."

قالت الآنسة كورنيليا: "يا للصّغار المساكين."

تحسّنت حال كارل بسرعة، إذ أنّ الرعيّة لم يقصّروا في إحضار الطّعام المغذّي إلى الدّير. وكان نورمان دوجلاس يأتي كلّ مساءٍ بدزّينةٍ من البيض الطّازج وجرّةٍ من قشدة "جيرسي". وكان يبقى في بعض الأحيان للتّجادل مع السيّد ميريديث.

وحين أصبح كارل قادرًا على النّزول إلى وادي قوس المطر مجدّدًا، أقام الأطفال مأدبةً على شرفه وحضر الطّبيب وساعدهم في الألعاب النّارية. كانت ماري فانس هناك أيضًا ولكنّها لم ترو قصص الأشباح، ذلك أنّ الآنسة كورنيليا قد أنّبتها على ذلك تأنيبًا ما كانت لتنساه بتلك السّرعة.



32
شخصان عنيدان



في طريق عودتها من إنجلسايد حيث كانت تعطي الدّرس الموسيقيّ، انصرفت روزماري ويست إلى الينبوع المختبئ في وادي قوس المطر. لم تكن قد زارت ذلك الينبوع طيلة فصل الصّيف، لم تعد تلك البقعة تجذبها أبدًا. لم يعد طيف حبيبها الشّابّ يحضر الملتقى السّريّ الآن أمّا الذّكريات المرتبطة بجون ميريديث فقد كانت أليمةً وشجيّة.

ولكنّها كانت قد رنت بالصّدفة إلى خلفها في الوادي وكانت قد لمحت "نورمان دوجلاس" يثب من فوق الحاجز الصّخريّ لحديقة "بايلي" وحسبت أنّه كان متوجّهًا إلى أعلى التلّة وإن مرّ بها فسيتعيّن عليها العودة إلى المنزل برفقته وهي لم تكن ترغب في ذلك لذا تسلّلت على الفور خلف شجرات القيقب المجاورة للينبوع على أمل أن يمرّ دون أن يراها.

ولكنّ نورمان كان قد رآها لا بل الحقيقة أنّه كان يبحث عنها، إذ كان يرغب في التّحدّث معها منذ فترة ولكنّها كانت دائمًا، كما كان يبدو، تتجنّبه. لم تكن روزماري قد استلطفت "نورمان دوجلاس" يومًا.

ولطالما تساءلت في الماضي كيف يمكن لإيلين أن تنجذب إليه. كان "نورمان دوجلاس" يعي مقت روزماري له وكان يرى في ذلك مضحكةً بالنّسبة إليه، لم يكن "نورمان" يبالي إن استلطفه الآخرون أم لا حتّى أنّ ذلك لم يحمله على بغضهم بالمقابل، لأنّه كان يعتبر الأمر نوعًا من المجاملة المرغمة. كان يظنّ أن روزماري فتاةٌ راقية وكان ينوي أن يكون زوج أختٍ فاضل ومعطاء ولكن قبل أن يصبح زوج أختها، كان يتوجّب عليه أن يتحدّث إليها لذا فقد غار في الوادي للّحاق بها بمجرّد أن رآها تغادر إنجلسايد حين كان واقفًا أمام باب متجر جلين.

كانت روزماري جالسةً على مقعد القيقب حيث كان "جون ميريديث" جالسًا تلك اللّيلة منذ سنةٍ تقريبًا مستغرقةً في تفكيرها. كان الينبوع الصّغير يتلألأ ويلمع تحت أهداب السّرخس. أرسل غروب الشّمس بريقه الأحمر الياقوتيّ من خلال الأغصان المقنطرة ونمت إلى جانبها أجمات من أزهار النّجمة المثاليّة. كانت تلك البقعة اللّطيفة خياليّة وفاتنة ومراوغة كأيّ ملاذٍ للجنيّات والحوريّات في الغابات القديمة. وصل "نورمان دوجلاس" إلى ذلك المكان ونثر فيه من نفسه فأباد سحره في لحظة. بدا وكأنّه يبتلع المكان بشخصيّته، فخلا من كلّ شيء باستثناء "نورمان دوجلاس" الذي وقف هناك، جسيم البدن، أحمر اللّحية، يعتليه الرّضا.

نهضت روزماري وقالت ببرود: "مساء الخير."

"مساء الخير يا فتاة. اجلسي مجدّدًا... اجلسي. أودّ أن أتحدّث إليك. بوركت يا فتاة، لم ترمقينني بهذه النّظرات؟ لا أريد أن أتناولك... لقد تناولت عشائي. اجلسي وكوني متحضّرة."

قالت روزماري: "يمكنني أن أسمع ما تريد قوله من مكاني هنا."

"في وسعك سماعي إن صرّيت أذنيك يا فتاة، أردتك أن تكوني مرتاحةً وحسب، فأنت تبدين متضايقةً بوقوفك هناك. حسنًا سوف

أجلس على أيّة حال."

وبناءً على ذلك، جلس "نورمان" في المكان نفسه الذي كان "جون ميريديث" قد جلس فيه ذات مرّةٍ من قبل. كان التّناقض مثيرًا للسّخرية لدرجة أنّ روزماري كانت تخشى أن تنفجر في نوبةٍ من الضّحك الهستيريّ. ألقى "نورمان" قبّعته جانبًا ووضع يديه الضّخمتين الحمراوين على ركبتيه ونظر إليها وقد شعّ وميضٌ في عينيه.

وقال متزلّفًا إليها، وقد كان في وسعه أن يتملّق حين يحلو له ذلك: "تعالي يا فتاة، لا تكوني عنيدةً هكذا. دعينا نتحدّث بعقلانيّةٍ ومودّةٍ، هناك ما أودّ أن أطلبه منك لأنّ إيلين قالت أنّها لن تفعل لذا فالأمر يقع على عاتقي."

نظرت روزماري إلى الينبوع الذي بدا منكمشًا بحجم قطرة النّدى. حدّق "نورمان" فيها بيأس.

انفجر قائلًا: "سحقًا، هلّا ساعدت زميلًا قليلًا؟"

سألت روزماري بازدراء: "وما الذي تريدني أن أساعدك فيه؟"

"أنت تعلمين تمامًا ما أريده يا فتاة. لا عجب في أنّ إيلين كانت تخشى أن تطلب منك بنفسها. اسمعي يا فتاة، أنا أرغب في الزّواج من إيلين. أنت تفهمين ما أقوله، صحيح؟ قالت إيلين أنّها لن تستطيع الموافقة قبل أن تعفيها من وعدٍ أحمق كانت قد أعطته لك. هيّا يا فتاة هلّا فعلت؟ هلّا فعلت؟"

قالت روزماري: "حسنًا."

نهض "نورمان" وأمسك بيدها المقاومة.

"هذا جيّد. كنت أعلم أنّك ستوافقين... لقد أخبرت إيلين أنّك ستوافقين. كنت أعلم أنّ الأمر لن يستغرق سوى دقيقةٍ واحدة. والآن يا فتاة فلتعودي إلى المنزل ولتخبري إيلين وسوف نقيم الزّفاف في غضون أسبوعين وسوف تأتين للعيش معنا فنحن لن نتركك في أعلى

تلك التّلّة كالغراب اليتيم لا تقلقي. أنا أعلم أنّك تبغضينني ولكن يا إلهي، كم سأستمتع بالعيش مع شخصٍ يكرهني، سوف يحلو طعم الحياة حينها. سوف تشوينني إيلين وسوف تجمّدينني أنت. لن أشعر بالكلل للحظة."

لم تتنازل روزماري لإخباره أنّ عيشها معه تحت سقفٍ واحدٍ كان من سابع المستحيلات، بل تركته يتمشّى عائدًا إلى جلين وهو ينضح بالرّضا والحبور وسارت ببطءٍ إلى منزل التلّة. كانت تعلم مسبقًا أنّ هذه اللّحظة قادمة منذ عودتها من "كينجسبورت" ووجدت أنّ "نورمان دوجلاس" بات سميرًا مأنوسًا. لم يُذكر اسمه بتاتًا في أحاديثها مع إيلين غير أنّ اتّقاء الاسم بحدّ ذاته كان له مغزى. لم يكن من طبع روزماري أن يشحن صدرها بالغلّ وإلّا فإنّها كانت لتشعر ببالغٍ من الحقد.

كانت متحضّرةً بالكاد مع "نورمان" ولم تختلف معاملتها مع إيلين بأيّ شكلٍ من الأشكال ولكنّ إيلين لم تجد الرّاحة في خطوبتها الثّانية.

حين عادت روزماري إلى المنزل، كانت إيلين في الحديقة برفقة القدّيس "جورج". التقت الأختان في ممرّ أزهار الدّهلية وجلس القدّيس "جورج" على ممشى الحصى بينهما ثانيًا ذيله الأسود اللّامع حول كفّيه الأبيضين بظرافة وكان لامباليًا كأيّ قطٍّ شبعٍ ومؤدّبٍ ومشذّب.

سألت إيلين بفخر: "أسبق لك أن رأيت مثل أزهار الدّهلية هذه من قبل؟ إنّها ببساطةٍ أجود الأزهار التي امتلكناها في حياتنا."

لم تهتمّ روزماري بأزهار الدّهلية في حياتها وكان وجودها في الحديقة إذعانًا لذوق إيلين ليس إلّا. لاحظت زهرةً ضخمة مبرقعة بالأصفر والقرمزيّ كانت تسيطر على الزّهور الأخرى.

فأشارت إليها قائلةً: "إنّ زهرة الدّاهلية تلك تشبه "نورمان

دوجلاس" تمامًا وقد تكون شقيقته التّوأم بسهولة."

احمرّ وجه إيلين ذو الحاجبين السّوداوين. كانت معجبةً بتلك الزّهرة ولكنّها كانت تعلم أنّ روزماري لم تكن كذلك، وأنّها لم تكن تنوي المجاملة ولكنّها لم تمتعض من كلام روزماري... لم تجرؤ المسكينة إيلين على الامتعاض من أيّ شيءٍ في تلك اللّحظة. وكانت تلك المرّة الأولى التي تذكر فيها روزماري اسم "نورمان" لها فشعرت أنّ ذلك ينذر بشيءٍ ما.

قالت روزماري وهي تنظر إلى أختها مباشرةً: "لقد قابلت "نورمان دوجلاس في الوادي وأخبرني أنّك ترغبين في الزّواج منه إن أذنت لك."

سألتها إيلين محاولةً أن تتكلّم ببرود ولا مبالاة غير أنّها فشلت فشلًا ذريعًا:

"حقًّا؟ وما كان جوابك؟"

لم تتمكّن من النّظر في عينيّ روزماري، كانت تنظر إلى فرو القدّيس "جورج" الأسود الأملس وكانت تشعر بخوفٍ رهيب. كانت روزماري إمّا قد وافقت أو لم توافق. في حال موافقتها، كانت إيلين ستشعر بالعار والنّدم لدرجة أنّها ستكون عروسةً متضايقةً جدًّا، أمّا في حال عدم موافقتها... حسنًا، كانت إيلين قد تعلّمت كيف تعيش من دون "نورمان دوجلاس" من قبل ولكنّها نسيت ذلك الدّرس وكانت تشعر أنّها لن تقو على تعلّمه مجدّدًا.

قالت روزماري: "لقد قلت أنّ كلاكما تملكان الحريّة المطلقة، على حدّ علمي، للزّواج متى ما يحلو لكما."

قالت إيلين وكانت ما زالت تنظر إلى القدّيس جورج: "أشكرك."

لان وجه روزماري.

وقالت بلطف: "أتمنّى لك السّعادة يا إيلين."

نظرت إليها إيلين بتوسّل: "آه يا روزماري أنا أشعر بالعار... أنا لا أستحقّ ذلك بعد كلّ ما قلته لك..."

قالت روزماري بسرعةٍ وحزم: "دعينا لا نتحدّث في هذا الأمر."

أصرّت إيلين قائلة: "ولكن... ولكنّك حرّةٌ طليقةٌ الآن أيضًا ولم يفت الأوان بعد... جون ميريديث..."

كانت روزماري تخفي تحت كلّ لطفها شرارةً من الغضب وها قد كانت تتوقّد في عينيها الزّرقاوين في تلك اللّحظة فصاحت: "إيلين ويست! هل فقدت صوابك بكلّ معنى الكلمة؟ أتخالين للحظةٍ واحدة أنّني قد أذهب إلى جون ميريديث وأقول له بكلّ وداعة: "أرجوك يا سيّدي، لقد غيّرت رأيي أرجوك يا سيّدي آمل أنّك لم تغيّر رأيك." أهذا ما تريدين أن أفعله؟"

"لا... لا... ولكنّه قد يعود... ببعض التّشجيع..."

"محال. إنّه يكرهني وله كلّ الحقّ في ذلك. لا مزيد من هذا الهراء يا إيلين. أنا لا أكنّ لك الضّغينة... بإمكانك أن تتزوّجي من يحلو لك ولكن لا تتدخّلي في شؤوني."

قالت إيلين: "إذًا فعليك أن تأتي وتعيشي معي تحت سقفٍ واحد. أنا لن أتركك هنا بمفردك."

"أتظنّين حقًّا أنّني قد أعيش في منزل نورمان دوجلاس؟"

صاحت إيلين بشيءٍ من الغضب على الرّغم من امتهانها: "لم لا؟"

انفجرت روزماري ضاحكة.

"ظننت أنّك تتمتّعين بحسّ الفكاهة يا إيلين أتتوقّعين منّي فعل ذلك؟"

"أنا لا أرى ما المانع فمنزله فيّاحٌ بما يكفي وهو لن يتدخّل في شؤونك."

"لا مجال للتّفكير في هذا الأمر يا إيلين لا تتطرّقي لهذا الموضوع

مجدّدًا."

قالت إيلين ببرودٍ وعزم: "إذًا فلن أتزوّجه. أنا لن أتركك بمفردك هنا وهذا كلّ ما لديّ لقوله في هذا الشّأن."

"هذا هراء يا إيلين."

"ليس هراء بل هذا هو قراري الحاسم. من غير المعقول أن تعيشي بمفردك في هذا المنزل الذي يبعد أميالًا عن أيّ منزلٍ آخر. إن لن تقبلي بالمجيء معي فسأبقى معك. ولا مجادلة في هذا الآن لذا لا تحاولي."

قالت روزماري: "سوف أترك مسألة الجدال هذه لنورمان."

"سأتعامل مع نورمان بنفسي، في استطاعتي تدبّر أمره. ما كنت لأطلب منك أن تحرّريني من وعدي إطلاقًا... إطلاقًا... ولكن كان عليّ أن أخبر نورمان لم لا أستطيع أن أتزوّجه فقال أنّه سيسألك. لم أستطع أن أمنعه لا يجدر بك أن تظنّي أنّك الوحيدة في هذا العالم من تكنّ الاحترام لذاتها. أنا لم أحلم أبدًا في الزّواج وتركك هنا بمفردك وسترين أنّني أستطيع أن أكون عازمةً مثلك تمامًا."

استدارت روزماري ودخلت إلى المنزل وهزّت بكتفيها. نظرت إيلين إلى القدّيس "جورج" الذي لم يحرّك ساكنًا طيلة المحادثة.

"أيّها القدّيس جورج، أنا أعترف أنّ هذا العالم قد يكون مملًّا من دون الرّجال ولكنّني على وشك أن أتمنّى عدم وجودهم في هذا العالم. انظر إلى المشاكل والمتاعب التي سبّبوها هنا يا جورج... كيف اقتلعوا سعادة حياتنا من جذورها أيّها القدّيس. لقد بدأها "جون ميريديث" وختمها "نورمان دوجلاس"، والآن أصبح مصير كلاهما النّسيان. إنّ "نورمان" هو الرّجل الوحيد الذي قابلته والذي يوافقني أنّ الإمبراطور الألمانيّ هو أخطر المخلوقات على وجه الأرض... ولا يمكنني أن أتزوّج هذا الشّخص اللّبيب لأنّ أختي عنيدة وأنا أكثر عنادًا منها. سجّل كلماتي أيّها القدّيس "جورج"، إنّ "جون ميريديث" رهن إشارتها

وسيعود بحركةٍ من إصبعها. ولكنّها لا تريد يا "جورج"... ولن تحرّك ساكنًا أبدًا... وأنا لا أجرؤ على التّدخّل أيّها القدّيس. لن أعبس يا "جورج" فـروزماري لم تعبس لذا أنا عازمةٌ على عدم فعل ذلك أيضًا أيّها القدّيس. سوف يُجنّ جنون "نورمان" ولكنّ زبدة القول أيّها القدّيس "جورج" هي أنّ علينا نحن العجائز الحمقى أن نكفّ عن التّفكير في الزّواج وحسب. حسنًا، حسنًا "اليأس رجلٌ حرّ والأمل عبد" أيّها القدّيس. هيّا فلتدخل إلى المنزل الآن يا "جورج" وسأعزّيك بصحنٍ من القشدة وحينها قد يكون هناك مخلوقٌ سعيدٌ على الأقلّ فوق هذه التلّة."

***

33
لم يُضرب كارل



قالت ماري فانس بغموض: "هناك ما يجب أن أخبركم به."

كانت هي وفيث وأونا تتنزّهان متشابكات الأذرع في القرية بعد أن كنّ قد اجتمعن أمام متجر السيّد فلاج. تبادلت أونا وفيث نظراتٍ تقول "هذا لا يبشّر بالخير"، إذ قلّما ينمّ سماع أحاديث ماري عن الرّضا متى ما ظنّت أنّ عليها أن تخبرهم بشيءٍ ما. وغالبًا ما كانوا يتساءلون لم لا يزالون يحبّون ماري فانس، إذ كانوا يحبّونها على الرّغم من كلّ شيء. وبالطّبع، فقد كانت رفيقةً محبّبة وحماسيّة، يا ليتها لا تملك تلك القناعة بأنّ إخبارهم بالأمور يقع على عاتقها!

"أتعلمون أنّ روزماري ويست لم تتزوّج والدكم لأنّها تظنّ أنّكم مجموعةٌ من المشاكسين؟ هي تخشى ألّا تفلح في تنشئتكم بشكلٍ صحيح لذا رفضت عرضه."

ارتعش قلب أونا باغتباطٍ مضمر، كانت مسرورةً لسماعها أنّ الآنسة ويست لن تتزوّج والدها غير أنّ فيث شعرت بخيبة الأمل.

فسألت: "كيف لك أن تعلمي؟"

"آه هذا ما يتداوله الجميع. لقد سمعت السيّدة إيليوت تتحدّث في

الأمر مع زوجة الطبيب وكانتا تظنّان أنّني على بعد مسافةٍ لا تسمح لي بسماعهم ولكنّني أملك أذنين كأذنيّ قطّة. قالت السيّدة إيليوت أنّها لا تملك أدنى شكٍّ في أنّ روزماري كانت تخشى أن تحاول تنشئتكم بصفتها زوجة أبيكم بسبب ما يُذاع عنكم. وقد أقلع والدكم عن الذّهاب إلى التلّة الآن وكذلك "نورمان دوجلاس" ويقول النّاس أنّ إيلين هجرته لتتعادل معه لأنّه هجرها منذ أعوام ولكنّ "نورمان" يستمرّ بإعلان أنّه سيحصل عليها وأظنّ أنّ عليكم أن تعلموا أنّكم أفسدتم زواج والدكم وأعتقد أنّها خسارة لأنّه سينتهي الأمر به بالزّواج من امرأةٍ أخرى قريبًا وأنا أرى أنّ روزماري ويست كانت لتكون أفضل زوجةٍ له."

قالت أونا: "لقد أخبرتني أنّ زوجات الأب متوحّشاتٌ وخسيسات."

قالت ماري بشيءٍ من التّحيّر: "آه في الواقع إنهنّ في الغالب نكدات كما أعلم ولكنّ روزماري ويست لا يسعها أن تكون لئيمةً مع أيّ أحد. صدّقوني، إن تزوّج والدكم "إيميلين درو" فستتمنّون لو أنّكم تأدّبتم ولم تخيفوا روزماري من الأمر. إنّه لأمرٌ فظيعٌ أنه لن تتزوّج أيّ امرأةٍ خلوقةٌ من والدكم بسبب سمعتكم. أنا أعلم بالطّبع أنّ معظم ما يُشاع عنكم ليس صحيحًا ولكنّ السّمعة السيّئة تردي صاحبها وتترك بصماتها على سائر سنوات حياته. يقول بعض النّاس أنّ جيري وكارل هما من رميا الحجارة على شبّاك السيّدة "ستيمسون" ليلة أمس بينما الحقيقة أنّ الفاعلان كانا فتيان أسرة "بويد". ولكنّني أخشى أنّ كارل هو من وضع سمك الأنقليس في عربة السيّدة "كار" العجوز، على الرّغم من أنّني قلت في بادئ الأمر أنّني لن أصدّق قبل أن أحصل على إثباتٍ غير قول السيّدة "آلك" العجوز، هذا ما قلته في وجه السيّدة إيليوت."

صاحت فيث: "ماذا فعل كارل؟"

"حسنًا، يُقال... تذكّروا أنّني أخبركم ما يقوله النّاس... لذا لا داعي

للومي على هذا... أنّ كارل والعديد من الفتية الآخرين كانوا يصطادون سمك الأنقليس فوق الجسر ذات ليلةٍ الأسبوع الفائت، وكانت السيّدة "كار" مارّةً بعربتها المقعقعة العتيقة تلك، فنهض كارل وألقى سمكة أنقليسٍ كبيرة في خلفيّة العربة. وبينما كانت السيّدة "كارّ" العجوز المسكينة تقود عربتها إلى أعلى التلّة مرورًا بجانب إنجلسايد، راح الأنقليس يتلوّى بين قدميها فحسبته ثعبانًا وأطلقت صرخةً فظيعةً واحدة ووقفت وقفزت من العربة، وفرّ الحصان منطلقًا ولكنّه عاد إلى المنزل لذا لم ينجم أيّ ضرر. ولكنّ ساقيّ السيّدة "كارّ" أُصيبتا بشكلٍ مريع وباتت تعاني من التشنّجات العصبيّة متى ما فكّرت بالأنقليس. ألا تظنّون أنّه ما كان عليه أن يقوم بتلك الخدعة الفاسدة على تلك العجوز المسكينة؟ فهي امرأةٌ موقّرة على الرّغم من أنّها غريبة الأطوار."

تبادلت فيث وأونا النّظرات مجدّدًا، كانت تلك مسألةٌ تعني نادي السّلوك الحسن وما كانوا ليتحدّثوا في الأمر مع ماري.

قالت ماري بينما مرّ السيّد ميريديث من جانبهم: "ها هو والدكم ولم يرنا كعادته وكأنّنا غير مرئيّين، حسنًا أنا لا أمانع ذلك ولكنّ هناك أناسٌ يمانعون."

لم يكن السيّد ميريديث قد رآهم ولكنّه لم يكن يسير بطريقته الحالمة والشّاردة كعادته بل كان يسير إلى أعلى التلّة باهتياجٍ وانزعاج، كانت السيّدة "آلك دايفس" قد أخبرته للتوّ بحادثة كارل والأنقليس وكانت مغتاظةً جدًّا من الأمر، إذ كانت السيّدة "كار" قريبتها الثّالثة. كان السيّد ميريديث أكثر من مغتاظ بل كان متألّمًا ومصعوقًا فهو لم يظنّ من قبل أنّ كارل قد يقدم على هكذا فعل فهو لم يكن ميّالًا للألاعيب والرّعونة والتّغافل ولكن كان هذا مختلفًا، كان فيه نكهة لاذعة. حين وصل إلى المنزل، وجد كارل على العشب يراقب عادات وتقاليد مستعمرة من الدّبابير، استدعاه السيّد ميريديث إلى المكتب وواجهه بوجهٍ أكثر

صرامةٍ لم يسبق أن رآه أيٌّ من أطفاله وسأله إن كانت القصّة صحيحة.

قال كارل بوجهٍ محمرّ ولكنّه كان ينظر في عينيّ والده بشجاعة: "أجل."

تأوّه السيّد ميريديث إذ كان يأمل أن يكون في القصّة بعض المبالغة على الأقلّ.

وقال: "أخبرني بالقصّة كاملة."

قال كارل: "كان الصّبية يصطادون الأنقليس فوق الجسر وكان "لينك درو" قد اصطاد سمكةً هائلة... أعني سمكةً ضخمة... أكبر سمكةٍ رأيتها في حياتي. كانت أوّل سمكةٍ رأيت أنّه التقطها وكانت قد بقيت في سلّته لوقتٍ طويل وكانت ساكنة، كنت أحسبها ميتة، صدقًا حسبتها ميتة. وبعدها مرّت السيّدة "كارّ" العجوز من فوق الجسر ودعتنا بالأوغاد وأخبرتنا أن نعود إلى المنزل، ولم نكن قد قلنا لها أيّ كلمة يا والدي، صدقًا. لذا وحين مرّت في طريق عودتها بعد أن ذهبت إلى المتجر، تحدّاني الصّبية أن أضع الإنقليس الذي اصطاده "لينك" في خلفيّة عربتها. ظننته ميتًا وأنّه لن يتسبّب لها بالأذيّة فألقيته في العربة وبعدها عاد الإنقليس للحياة فسمعناها ورأيناها تصرخ وتقفز من العربة. لقد شعرت بالأسف الشّديد وهذا كلّ ما في الأمر يا والدي."

لم يكن الأمر بالسّوء الذي كان يخشاه السيّد ميريديث ولكنّه كان سيّئًا بما يكفي. فقال بأسى: "لا بدّ لي من معاقبتك يا كارل."

"نعم، أعلم ذلك يا والدي."

"عليّ... عليّ أن أضربك."

نكص كارل فزعًا، لم يسبق له أن تلقّى الضّرب في حياته ولكنّه بعد أن رأى كم كان والده يشعر بالذّنب قال بابتهاج: "حسنًا يا والدي."

أساء السيّد ميريديث فهم بشاشته وحسبه عديم الإحساس وأخبر كارل أن يحضر إلى مكتبه بعد العشاء وحين غادر الفتى، ارتمى على

كرسيّه وتأوّه مجدّدًا، كان مذعورًا ممّا سيحدث اللّيلة أكثر سبعة أضعافٍ ممّا كان كارل مذعورًا. لم يكن الكاهن المسكين يعلم حتّى بما عليه أن يضرب الفتى. ما الذي يُستعمل لضرب الفتية؟ القضبان؟ الخيزران؟ لا، سيكون ذلك عنيفًا أكثر ممّا ينبغي. سوطًا خشبيًّا إذًا؟ سوف يكون عليه هو، "جون ميريديث"، أن يذهب إلى الغابة ويأتي بسوطٍ خشبيّ وكانت تلك فكرةً مروّعة. وبعدها، ارتأت لذهنه، وبدون دعوة، صورة وجه السيّدة "كار" المذعور لرؤية ذلك الإنقليس يعود للحياة، ورآها تبحر كالسّاحرة فوق عجلات العربة، فضحك قبل أن يتسنّى له أن يمتنع عن ذلك، وبعدها كان غاضبًا من نفسه وأكثر غضبًا من كارل.

في المقبرة، كان كارل يتحدّث في الأمر مع فيث وأونا اللّتين كانتا قد عادتا إلى المنزل لتوّهما وهلعتا لفكرة أنّ كارل سيُضرب، سيضربه والده الذي لم يسبق له أن فعل! ولكنّهما اتّفقتا على أنّ ذلك كان منصفًا.

تنهّدت فيث وقالت: "أنت تعلم أنّ ما فعلته لا يُغتفر كما أنّك لم تعترف بفعلتك في النّادي."

قال كارل: "لقد نسيت. ثمّ إنّني لم أظنّ أنّ الأمر تسبّب بأذيّة أحدهم، لم أكن أعلم أنّها أصابت قدميها ولكنّني سأُضرب وسيكون ذلك عادلًا."

قالت أونا ممسكةً بيد كارل: "هل سيكون ذلك... مؤلمًا جدًّا؟"

قال كارل بعبث: "آه لا أظنّ أنّ ذلك سيكون مؤلمًا جدًّا. على أيّة حال، أنا لن أبكي مهما كان ذلك موجعًا لأنّ ذلك قد يشعر والدي بالذّنب. أتمنّى لو أستطيع ضرب نفسي كما ينبغي فأعفيه من فعل ذلك."

بعد العشاء، حيث لم يأكل كارل سوى القليل ولم يتناول السيّد

ميريديث أيّ شيء، توجّه الاثنان إلى المكتب بصمت. كان السّوط على الطّاولة وكان السيّد ميريديث قد واجه وقتًا عصيبًا في إيجاد سوطٍ يناسبه. كان قد قطع واحدًا فوجده نحيفًا جدًّا ولكنّ كارل كان قد اقترف ذنبًا لا مبرّر له، ثمّ قطع واحدًا آخر وكان ثخينًا جدًّا، ففي آخر المطاف، كان كارل يحسب الإنقليس ميتًا. كان الثّالث مناسبًا له ولكنّه حين التقفه من على الطّاولة، بدا ثخينًا وثقيلًا جدًّا... وكان أشبه بالقضيب من السّوط.

قال لـكارل: "مدّ يدك."

أرجع كارل رأسه للوراء ومدّ يده من دون تردّد ولكنّه كان ما يزال صغيرًا، ولم يكن في وسعه أن يخفي القليل من الذّعر في عينيه. نظر السيّد ميريديث في تلك العينين، كانتا عينيّ "سيسيليا"، العينين نفسهما وفيهما كان التّعبير ذاته الذي كان قد رآه ذات مرّة في عينيّ "سيسيليا" حين أتت لتخبره بأمرٍ كانت تخشى إخباره به.

هنا كانت عينا "سيسيليا" في محيا صغيره كارل الذي كان يحسبه على مشارف الموت ذات ليلةٍ فظيعةٍ لا نهائيّة منذ ستّة أسابيع.

رمى "جون ميريديث" السّوط.

وقال: "اذهب. لا يمكنني أن أضربك."

هرع كارل إلى المقبرة وقد شعر أنّ النّظرة التي اعتلت وجه والده كانت أسوأ من أيّ ضربٍ قد يتلّقاه.

سألت فيث: "هل انتهى الأمر بهذه السّرعة؟". كانت هي وأونا جالستين على شاهد قبر "بولوك" ممسكتين بأيدي إحداهما الأخرى.

قال كارل منتحبًا: "هو... لم يقم بضربي مطلقًا و... أتمنّى لو أنّه فعل وها هو في الدّاخل يصارع أحزانه."

تسلّلت أونا بعيدًا عنهما، كان قلبها توّاقًا لمواساة والدها. فتحت باب المكتب من دون إصدار أيّ صوت وتسلّلت إلى الدّاخل كالفئران.

كانت الغرفة مظلمة وكان والدها جالسًا إلى مكتبه مديرًا ظهره لها وغارسًا رأسه بين يديه. كان يحدّث نفسه بقلبٍ منفطر، كلماتٍ مأساويّة ولكنّ أونا سمعت... سمعت وفهمت بالاستنارة المفاجئة التي تأتي إلى الأطفال اليتامى. ثمّ تسلّلت خارجًا وأغلقت الباب بالهدوء نفسه الذي دخلت فيه. استرسل "جون ميريديث" في إفصاحه عن ألمه في عزلته الرّائقة.



34
أونا تزور التلّة



صعدت أونا السّلالم. كان كلٌّ من كارل وفيث في طريقهما إلى وادي قوس المطر مع بزوغ القمر إذ كانا قد سمعا هزج قيثارة جيري وأدركا أنّ أطفال بلايث كانوا هناك وأنّ المرح في انتظارهما. لم ترغب أونا في الانضمام إليهما بل انصرفت إلى غرفتها أوّلًا حيث جلست على سريرها وبكت لبعض الوقت. لم تكن تريد أن تحلّ أيّ امرأةٍ مكان أمّها الحبيبة، لم تكن تريد زوجة أبٍ تكرهها وتحرّض والدها على كرهها. ولكنّ والدها كان تعيسًا ويائسًا وإن كان في وسعها أن تعيد السّرور إلى قلبه بأيّ طريقة فلا بدّ من أن تفعل. هناك أمرٌ واحدٌ يمكنها القيام به... وقد علمت منذ اللّحظة التي غادرت فيها المكتب أنّ عليها أن تفعل ذلك ولكنّه كان أمرًا عسيرًا.

بعد أن ذرفت أونا الدّمع الغزير، مسحت دموعها ثمّ اتّجهت إلى الغرفة الإضافيّة. كانت مظلمةً ومعفّرة ذلك أنّ السّتائر والنوافذ لم تُفتح منذ وقتٍ طويل. لم تكن الخالة مارثا من محبّي الهواء الطّلق ولكنّ ذلك لم يكن مهمًّا لأنّ لا أحد في الدّير يفكّر في إغلاق الأبواب، ناهيك عن حضور كاهنٍ غير محظوظٍ إلى الدّير ويُرغم على تنفّس

هواء الغرفة الإضافيّة.

كان هناك خزانةٌ في الغرفة الإضافيّة وفي داخلها فستانٌ حريريٌّ رماديّ. دخلت أونا إلى الخزانة وأغلقت الباب ثمّ جثت على ركبتيها وضمّت الطّيّات الحريريّة النّاعمة إلى وجهها. كان ذلك فستان زفاف والدتها وكان ما يزال يعبق بعطرٍ حلوٍ غامض، كأنّه حبٌّ لا ينضب. كانت أونا تشعر دائمًا بأنّها قريبةٌ جدًّا من والدتها في ذلك المكان... وكأنّها جاثيةٌ أمام قدميها واضعةً رأسها في أحضانها، وكانت تذهب إلى هناك حين تعييها مصاعب الحياة.

همست للثّوب الحريريّ قائلة: "أمّاه، أنا لن أنساك أبدًا يا أمّاه وسوف تبقين الحبّ الأوّل في قلبي ولكن عليّ أن أفعلها يا أمّي لأنّ والدي تعيسٌ جدًّا وأنا أعلم أنّك ما كنت لترغبي برؤيته شقيًّا هكذا. وسوف أحسن إليها يا أمّي وسأحاول أن أحبّها حتّى وإن كانت من أمثال زوجات الأب اللّواتي تحدّثت عنهنّ ماري فانس."

استجمعت أونا بعض القوى الرّوحيّة من مقامها السريّ. وغفت تلك اللّيلة وآثار الدّموع ما زالت تلمع على وجهها اللّطيف الجادّ.

بعد ظهيرة اليوم التّالي، ارتدت أونا أفضل قبّعةٍ وفستانٍ لديها وكانا رثّين بما يكفي. كانت كلّ الفتيات الصّغيرات في جلين يملكن ملابس جديدةً لهذا الصّيف باستثناء فيث وأونا. كانت ماري فانس تملك فستانًا جميلًا من النّسيج المطرّز ذو حزامٍ قرمزيٍّ حريريّ ولكنّ أونا لم تكن تهتمّ لرثاثتها بل كانت تريد أن تبدو مرتّبة وحسب. قامت بغسل وجهها بعناية وسرّحت شعرها الأسود إلى أن أصبح ناعمًا كالحرير وربطت رباط حذائها بحذر بعد أن رتقت زوج الجوارب الجيّد الوحيد الذي كان لديها، كان ترغب في سخام حذائها ولكنّها لم تجد أيّ طلاءٍ أسود. وأخيرًا تسلّلت من الدّير وعبرت وادي قوس المطر، والغابات الهامسة إلى أن وصلت إلى الطّريق المودية إلى المنزل فوق التّلّة

وكانت متعبةً ودافئة حين وصلت إلى هناك.

رأت "روزماري ويست" جالسةً تحت شجرةٍ في الحديقة وعبرت فراش أزهار الدّاهلية لتصل إليها. كانت تضع كتابًا في حضنها ولكنّها كانت تحدّق بعيدًا في الميناء، وكانت أفكارها مأسوفًا عليها بما يكفي. لم تكن الحياة رغدةً في منزل التلّة مؤخّرًا. لم تحرد إيلين... بل كانت مساندة ولكنّ المرء يستشعر أمورًا وهو في غنى عن الكلمات نهائيًا، وفي بعض الأحيان يكون الصّمت بين امرأتين بليغًا بشكلٍ لا يُطاق. باتت جميع الأشياء المألوفة التي كانت تحمل طعم الحلاوة تحمل طعمًا مريرًا الآن. كما أنّ "نورمان دوجلاس" قد فار فائره من وقتٍ لآخر وراح يرهب إيلين ويتزلّف إليها. كانت روزماري واثقةً من أنّ هذه المحنة ستنتهي باصطحابه لإيلين معه ذات يوم وانتابها شعورٌ أنّها ستُسرّ لحدوث ذلك. ستكون الحياة موحشةً جدًّا حينها ولكنّها لن تكون مشحونةً بالمتفجّرات.

أيقظتها لمسةٌ خجولةٌ على كتفها من أحلامها المكدرة. فاستدارت ورأت "أونا ميريديث".

"حبيبتي أونا، هل صعدت إلى هنا في هذا الجوّ الحارّ؟"

قالت أونا: "أجل، لقد أتيت كي... أتيت كي..."

ولكنّها استصعبت قول غايتها من مجيئها فخانتها عباراتها واغرورقت عيناها بالدّموع.

"ما المشكلة يا صغيرتي الحلوة أونا؟ لا تخشي من إخباري."

وضعت روزماري ذراعها حول الفتاة الصّغيرة وضمّتها إليها. كانت عيناها جميلتين للغاية... ولمستها عطوفة فاستعادت أونا شجاعتها.

قالت أونا وهي تلهث: "أتيت... لأطلب منك... أن تتزوّجي والدي."

عُقد لسان روزماري لبرهةٍ وحدّقت بـأونا باندهال.

قالت أونا متوسّلة: "آه رجاءً لا تغضبي يا عزيزتي الآنسة "ويست". كما ترين، يقول الجميع أنّك ترفضين الزّواج من والدنا لأنّنا أطفالٌ أشقياء، وهذا الأمر يحزنه حقًّا لذا فكّرت في أن آتي وأخبرك أنّنا لا نسيء التّصرّف عمدًا أبدًا، وإن وافقت فقط على الزّواج من والدنا فسنحاول أن نكون مؤدّبين ونحسن التّصرّف وننصاع لأوامرك. أنا واثقةٌ من أنّك لن تواجهي المتاعب بسببنا. أرجوك يا آنسة ويست."

كانت روزماري تفكّر بسرعة ورأت أنّ تخمين الثّرثارين قد زرع هذه الفكرة الخاطئة في ذهن أونا. كان عليها أن تكون صريحةً وصادقةً بشفافية مع الطّفلة.

فقالت بلطف: "حبيبتي أونا، لا ذنب لكم أيّها الصّغار المساكين في عدم زواجي من والدكم. أنا لم أفكّر في هذا الأمر مطلقًا. أنتم لستم أطفالًا سيّئين... لم أحسبكم كذلك قط. السّبب... السّبب مختلفٌ تمامًا يا أونا."

سألت أونا وهي ترمقها بنظراتٍ مؤنّبة: "ألا تحبّين والدي؟ آه يا آنسة ويست أنت لا تعلمين كم هو ودود أنا واثقةٌ من أنّه سيكون زوجًا لائقًا بك."

حتّى في وسط أشجانها وانحراجها، لم تتمكّن روزماري من منع الابتسامة التي ارتسمت فوق ثغرها.

صاحت أونا بانفعال: "آه لا تضحكي يا آنسة ويست فوالدنا يشعر ببالغٍ من الاستياء إزاء هذا الأمر.

قالت روزماري: "أظنّ أنّك مخطئةٌ يا صغيرتي."

"كلّا أنا واثقةٌ من أنّني لست مخطئة. آه يا آنسة ويست كان والدنا على وشك ضرب كارل أمس... فقد تصرّف كارل برعونة... ولم يتمكّن والدنا من حمل نفسه على القيام بذلك لأنّه لا يملك الخبرة في الضّرب. لذا حين عاد كارل وأخبرنا كم كان والدنا مستاءً، تسلّلت إلى

مكتبه لأرى إن كان في وسعي مساعدته... فهو يحبّ أن أواسيه يا آنسة ويست... ولم يلحظ أنّني دخلت ولكنّني سمعت ما كان يقوله. سأخبرك بما سمعت يا آنسة ويست إن سمحت لي بالهمس في أذنك."

همست أونا بصدق واحمرّ وجه روزماري. إذن فجون ميريديث ما زال مهتمًّا بأمرها وهو لم يغيّر رأيه، ولا بدّ من أنّه مهتمٌّ بشكلٍ رهيب إن كان قد قال هذا الكلام... لا بدّ من أنّه مهتمٌّ أكثر ممّا كانت تتوقّع. جلست ساكنةً للحظات تداعب شعر أونا ثمّ قالت:

"هلّا أخذت رسالةً منّي إلى والدك يا أونا؟"

سألت أونا بتلهّف: "آه أستتزوّجينه يا آنسة ويست؟"

قالت روزماري وقد احمرّ وجهها مجدّدًا: "ربّما... إن كان حقًّا يرغب في ذلك."

قالت أونا بشجاعة: "يسرّني ذلك... يسرني ذلك." ثمّ رنت إليها وقد ارتعشت شفتاها وقالت باستجداء: "آه يا آنسة ويست أنت لن تقومي بتحريض والدنا ضدّنا... أنت لن تجعليه يكرهنا، صحيح؟"

حدّقت فيها روزماري ثانيةً.

"أتظنّين أنّني قد آتي على فعلٍ كهذا يا أونا ميريديث؟ من الذي وضع هذه الفكرة في رأسك؟"

"قالت ماري فانس أنّ جميع زوجات الأب هكذا... وأنّ جميعهنّ يبغضن أبناء أزواجهنّ ويزرعن الكراهيّة في قلب الوالد تجاههم... وقالت أنّهنّ عاجزاتٌ عن التّحكّم في هذا... وأنّ كونهنّ زوجات أبٍ يجعلهنّ هكذا."

"أيتّها الطّفلة المسكينة! وعلى الرّغم من ذلك فقد أتيت إلى هنا وطلبت منّي أن أتزوّج من والدك، لأنّك أردت إدخال السّرور إلى قلبه؟ أنت قرّة عين، أنت بطلة على قولة إيلين، أنت عون الحبيب. والآن أنصتي لما سأقوله يا حبّة قلبي. إنّ ماري فانس فتاةٌ ساذجة لا تعرف

الكثير عن الحياة وهي مخطئةٌ في بعض الأمور. لن أفكّر مطلقًا في تحريض والدكم ضدّكم، بل سأحبّكم جميعًا من أعماق قلبي. أنا لا أريد أن أحلّ مكان والدتكم... إذ لا بدّ من أن يكون لها مكانةٌ خاصّةٌ في أفئدتكم، ولكنّني لا أملك أدنى نيّةٍ في أن أكون زوجة أبيكم، بل أرغب في ان أكون صديقتكم ومساعدتكم وإحدى أترابكم. ألا تظنّين أنّ ذلك سيكون ظريفًا يا أونا؟ إن حسبتني أنت وفيث وكارل وجيري رفيقةً مرحةً وطيّبة... أو أختًا كبرى؟"

صاحت أونا وقد تغيّرت ملامحها: "آه سيكون ذلك رائعًا!" ثمّ لفّت ذراعيها باندفاعٍ حول عنق روزماري وكانت تشعر بسعادةٍ غامرةٍ وكأنّ في وسعها أن تطير من دون أجنحة.

"هل يملك الآخرون... هل تملك فيث والفتيان نفس الفكرة عن زوجات الأب؟"

"لا، لم تصدّق فيث ماري فانس قط، وكان من التسخف أن أصدّقها أيضًا. إنّ فيث تحبّك بالفعل... لطالما أحبّتك منذ أن أُكل المسكين آدم وسوف يُسرّ جيري وكارل. آه يا آنسة ويست هلّا... أيمكنك أن تعلّميني الطّبخ... قليلًا... والخياطة و... وبعض الأمور الأخرى حين تأتين للعيش معنا؟ أنا أجهل القيام بأيّ شيء، لن أتعبكِ... سأحاول أن أتعلّم بسرعة."

"سأبذل قصارى جهدي في تعليمك ومساعدتك يا حبّة قلبي. ولكن اسمعي، لا تخبري أحدًا بأيّ شيءٍ بخصوص هذا الموضوع، ولا حتّى فيث إلى أن يخبركم والدكم بنفسه، إتّفقنا؟ وهل ستبقين لاحتساء الشّاي معي؟"

قالت أونا متعثّرة: "آه شكرًا لك ولكن... ولكن... أظنّ أنّه من الأفضل أن أعود أدراجي وأوصل الرّسالة إلى والدي، وهكذا سيسرّ في أقرب وقتٍ ممكن يا آنسة ويست."

قالت روزماري: "حسنًا."

ثمّ دخلت إلى المنزل وخطّت الرّسالة وأعطتها لأونا. وحين غادرت تلك الآنسة الصّغيرة كباقةٍ من السّعادة الخافقة، ذهبت روزماري إلى إيلين التي كانت تقشّر البازلاء على الشّرفة الخلفيّة.

وقالت: "إيلين، لقد جاءت أونا ميريديث إلى هنا لتطلب منّي الزّواج من والدها."

نظرت إيلين إلى أختها وقرأت ملامح وجهها.

وقالت: "وهل ستفعلين؟"

"على الأرجح."

راحت إيلين تقشّر البازلاء لبضعة دقائق أخرى، ثمّ رفعت يديها إلى وجهها فجأةً وكان هناك دموعٌ في عينيها الكبيرين ذاتيّ الحاجبين السّوداوين.

وقالت بين الضّحك والنّشيج: "آمل... آمل أن نعيش حياةً هنيئة."

في الدّير، سارت أونا ميريديث، وهي المنتصرة والجذلة، بفخرٍ إلى مكتب والدها ووضعت الرّسالة على الطّاولة أمامه. تورّد وجهه الشّاحب عند رؤيته لخطّ اليد الواضح والدّقيق الذي كان يعرفه جيّدًا. فتح الرّسالة. كانت قصيرةً جدًّا ولكنّ دموعه انهمرت كالسّيل بينما كان يقرأها، كانت روزماري قد سألته إن كان يستطيع مقابلتها عند المغيب قرب الينبوع في وادي قوس المطر.

***

35

"دعوا المزماريّ يحضر"



قالت الآنسة "كورنيليا: "وهكذا سيُقام حفل الزّفاف المزدوج في إحدى الأيّام قرابة منتصف هذا الشّهر."

كان الجوّ باردًا بعض الشّيء في أمسية أوائل شهر أيلول، لذا أضرمت آن نار موقدها الحطبيّ الجاهز في غرفة المعيشة الواسعة، وتغنّت هي والآنسة كورنيليا بوميضها الخياليّ.

قالت آن: "أنا مبتهجةٌ للغاية، لا سيّما من أجل السيّد ميريديث وروزماري. أشعر بالسّعادة نفسها التي غمرتني حين كنت مقبلةً على الزّواج. لقد شعرت أنّني عروسٌ مجدّدًا حين صعدت إلى التلّة لأرى تحضيرات زفاف روزماري."

قالت سوزان من الزّاوية حيث كانت تحتضن طفلها الأسمر: "سمعت أنّ ما جهّزته يليق بالأميرات. لقد دُعيت لأراه أيضًا وأنا أنوي أن ألبّي الدّعوةٍ ذات مساء. فهمت أنّ روزماري سوف تلبس الحرير الأبيض مع طرحة ولكنّ إيلين ستتزوّج بفستانٍ كحليّ. وأنا لا أشكّ يا عزيزتي زوجة الطّبيب أنّ ذلك تصرّفٌ صائبٌ منها ولكنّني، عن نفسي، أفضّل الفستان الأبيض والطّرحة فذلك يليق بالعروس أكثر."

إرتأت لآن صورة سوزان بفستانٍ أبيض وطرحة وبالكاد استطاعت تمالك نفسها.

قالت الآنسة كورنيليا: "أمّا بالنّسبة للسيّد ميريديث فقد جعلته خطبته رجلًا مختلفًا فهو لم يعد غافلًا وشارد الذّهن كما كان من قبل صدّقيني. لقد ارتحت لسماعي أنّه قرّر إغلاق الدّير والسّماح لأطفاله بزيارة أصدقائهم ريثما يقضي شهر العسل مع روزماري. كنت سأتوقّع أن أفيق كلّ صباحٍ وأجد المنزل محترقًا لو أنّه تركهم بمفردهم مع الخالة مارثا هناك."

قالت آن: "سوف تأتي الخالة مارثا مع جيري إلى هنا أمّا كارل فسيزور الشّيخ "كلو" ولكنّني لا أدري أين ستبقى الفتاتان."

قالت الآنسة كورنيليا: "آه سوف تأتيان إلى منزلي. وبالطّبع يسرّني ذلك ولكنّ ماري ما كانت لتريحني لو أنّني لم أطلب منهما القدوم في جميع الأحوال. سوف تقوم جمعيّة "مساعدة السيّدات" بتنظيف الدّير قبل عودة العروسين واهتمّ "نورمان دوجلاس" بملء القبو بالخضروات."

لم يسبق لأيّ أحدٍ في هذه الأيّام أن رأى مثيلًا لنورمان أو سمع به، صدّقيني. إنّه فرحٌ للغاية لأنّه سيتزوّج من إيلين بعد أن كان يمنّي النّفس بها لسنوات. لو كنت إيلين... ولكنّني لست إيلين ولكن إن كانت راضية فيمكنني أن أكون راضيةً كذلك. لقد سمعتها تقول قبل سنواتٍ أنّها لا تريد أن تتزوّج جروًا مروّضًا، ولا شيء في نورمان يوحي بالوداعة، صدّقيني."

كانت الشّمس تغيب في وادي قوس المطر. والبركة تتزيّن برداءٍ بنفسجيٍّ وذهبيٍّ وأخضر وقرمزيٍّ مذهل وتلوّنت التّلّة الشّرقيّة بلونٍ أزرق هافت وكان القمر البدر المتوهّج يطفو في السّماء فوقها كأنّه فقّاعةٌ فضيّة.

كانوا جميعًا مجتمعين هناك في الفسحة المفتوحة الصّغيرة، فيث وأونا وجيري وكارل وجيم ووالتر ونان ودي وماري فانس، كانوا يقيمون احتفالًا مميّزًا على شرف جيم لأنّ تلك ستكون أمسيته الأخيرة في وادي قوس المطر وسيتعيّن عليه أن يرتحل غدًا إلى شارلوت تاون للحضور في أكاديميّة "كوين". سوف تُفسخ دائرتهم السّحريّة وعلى الرّغم من مرحهم في مهرجانهم ذاك غير أنّه كان هناك شيءٌ من الأسوان في قلوبهم الفتيّة.

أشار والتر قائلًا: "أترون، هناك قصرٌ ذهبيٌّ ضخمٌ عند المغيب، انظروا إلى البرج المتوهّج... وإلى البيارق القرمزيّة المنبعثة منهما. لربّما هناك ظافرٌ في إحدى المعارك في طريقه للعودة إلى دياره... وتلك البيارق معلّقة تكريمًا له."

هتف جيم: "آه أتمنّى لو تعود الأيّام الخوالي. أحبّ أن أكون جنديًّا، جنرالًا منتصرًا عظيمًا. سأقدّم كلّ ما لديّ لأشهد معركةً عظيمة."

حسنًا، كان جيم سيصبح جنديًّا ويشهد أعظم معركةٍ اندلعت على وجه الأرض ولكنّ ذلك ما زال ينتمي إلى المستقبل البعيد وكانت والدته، والتي كان جيم ابنها البكر، معتادةً على النّظر إلى أولادها وحمد اللّه أنّ أيّام الشّجاعة الماضية التي كان جيم يتوق إليها قد ولّت للأبد، وأنّه لن يضطرّ أبناء كندا لقيادة معركةٍ لأجل رماد آبائهم ومعابد آلهتهم.

لم يكن ظِلُّ الصّراع العظيم قد أنذر ببرودته بعد. كان الفتيان الذين سيقاتلون، وربما يسقطون، في ميادين فرنسا وفلاندرز وجليبولي وفلسطين ما يزالون تلاميذ مدارس طائشين، وكانت الحياة العادلة ما تزال تلوح أمامهم عند الأفق. وكانت الفتيات اللواتي كانت ستنفطر قلوبهنّ ما يزلن صغيراتٍ عذارى يحملن الآمال والأحلام.

تخلّت بيارق مدينة الغروب عن الألوان القرمزيّة والذهبيّة شيئًا

فشيئًا وتلاشى حفل تكريم المنتصر ببطء. تسلّل الشّفق إلى الوادي وخيّم الصّمت فوق المجموعة الصّغيرة. كان والتر يقرأ في كتاب أساطيره المحبّب ذلك اليوم أيضًا فتذكّر كيف تخيّل مجيء المزماريّ الأبلق إلى الوادي في مساءٍ مماثلٍ لهذا المساء تمامًا.

راح يتحدّث حالمًا، أراد جزءٌ منه أن يثير رفاقه وشعر الجزء الآخر أنّ شيئًا منفصلًا عنه تكلّم بواسطة شفتيه.

فقال: "إنّ المزماريّ يقترب وهو أقرب ممّا كان عليه في تلك اللّيلة التي رأيته فيها للمرّة الأولى. إنّ عباءته الطّويلة الغامضة تلوح من حوله. إنّه يعزف ويعزف ويعزف... وعلينا أن نتبعه... أنا وجيم وكارل وجيري... حول العالم. أنصتوا، أنصتوا، أليس في وسعكم سماع موسيقاه الجيّاشة؟"

ارتعشت الفتيات.

احتجّت ماري قائلة: "أنت تعلم أنّك تتظاهر ليس إلّا وأتمنّى أن تقلع عن ذلك فأنت تجعل الأمر يبدو واقعيًا جدًّا. أنا أكره المزماريّ خاصّتك ذاك."

ولكنّ جيم راح يضحك ضحكة مرحة ووقف على أكمةٍ صغيرةٍ مستقيمًا ومهيبًا، بجبينه الوضّاح وعينيه اللّتين لا تخشيا شيئًا. كان هناك العديد من أمثاله في أرجاء أرض القيقب.

صاح ملوّحًا بيده: "دعوا المزماريّ يحضر ورحّبوا به، سوف أتبعه حول العالم."

***




ستة أبطال
صغار، يستلمون دفّة القيادة في هذه
الرحلة المميزة من سلسلة آن. اكتشف هؤلاء
الأشقياء "وادي قوس المطر" في الجزء السابق،
ذلك المكان الحالم في إنجلسايد الذي خَدَم خيالاتهم
الفتية ومغامراتهم الشيّقة ومعاركهم المبتكرة.
كبر الأطفال، وبدأت أحلامهم تكبر معهم، ولكن يشاء
القدر أن تنضم إليهم مجموعةً أخرى في وادي قوس
المطر، أطفال لم يرَ لهم أحد مثيل من قبل، عائلة "ميريديث"
وبعد أن يدخلون حياة أبناء آن، تدخل حياتهم جميعًا "ماري
فانس" اليتيمة الغريبة، التي تقلب الأمور في المنطقة.
تتوالى الأيام وتتوالى معها الأحداث والمصائب والمغامرات وثرثرة نساء
القرية، كل يوم جديد يحمل معه حكاية جديدة، أما في وادي قوس المطر
فهناك دائمًا مغامرةً تختمر تحت سمائه المشمسة.
telegram @soramnqraa
flamingopubl & Little Puffin
ISBN 978-9922-9289-8-2
9 789922 928982
Designed by: MAHER ADNAN